دروس و محاضرات في مادة

اِنتشَار الإِسْلاَم في افريقيا حنوب الصحراء

السنة اولى ماسيتر تاريخ

تنخصص افريقيا جنوب الصحراء

اعداد : الدكتور نور الدين شعباني

أستاذ محاضر في تاريخ إفريقيا جنوب الصَّحراء

(جامعة خميس مليانة ـ الجزائر)

المحور الاول

انتشار الإسلام في السُّودان الغربي

المبحث الأول:مراحل انتشار الإسلام في السودان الغربي:

أولا: حدود الفتوحات الإسلامية:

كان أول اتصال للعرب المسلمين بالصحراء الكبرى الإفريقية عندما وجه عمرو بن العاص عقبة بن نافع إلى صحراء برقة في السنة الثانية للهجرة، حيث وصل حسب رواية ابن عبد الحكم إلى برقة وصالح أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها له جزية، على أن يبيعوا من أحبوا من أبنائهم في جزيتهم ثم وصل الى زويلة التي تعد أول بلاد السودان. ، وبعد فتحه لطرابلس الغرب فتح ودان (قرب مدينة زويلة)، وفتح أيضا مدينة فزان (جنوب طرابلس)، وذلك عام 46 للهجرة/666م، بالإضافة إلى مدينة كوار (الواقعة جنوب فزان). أما في ولايته الثانية، فيكون قد وصل إلى السوس الأقصى، وكان ذلك عام 62هـ/685م.

إن ابن عبد الحكم لا يفصل أكثر من هذا، بينما نجد أن البكري يشير إلى أن عقبة بن نافع قد وصل إلى أبعد من ذلك، و أنه بلغ مدينة نفيس، التي تقع في الركن الجنوبي من بلاد السودان بمحاذاة البحر المحيط، حيث يقول : «و من أغمات وريكة إلى مدينة نفيس1، وهي تعرف بالبلد النفيس كثيرة الأنهار و الثمار ليس في ذلك القطر موضع أطيب منه، و لا أجمل نظرا، و هي قديمة أولية، غزاها عقبة بن نافع صاحب رسول الله عليه وسلم، و حاصر بها الروم و نصارى البربر، وكانوا قد اجتمعوا بها لحصانتها وسعتها، فلزمهم حتى فتحها، و بنا فيها مسجدا إلى اليوم و أصابوا فيها غنائم كثيرة، وذلك سنة اثنين وستين، وهي اليوم آهلة عامرة بها جامع وحمام وأسواق جامعة».

و بعد هذه الرواية لم نجد إشارات أخرى عن الفتح الإسلامي في بلاد السودان، مما يجعلنا نعتقد بأن الفتوحات الإسلامية الأولى لم تتجاوز الشواطئ الجنوبية للصحراء، ولم تتوغل إلى بلاد السودان، و هذا ربما يعود إلى مقتل عقبة بن نافع، وانشغال الفاتحين من بعده بفتح الأندلس، التي

كانت تبدو أكثر أهمية من بلاد السودان. بالإضافة إلى المخاطر التي كانت تواجه الفاتحين الأوائل من القبائل البربرية الوثنين، و كذا هجمات الأسطول البيزنطي على سواحل قرطاجة، و على بعض الثغور البحرية في سواحل المتوسط.

ومهما يكن من أمر، فإن الفتح الإسلامي في بلاد السودان لم يتوقف عند ذلك الحد، بل أننا وجدنا إشارات مهمة في المصادر العربية، تتحدث عن استمرار عملية الفتح في عهد الأمويين، حيث يكون عبد الله بن الحبحاب، قد بعث مشروع فتح السودان من جديد، ففي سنة 116هـ، أرسل حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري غازيا إلى السوس الأقصى، و لم يقابله أحد إلا ظهر عليه، ولم يترك قبيلة إلا و فتحها و سباها. و يرجح البكري أن يكون هذا الجيش الذي أرسله الأمويون، قد دخل مملكة غانة لنشر الإسلام، ثم استقر بعضهم هناك، و خلفوا ذرية كونت ما يعرف في و يرجح البكري أن يكون هذا الجيش الذي أرسله الأمويون، قد دخل مملكة غانة لنشر عهده (خلال القرن الخامس للهجرة) قوم يعرفون بـ (الهنيهين)، و الذين يقول عنهم بأنهم وثنيون علي دين أهل غانة، ولا يتزوجون مع السود.

وعلى كل حال فإننا نرجح أن يكونوا مسلمين، لكنهم يخفون إسلامهم، على عادة بعض ملوك السودان آنذاك، ذلك أن الإسلام كان ما يزال في بداية عهده.

كما يحمل إلينا البكري، إشارات أخرى حول حملات الأمويين لفتح بلاد السودان، من خلال ذكره للآبار الموجودة في المجابة الكبرى للصحراء الواقعة جنوب درعه، و التي يقول عنها بأن الجيش الذي أرسله بنو أمية لفتح السودان هو الذي حفرهُ و رغم ذلك كله، فإن تلك الفتوحات التي بدأت منذ صدر الإسلام، و رغم قدمها، إلا أن دورها بقي بطيئا في نشر الإسلام، ذلك أن أكبر فترة لانتشار الإسلام في المنطقة، كانت خلال عهد المرابطين.

ثانيا: اعتناق قبائل الصحراء للإسلام و دورهم في نشره باتِّجاه الجنوب:

لقد كان للاحتلال الروماني لشمال إفريقيا يشكل حاجزا مهما أمام السودان الغربي والأوسط، ومع نهاية العهد الروماني عرفت القوافل التجارية ومعها الجمال الطريق العابر للصحراء،

معلنة عن ثورة حقيقية قلبت نمط الحياة في الصحراء الكبرى، و امتدت آثارها إلى غاية القرن التاسع للهجرة مع اكتشاف البرتغاليون للطريق البحري.

فلقد جلب الجمل نشاطا جديدا للصحراء و سكانها من البربر من خلال انتعاش عدد من المدن التجارية على حواف الساحل الصحراوي، كما سمح أيضا بإقامة اتصال دائم بين جنوب الصحراء و الحضارة القائمة في شمالها.

وإذا تحدثنا عن حضارة شمال الصحراء فإننا نقصد بالطبع الحضارة الإسلامية التي بدأت تبسط جناحيها على شمال إفريقيا منذ القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد. إن الشيء الجدير بالإشارة هو أن الفتوحات الإسلامية التي قادها العرب لم تتمكن من نقل هذا الدين الجديد إلى ما وراء الصحراء. فكان للبدو من بربر الصحراء الدور الرئيسي في الاضطلاع بهذه المهمة ابتداء من القرن الخامس للهجرة/11م. فلقد كانت أول حالات اعتناق الإسلام التي شملت سكان السودان الغربي إنما عن طريق قوافل التجار البربر التي كانت تتردد مابين المغرب و بلاد السودان، ولما كانت الصحراء هي وسيلة الربط الرئيسية بين الإقليمين فقد كان من الطبيعي أن يقوم أهل الصحراء بالدور الرئيسي في إقامة العلاقات التجارية فيما بين شمال الصحراء وجنوبها، ومن ثم في نشر الاسلام .

لقد كان البدو الرحل الصحراويون المعروفون بالملثمين أو قبائل صنهاجة، يقطنون الصحراء الكبرى على امتداد الطريق الممتد من موريتانيا إلى أودغست،) وكانوا يسيطرون على الصحراء ويتحكمون في القوافل التجارية المتجهة إلى بلاد السودان)خاصة عندما أحكموا سيطرتهم على أودغست سنة 350هجرية/ 961 ميلادية. و كانت القوافل التجارية تجتاز الصحراء عبر طرق ومسالك و واحات ومناجم الملح الذي كان أثمن سلعة يصدرونها إلى بلاد السودان، في رحلة شاقة وصعبة وجمة المخاطر، و لكنها مربحة. فلقد كانت تلك الأرباح كفيلة بأن تجعل التجار يولعون بالدخول إلى أرض السودان.لذلك كثرت الحركة التجارية، واكتظت المدن التجارية بمختلف الجاليات

المتاجرة[1]. وباعتناق قبائل صنهاجة الإسلام على يد عقبة بن نافع الفهري12 تحولت إلى صاحبة رسالة حضارية، تمثلت في نشر الإسلام بين الأقوام السودانية الذين كانوا يحتكون بهم في الأسواق والمراكز التجارية المنتشرة في الحواف الجنوبية للصحراء، و على تخوم بلاد السودان.

و هكذا فقد انتشر الإسلام بين الزنوج انتشارا سريعا و هادئا دون اللجوء إلى العنف، فلقد كان التجار المسلمون في تنقلهم بين المراكز التجارية و احتكاكهم بالزنوج، يؤثرون فيهم بسلوكهم الشخصي وأمانتهم و نظافتهم، وكثيرا ما انتهى هذا الاحتكاك بدخول كثير من هؤلاء الزنوج في الإسلام، ذلك أن عدد كبير من هؤلاء التجار كان يجمع بين التجارة والعلم.

كما لعب الفقهاء الاباضيون الذين استقروا على أطراف الصحراء في واحات فزان و جبل نفوسة وغدامس، وواحات الجزائر منذ القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، في اعتناق مجموعات من قبيلتي هوارة و زناته للمذهب الاباضي، و تخصص كثير منهم بالتجارة عبر الصحراء، فانضموا هم أيضا إلى النشاط الدعوي بالموازاة مع نشاطهم التجاري. كما أن قيام دول خارجية في المغرب الأوسط والأقصى كدولة بني مدرا الصفرية بسجلماسة، و دولة بني رستم بتيهرت، كان له أيضا تأثيرا بالغا في انتشار الدعوة الاباضية في صفوف التجار، على الأقل إلى غاية نهاية القرن الرابع للهجرة /10 ميلادي،وهي الفترة التي كانت عواصمهما تمثل أهم نقطتين تنتهي إليهما طرق القوافل التجارية المتجهة نحو أرض السودان، وكانت أسرة بني الخطاب الاباضية في زويلة (فزان) تسيطر على الطرف الشمالي لطريق التجارة الهام الواصل بين ليبيا و حوض بحيرة التشاد. وقد ورد في المصادر الإباضية بأن هناك عدد كبير من أئمتهم و فقهائهم قد زاروا غرب إفريقيا، وقد أسلم على أيديهم عدد مهم من السودان، و خاصة زعماء القبائل و أمرائهم الذين كانوا أكثر احتكاكا بهؤلاء التجار العلماء وأشد المعجبين بهم، لذا تبوؤوا مكانة مميزة لديهم.

(1) نفسه، ص 280.

و رغم أننا لا نرى اليوم أي آثار للمذهب الاباضي في الصحراء الجنوبية وإفريقيا الغربية، إلا أننا تعتقد بأنها اختفت تحت تأثير حركة المرابطين السنية المالكية.بالإضافة إلى زحف قبائل البدوية لبني هلال العربية على شمال إفريقيا و التخوم الشمالية للصحراء ابتداء من القرن الخامس للهجرة مما أدى إلى أفول نجم المجموعات الاباضية.

وعموما فإن الإسلام ظل ينتشر بين صفوف الشعوب السودانية من التجار أولا، ثم انتقل إلى طبقة الحكام ورجال الحاشية، لكن بوتيرة أقل، بحيث استغرقت هذه الفترة حوالي قرنين من الزمن، أي من القرن الثاني للهجرة/6م إلى القرن الرابع للهجرة/10م. لكن بمجرد انتهاء القرن الرابع وبداية القرن الخامس للهجرة حتى عرفت أرض الصحراء الكبرى حركة سياسية اتخذت طابعا دينيا، وعرفت على إثرها أرض السودان تسارع في وتيرة أسلام أهلها، ألا و هي حركة المرابطين.حيث عرف الإسلام بفضلها تغلغلا حقيقيا في السودان الغربي والأوسط، فانتشر لأول مرة في منطقة السنغال الأعلى و السنغال، و شواطئ بحيرة التشاد، و اكتسب الدين الإسلامي بذلك اعترافا رسميا في المجتمعات الإفريقية بعدما قبل به الحكام و الأمراء.[1]

فبعدما تزعم الفقيه السوسي عبد الله بن ياسين قبائل جدالة الصنهاجية ثم دخلت قبيلة لمتونة في دعوته، و غزا قبائل الصحراء ، ودانت له و لدعوته المرابطية، قام خليفتاه يحي بن عمر و أخوه أبي بكر بن عمر بتوجيه دعوتهما إلى داخل الصحراء، حيث توجه أبو بكر بن عمر و ابنه يحي على رأس جيش من المرابطين باتجاه بلاد السودان لنشر الإسلام في مملكة غانة الوثنية.**22** حيث تم إخضاعها الواحدة تلو الأخرى. و كان الأمير أبو بكر يخير أهل البلاد المفتوحة بين الإسلام أو الحرب إلى أن سقطت العاصمة الغانية كومبي صالح في أيدي المرابطين عام 469هـ/1076م، بعدما قتل عدد كبير من سكان غانة السوننكي.

(**1**) محمد الفاسي، المرجع السابق، ص 91

و هنا يجب أن نشير إلى أن المرابطين قاموا بعمل دعوي سلمي داخل مملكة غانة التي سقطت بين أيديهم ولم يرغموا سكان غانة السوننكي على إتباع الدين الجديد كما تدعيه بعض الدراسات الغربية، حيث قام أبو بكر بن عمر بإقامة عدد من الرباطات و المساجد وبالتالي كثر عدد الداخلين إلى الإسلام،كما سمح لملكهم بالبقاء في الحكم تابعا للمرابطين ولم يعزله.

و مهما يكن فإننا يجب أن تعترف بأن موجة اعتناق الإسلام الأولى في بلاد السودان، سواء كانت بدور من التجار أو الفقهاء، أو المرابطين، لم تشمل كل شرائح المجتمع السوداني، أو على الأقل لم يكن إسلام من اسلم منهم إلا إسلاما سطحيا، بينما نجد الفئة التي كانت السباقة لاعتناق الإسلام و فهمته و اقتنعت به، و من ثم وعت الرسالة التي يرمي إليها هذا الدين ، إنما هي الطبقة الأرستقراطية من التجار الكبار و رجال الدولة و في مقدمتهم فئة الملوك والأمراء الذين لم يكتفوا باعتناق الإسلام و الالتزام بتعاليمه فقط، و إنما تحولوا إلى دعاة حقيقيين من خلال مساهمتهم في نشر الإسلام في صفوف رعاياهم الذين بقوا متمسكين بدياناتهم التقليدية القائمة على الوثنية والسحر وعبادة أرواح الأجداد وغيرها. أو أولئك الذين لم يستوعبوا بعد مقاصد هذا الدين الجديد،كما شارك ملوك آخرون في الجهاد ضد الكفار من اجل إعلاء كلمة التوحيد.

ثالثا: دور المرابطين :

لا شك أن دور التجار المسلمين، قد ساهم بقسط وفير في نشر الدعوة الإسلامية في بلاد السودان الغربي، منذ صدر الإسلام و مجيء أولى القوافل الإسلامية إلى المنطقة. كما أن الفتوحات الإسلامية الأولى في عهد عقبة بن نافع، التي وصلت إلى مشارف الصحراء، و توغل الأمويين بالدين الجديد إلى قلب هذه الصحراء، كان ذا أهمية بالغة أيضا. إلا أن السودان لم يدخل بعد في التاريخ الإسلامي، بالمعنى الذي يؤثر في الحياة العقدية، التي كانت إلى غاية القرن الرابع للهجرة، تسيطر عليها الكثير من المعتقدات البدائية، من عبادة الأرواح و الأجداد المعروفة في إفريقيا السوداء.

كما أن المنطقة بقيت رغم وصول الإسلام إليها، تحتفظ بآثار الديانات السماوية الأخرى التي عرفها السودان الغربي قبل مجيء الإسلام. حيث توجد هناك فرضيات بوجود المسيحية واليهودية في بلاد السودان قبل الإسلام، انتقلت من شمال إفريقيا عبر التجارة كذالك ،لكننا لا نملك دلائل قوية على ذلك .

لكن هناك إشارات وفيرة في المصادر العربية، تبين أنه منذ القرن الرابع للهجرة كان الإسلام قد توغل إلى المدن السودانية، و لم يتأخر في التأثير على الأقل في زعماء القبائل السودانية و ممالكها، على غرار غانة و مالي و الكانم بورنو، لكن دون أن يكون قد توغل داخل بقية الشعوب الريفية، التي بقيت مخلصة لدياناتها ومعتقداتها الوثنية، على غرار شعوب الموسي والبامبارا و غيرها.

إذا فالإسلام، بقي ديانة المدن والتجمعات الحضرية، كما بقي إسلاما سطحيا، و لم يتوغل جيدا في الحياة اليومية لسكان الصحراء والسودان. إن هذا الوضع تطلب فتحا جديدا للإسلام، أي فتحا حقيقيا يكمل ما كان قد بدأه التجار والفاتحون الأوائل، و يعمل على غرس العقيدة الإسلامية في بلاد السودان، و يخلصها من الشوائب التي بقيت عالقة بها، و إخراجها من الديانات الوثنية، وحتى السماوية كالنصرانية و اليهودية،و بالتالي ربط بلاد السودان بالعالم الإسلامي.

إن هذا الدور العظيم، يتطلب رجالا ذوي عقيدة متينة، و دولة قوية، و هو ما يتوفر في المرابطين، الذين تعد دولتهم أول قوة وحدت المغربين الأقصى و الأوسط، و لعبت دورا كبير في نشر الإسلام في الساحل الإفريقي الغربي و بلاد السودان. و رغم أن دولة الأدارسة التي سبقتهم، قامت بدور مهم في نشر الإسلام في الصحراء الكبرى، ووصلت إلى سواحلها الجنوبية، مستكملة عملية الفتح. حيث ضمت قبائل الصحراء البربرية تحت لوائها، و وحدتها تحت راية الإسلام، إذ بايعت قبيلة (أوربة) البربرية مؤسس دولة الأدارسة (إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب)، المعروف بإدريس الأول و ذلك عام 172هـ 788م، وتبعته بعض القبائل الأخرى، مثل صنهاجة وهوارة وزناته.

كما أخذ أبو خالد بن يزيد البيعة لإدريس الثاني من القبائل البربرية، وخاضا حروبا كثيرة مع بربر المغرب الأقصى، واستطاع أن يمد نفوذه وسلطانه إلى بلاد المصامدة، وأن يستولي على نفيس وأغمات سنة 197هـ/812م، و بالتالي تمكن من نشر الإسلام بين هذه الشعوب التي كانت ما تزال على دين النصارى واليهود.

إن خضوع البربر لطاعة إدريس الثاني، و توحيدهم تحت سلطانه، زاد في تحول قبائل صنهاجة كذلك إلى الإسلام، الذي كان قد بدأ في عهد عقبة بن نافع، وازداد في عهد الأدارسة، وانتشر بين بربر الصحراء المعروفين بالملثمين في القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، وكان لإسلامهم أثر بالغ في تاريخ المغرب و بلاد السودان. إن إسلام الملثمين تمخض عنه قيام حلف قوي ضم القبائل البربرية بزعامة لمتونه، و أخذوا على عاتقهم مهمة نشر الإسلام نحو الجنوب، في الصحراء و بلاد السودان، مدفوعين في ذلك بحماسهم للجهاد، وحداثة عهدهم بالإسلام، و فلستهم القائمة على التشدد في أمور الدين، واحتقارهم حياة الدنيا و العزوف عن ملذاتها. كما ساعدهم على ذلك الضعف الذي بدأ يتسرب إلى مملكة غانة، خلال هذه الفترة، و إغارة أعدائها عليها.

و يؤكد ابن خلدون هذا الرأي بقوله: «أن أهل غانة ضعف ملكهم وتلاشى أمرهم، واستفحل أمر الملثمين المجاورين لهم من جانب الشمال، مما يلي البربر كما ذكرنا، وعبروا على السودان، واستباحوا حماهم، واقتضوا منهم الأتوات والجزي، وحملوا كثيرا منهم على الإسلام فدانوا به».

وكانت بداية سير الملثمين إلي بلاد السودان عام 433هـ/1042م، على رأس قوة عظيمة باتجاه مملكة مالي، التي كان على عرشها (سونذياتا)، و كان يتزعم الملثمين يحي بن إبراهيم من قبلية جدالة، و هي إحدى قبائل صنهاجة، والتي خلفت لمتونه في قيادة الملثمين. و كان يحي بن إبراهيم شيخا تقيا ورعا، يدعو إلى الحق و يحارب المظالم ، و هو من أهل السنة ، متمسك بمذهب مالك بن انس [1].

(1) البكري، المصدر السابق،164,

و كان برفقته فقيه من قبيلة جزولة ،يدعى عبد الله بن ياسين الجازولي، الذي استقبلته قبائل جدالة و لمتونة و بالغوا في إكرامه. و كان يعلمهم القرآن، و يلقنهم أصول الدين،و آداب الشرع. كما أخذ بالأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ، و يصلح الكثير من أخلاقهم الفاسدة التي ألفوها.إلا أنه لم يلق نجاحا كبيرا في دعوته [1]، و كان ذلك نتيجة النزاع القبلي القائم بين القبائل الصحراوية، و طبيعتهم البدوية.

ولما رأى عبد الله بن ياسين إعراض الناس عن دعوته، وإتباعهم لأهوائهم، عزم على الرحيل عنهم إلى بلاد السودان، التي كان أهلها قد دخلوا الإسلام في ذلك الوقت. إذ كانت أودغست، تحت سيطرة ملك مسلم من صنهاجة ، الذي كان بدوره يسيطر على حوالي عشرين أميرا مسلما من السودان لكن يحي بن إبراهيم لم يتركه وقال له: «إنما أتيت لأنتفع بعلمك في خاصة نفسي، و ما علي فيمن ضل في قومي» ، ذلك أن قومه لم يكن عندهم من الإسلام إلا الشهادة دون سواها من أركان الإسلام ثم ، قال يحي بن إبراهيم لعبد الله بن ياسين: "هل لك في رأي أشير به عليك إن كنت تريد الآخرة ؟ قال و ما هو ؟ قال ها هنا جزيرة في البحر ، و فيها الحلال المحض من شجر البرية وصيد البر والبحر ندخل فيها ونقتات من حلالها، و نعبد الله تعالى حتى نموت. فقال عبد الله بن ياسين إن هذا الرأي حسن، فهلم بنا (كذا) فندخلها على اسم الله».

وهكذا توجه عبد الله بن ياسين إلى جزيرة عند مصب نهر السنغال، و بنا بها رباطا[2] و انتقل معه عدد من أتباعه المخلصين كان عددهم في البداية سبعين، ثم بدأ يلتحق به الأتباع، يعبدون الله واعتزلوا بدينهم، و كان عبد الله بن ياسين يقرئهم القرآن، وستميلهم إلى الخير، و يرغبهم في ثواب

---

(1) **السلاوي (أبو العباس الناصري)**، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق:جعفر و محمد الناصري، مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954م، ج1، ص106

(2) الرباط هو مكان للعبادة يلجأ إليه أهل الزهد و التقشف و الجهاد في سبيل الله، منقطعين للعبادة و مقارعة العدو(جودت عبد الكريم)، الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية في المغرب، مرجع سابق، ص 264. حول هذا الموضوع، انظر: **محمد الأمين بلغيث**، الحياة الفكرية في الأندلس في عصر المرابطين، أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ الإسلامي، جامعة الجزائر، السنة الجامعية:1424/1423هـ.

الله، و يحذرهم من ألم عقابه. حتى انتشر أمره بين الناس، واجتمع لديه نحو ألف رجل خلال ثلاثة أشهر من الاعتكاف والعبادة، وهم من أشراف صنهاجة، سماهم المرابطين للزومهم رابطتهم.

بدأ عبد الله بن ياسين بدعوة المرابطين إلى الجهاد في سبيل الله، و كان غرضه في ذلك فتح بلاد السودان، و نشر الإسلام في ربوعه، و ثانيا نشر مذهب الإمام مالك في المغرب، بعدما كان قد استفحل أمر الشيعة مع الأدارسة والفاطميين، و من قبلهم الخوارج فقام بن ياسين بالخروج إلى الصحراء، على رأس قوة عظيمة، قاصدا سجلماسة بعد أن ذاع صيته وصيت أصحابه المرابطين، واستدعاه فقهاء سجلماسة و كتبوا إليه و إلى يحي بن عمر، و إلى أشياخ المرابطين كتابا، يرغبون إليهم الوصول إلى بلادهم ليطهروها مما هي عليه من المنكرات.

فخرج إليهم عبد الله بن ياسين عام 447هـ/1055م ، و دخلها، و قتل من وجده، ففتح مغراوة وأقام بها حتى أصلح شأنها، ثم ارتحل إلى بلاد المصامدة ففتح جبل درن، ومدينة شفشاوة بالقوة عام 450هـ/1058م، ثم فتح مدينة نفيس و سائر كدميوة، وأخذت القبائل تتوافد عليه للمبايعة، ثم ارتحل إلى أغمات و فتحها.

لكن أكبر انتصار حققه المرابطون على بلاد السودان و إمبراطورية غانة خاصة، هو الإستيلاء على أودغست التي كانت خاضعة لسلطان إمبراطور غانة، رغم أن ملكها كان مسلما. وكان ذلك عام 446هـ/1054م، حيث انتزعها عبد الله بن ياسين من إمبراطورية غانة، واستباح حريمها، و جعل جميع ما أصاب فيها فيئا، حيث قتل فيها عبد الله بن ياسين رجلا من العرب المولدين من أهل القيروان، معلوما بالورع والصلاح و تلاوة القرآن و حج البيت، يسمي (زباقرة).

و كان سبب نقمة المرابطين على أهل أودغست رغم كونهم مسلمين، هو طاعتهم لصاحب غانة و حكمه. و بدخول المرابطين أودغست، وضعوا أرجلهم على أهم ممالك السودان، وعلى أهم محطة تجارية ذات حيوية اقتصادية و تجمع سكاني هام. كما أصبح المرابطون متمركزين على بعد ثلاثة أيام فقط من العاصمة الغانية كومبي، لكن عبد الله بن ياسين قتل ببورغواطة سنة

451هـ1059م، بموضع يسمى (كريفلت)، بعدما كان قد استولى على سجلماسة و أعمالها بالسوس كله، و أغمات و نول والصحراء.

إن الفتح الإسلامي في بلاد السودان لم يتوقف بوفاة بن ياسين، بل أن هذا الأخير ترك عددا كبير من الأتباع والمخلصين لنهجه، والذين واصلوا عملية الجهاد والفتح، و منهم يحي بن عمر، الذي يعد من أشد الناس انقيادا لعبد الله بن ياسين، وامتثالا لما يأمره به، وأقرب المقربين إليه. كما يعد أيضا من أشد قادته الفاتحين، والذي خلفه بعد مقتله. و منهم كذلك أخوه أبي بكر بن عمر الذي جاء من بعده، فواصل الأخوان الفتح في بلاد السودان، حيث فتحا كومبي، عاصمة غانة عام 469هـ/1076م، وأسلم على أيديهما قسم كبير من سكانها، و دفع الوثنيون منهم الجزية، و منذ ذلك الوقت أخذ الإسلام في الانتشار بين القبائل الإفريقية [1]، كما ساهمت بعد ذلك القبائل السودانية، من ماندیغ و تكرور و سراكولي، في نشر الدعوة الإسلامية بين شعوبهم، بعدما أسلموا على أيدي المرابطين والتجار المسلمين.

لابد أن نذكّر بأنَّ الفتح المرابطي لبلاد السودان لم يكن غزوا أو احتلالا انتهت آثاره بمجرد انتهاء هذا الاحتلال، وإنما كان حدثا تاريخيا وحضاريا قلب مصير منطقة السودان الغربي ككل،وأحدث تحولا كبيرا في تاريخها. ولا بد من الإشارة أيضا إلى أن هجوم أبي بكر بن عمر على العاصمة الغانية، إنما كان استكمالا لعملية الفتح التي كان قد بدأها المرابطون عام 446هـ/1054م، كما أن شهادة البكري التي تذكر بأنه في سنة 460هـ/ 1068م، أي ثماني سنوات قبل غزو العاصمة الغانية كومبي صالح من طرف المرابطين،كانت هناك مدينتان، واحدة للمسلمين وأخرى للكفار، وأن للمسلمين مسجدا في مدينة الملك يصلي فيه من يفد على الملك من المسلمين، وهو على مقربة من مجلس حكم الملك.كما أنه لم يكن يقتصر الإسلام على عامة

(1) قداح(نعيم):المرجع السابق،ص86.

الناس، بل كان بعض ملوك الإمارات التابعة للإمبراطورية الغانية يعتنقون الإسلام لكنهم يخفون إسلامهم، مثل ملك سمغارة(أو بغامة) وهو"فنمر بن بسي".

وهناك من الملوك الذين أعلنوا إسلامهم بل وتحالفوا مع جيش المرابطين وأعلنوا راية الجهاد ضد غيرهم من السودان الوثنيين أمثال ملك التكرور "واردیابي" وابنه "لبي بن واردیابي" رغم أنهما كانا تحت وصاية ولو بعيدة لملك غانة.

وبعد سقوط غانة يكون ملوكها أنفسهم هم الذين حملوا راية الجهاد ونشر الإسلام في صفوف السودان(، فقد ذكر ابن سعيد أن ملك غانة كان كثير الجهاد للكفار،وأصبح شعب السراكولي (الذي كان قبل غزو المرابطين يمثل العنصر الوثني بأتمّ معنى الكلمة) من أحسن المسلمين في كل السودان الغربي، وأخذ على عاتقه مهمة نقل العقيدة الإسلامية إلى عدة مناطق في السنغال والساحل الأطلسي ومسينا.

إذا فحركة المرابطين في السودان الغربي لم تكن حركة استعمارية استعملت الحديد والنار لفرض الإسلام على القبائل الصنهاجية أولا ثم على السوننكي ثانيا.ولم تكن أيضا حركة استعمارية جذبتها الرغبة في السيطرة على مناجم الذهب كما يزعم بعض المؤرخين، وإنما كانت عبارة عن جزء من الحركة التي بدأ يعرفها السودان الغربي، والتي ميزتها ظاهرة انتشار الإسلام التي أخذت تعرف تشعبا واتساعا في أرض السودان، بل وشملت حتى أراض كانت بعيدة عن تأثيرات المرابطين، مثل كوكو وبلاد الهوسا، وأرض الكانم في السودان الأوسط(.

إن الفتح المرابطين للسودان الغربي قد أنهى مرحلة طويلة من التاريخ كانت تسيطر فيها مملكة غانة على أحداث السودان الغربي،كما أدى إلى الانتصار السياسي للإسلام على منطقة الساحل الواقعة بين نهري النيجر والسنغال. فقد انتقل الإسلام من كونه ديانة خاصة بالتجار القادمين من الشمال وبعض السكان المحليين المحتكين بهم إلى ديانة الملوك، حيث انجذبت إليه بعض العائلات الملكة في السودان الغربي متأثرين بالمكانة التي أصبح يتميز بها أتباع هذا الدين، وكذا بالدعاية القوية

التي كان يقوم بها أصحاب عبد الله بن ياسين على ضفتي النيجر والسنغال.كما تحول ملوك السراكولي من أبطال وثنيين إلى دعاة ومجاهدين في سبيل الله، ومتحالفين مع المرابطين ضد الشعوب الوثنية.

ورغم أن الوجود المرابطي في غانة لم يدم طويلا، بحيث لم يتجاوز خمسة عشر سنة، إلا أنه غيّر الطابع السياسي لملوك غانة، إذ أصبحوا يعلنون تبعيتهم السياسية للخليفة العباسي في بغداد مباشرة، وأصبحوا يلبسون العمائم اقتداء بالخلفاء المسلمين. بل أكثر من ذلك أصبحوا يدعون النسب الشريف إلى ذرية الرسول صلى الله عليه وسلم، كمحاولة الانتساب إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، حتى أصبحت كلمة سوننكي وهو اسم الشعب الذي ينتمي إليه ملوك غانة، مرادف لكلمة داعية عند كثير من قبائل الماندينغ.

ولم يتوقف التأثير المرابطي في السودان الغربي بمجرد اعتناق ملوكه للإسلام أو سقوط دولة المرابطين، أو حتى عندما استعادت غانة استقلالها، بل استمر الدعاة الصنهاجيون، والتجار في أداء نشاطهم إلى أطول مدة، حيث أشار البرتغاليون الذين استعمروا بعض المناطق في غرب إفريقيا خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين /15و16 للميلاد، أي بعد سقوط دولة المرابطين بأكثر من ثلاثة قرون، إلى وجود الدعاة من صنهاجة اللثام، ومن العرب الذين كان لهم تأثير كبير بين التكرور والجولوف والماندينغ.

إن مجهودات المرابطين في نشر الإسلام كانت في البداية فردية وبسيطة، ثم تطورت إلى جهود جماعية خاصة عندما تعلق الأمر بنشره بين سكان المملكة الغانية، حيث اشترك في ترسيخه الدعاة المرابطين الذين كان يرسلهم الشيخ عبد الله بن ياسين إلى القبائل الزنجية بعد تدريبهم في الرباطات وعلى أيديهم أسلم ملك التكرور "وار جابي" وملك سلي الذي حسن إسلامه.فكان هؤلاء الدعاة المرابطون يتعقبون الجيش الفاتح لتعليم الناس قواعد الإسلام وتعاليمه. واشترك فيها أيضا ملوك

السودان أنفسهم وكذا الأسر الحاكمة، خاصة بعد الاستيلاء على العاصمة كومبي وإسلام أهلها، وتحمّس ملكها تنكامين لنشر الإسلام.

كما لا يجب أن نغفل الدور الذي الاقتصادي للمرابطين في السودان الغربي. فقد تمكن المرابطون من السيطرة على الطرق التجارية، وفرض الأمن على الطرق التجارية، فازدهرت التجارة بين الشمال وبلاد السودان، فكانت أيامهم أيام دعة ورفاهية، ورخاء متصل وعافية وأمن. وانتقلت مع التجارة الأفكار والتعاليم الإسلامية، وأصبحت المراكز التجارية مراكز للدعوة الإسلامية. فكان التجار من الفقهاء والدعاة، حيث أبهروا ملوك السودان الوثنيين بأخلاقهم ومكانتهم وخبرتهم بالمال والسياسة والإدارة، فقربوهم إليهم، وأصبحوا من حاشيتهم المقربة، ومن موظفيهم السامين. وعن طريقهم دخل الإسلام إلى الطبقة الارستقراطية والملكة في بلاد السودان.كما انتشر الإسلام في صفوف التجار السودان، حيث أننا نجد أن أقدم المسلمين السودان هم شعوب الديولا، والونجارا الذين يعتبرون تجارا.

وبفضل التجارة نشطت قوافل الحج إلى الراضي المقدسة، فأصبحت الرحلات إلى الحج من أشهر ما أصبح يعرف به ملوك السودان، بل كتب عنها المؤرخين العرب الكثير من الحكايات ورويت عنها الأساطير.وقد كانت أولى رحلات الحج هذه، هي تلك التي قام بها الملك المالي" برمندانة" في أواخر القرن الخامس للهجرة، أي بعد الغزو المرابطي لغانة بفترة قصيرة فقط[1].كما ازدهرت في عهد المرابطين المراكز التجارية في غرب إفريقيا، والتي أثرت كثيرا على الحياة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية في السودان الغربي، باعتبارها لم تكن تقتصر على الدور التجاري فقط، وإنما تحولت إلى مراكز ثقافية ذائعة الصيت في العالم الإسلامي ،مثل أودغست، غانة، جني وتمبكتو. ولعل أهم نتيجة تركها الفتح المرابطي لغانة بالإضافة إلى انتشار الإسلام، هو تفكك

(1) ابن خلدون، المصدر السابق،ص495.

الإمبراطورية الغانية وانفصال الممالك التابعة لها، واستقلال بعض الأقاليم والقبائل الزنجية عنها بالرغم من عودة السوننكيي إلى السلطة ، ويعود ذلك إلى عدة عوامل أهمها:

أولا: انتشار الهجرة إلى خارج غانة، وخاصة بالنسبة للسكان الوثنيين الرافضين للإسلام، والذين عندما اقتنعوا بعدم جدوى الثورة ومقاومة المرابطين فضلوا الهجرة، وكانت هجرتهم نحو الضفة اليسرى لنهر النيجر، و ذلك بحثا عن أراض أكثر خصوبة وحرية.

ثانيا: انتشار الفوضى داخل مملكة غانة، إذ بمجرد انهيار المرابطين واستعادة غانة استقلالها حتى عادت الروح القبلية والشقاق، وخاصة في ظل قلة الولاء لأسرة السوننكي الحاكمة، وانتشار الفوضى وقطاع الطرق، الذين أصبحوا يستولون على السكان ويبيعونهم في الأسواق[1].فبعدما سيطر المرابطون على الأوضاع في السودان لمدة عشر سنوات معتمدين على الجهاد والرباطات والدعوة.بدأت تفقد سيطرتها على، وانبثقت الحزازات القبلية التي كانوا قد أضعفوها من قبل، فبدأت قبيلة مسوفة بالتمرد على رئاسة أي زعيم من لمتونة، ثم انتقل الأمر إلى جدالة[2].ثم انتهزت دويلات السودان هذا الخلاف الناشب بين قبائل المرابطين لتعلن استقلالها، حيث استقلت مملكة غانة التي يذكر الإدريسي ملكها بأنه أصبح مستقلا ويخطب لنفسه، لكنه تحت طاعة أمير المؤمنين الخليفة العباسي [3].فكان لهذان العاملان دور كبير في تغيير الخريطة السياسية لمنطقة النيجر الأعلى والسنغال فظهرت عن تفكك مملكة غانة ممالك سودانية جديدة خرجت من رحم غانة، لكنها نافستها على زعامة السودان الغربي، الذي ظلت متربعة على عرشه لمدة أكثر من سبعة قرون بدون منازع.فلقد كان القرن الخامس للهجرة/11م، هو قرن التحولات الكبرى بالنسبة لمنطقة النيجر والسنغال العلويين. فبالإضافة إلى انتشار الإسلام في المنطقة، فانه شهد ميلاد قوى سياسية جديدة

---

(1)Tidiane (N'diaye) ,Op.Cit, p28.

(2)دندش، المرجع السابق، ص136.

(3) المصدر السابق، ص5.

تمخضت عن سقوط غانة، حيث انتقلت السيادة من السوننكي إلى الصوصو، والمالنكي، والسونغاي والتكرور.

رابعا: اعتناق ملوك السودان للإسلام و دورهم في نشره:

لقد عرف السودان الغربي و الأوسط ممالك وثنية قوية قبل انتشار الإسلام في أرضهم، وكانت هذه الممالك الوثنية على قدر كبير من التنظيم والتطور، لذلك كانت لملوكها علاقات تجارية و سياسية متينة مع دول المغرب الإسلامي. فمنذ أيام دولة بني مدرار في سجلماسة كان أئمتها يربطون علاقات تجارية منتظمة مع السودان الغربي منذ القرن الثاني للهجرة/8م. كما أن المصادر الاباضية تخبرنا بأن أئمة الرستميين بتيهرت قد ربطتهم علاقات دبلوماسية وتجارية مع مملكة غانة الوثنية آنذاك بالإضافة إلى ارتباطهم بتجارة مع مملكة الكانم و مع مملكة سونغاي.

ولهذا أمكننا القول بأن ملوك السودان كانوا على اتصال واحتكاك دائم بالمسلمين المغاربة منذ وقت مبكر، وهو ما أدى إلى حدوث تعايش كبير بين هؤلاء الملوك والجالية المسلمة إلى درجة أن المؤرخ و الجغرافي الأندلسي أبا عبيد البكري ذكر بأن مملكة غانة الوثنية كانت تضم مدينتين واحدة يسكنها المسلمون، و يوجد بها إثنى عشر مسجدا، و بها الأئمة و الراتبون و المؤذنون و الفقهاء و حملة العلم، و أخرى خاصة بالملك و تحتوي على مسجد واحد يصلي فيه من يفد على الملك من المسلمين[1].

وبذلك تكون الجالية المسلمة قد أثرت كثيرا على هؤلاء الملوك الوثنيين، حتى أصبحوا معجبين كثيرا بهم و يقدرونهم ويقتدون بهم، بل ويعتمدون عليهم في إدارة شؤون دولتهم، حيث أن البكري يذكر بأن ملك غانة كان يتخذ ترجمانه و بيت ماله من المسلمين، وأن أكثر وزرائه كانوا من المسلمين. كما أصبحوا يتشبهون بهم لحسن أخلاقهم و صدقهم و أمانتهم وحسن معاشرتهم،

(1) . المصدر السابق، ص 175.

فأصبح ملوك غانة يقتدون بالمسلمين حتى في لبسهم المخيط عكس ما كان عليه سائر الرعية من لبس الملاحف القطنية والحرير، فكان حري بهم أيضا أن يتبعوا دينهم أيضا.

ولا يعني ذلك أن هؤلاء الملوك كانوا بالضرورة مسلمين شديدي الورع أو عميقي الإسلام، فقد كان عليهم أن يراعوا أيضا الأعراف المحلية والمعتقدات التقليدية لأغلبية رعاياهم غير المسلمين الذين كانوا يرون في ملوكهم تجسيدا أو واسطة لقوى عليا أسمى من الطبيعة، كما أنه لم يكن هناك من الملوك من له السلطة لفرض الإسلام أو الشريعة الإسلامية دون التأثير بذلك على ولاء غير المسلمين له. وهذا ما يفسر بقاء الشعائر و الطقوس الوثنية في بلاطات ملوك مسلمين ورعين أمثال منسا موسى ملك مالي أو الأسكيا الحاج محمد توري ملك سنغاي.

إن أول من اعتنق الإسلام من ملوك مالي حسب البكري يدعى المسلماني، والذي أسلم على يد أحد المسلمين الذين كانوا يعيشون في بلاده، و هو من قراء القرآن المعلمين للسنة في أرض مالي، فقد أجدبت الأرض عاما بعد عام، فقدم سكان البلد القرابين لآلهتهم حتى كادوا يفنونها ، لكن دون جدوى، إلى أن شكا ملكهم أمره لهذا الضيف المسلم الذي اقترح عليه أن يؤمن بالله ويقرّ بوحدانيته و بمحمد رسول الله، مقابل أن يدعو له ربّه لفك عنهم كربتهم. فأسلم ملك مالي وأخلص نيته، و تعلم كتاب الله و شرائعه و تطهّر، و صلى ليلة الجمعة إلى جانب الرجل المسلم وهو يدعو الله طوال الليل، فما إن حلّ الصباح حتى سقاهم الله مطرا. فأمر الملك السوداني بكسر الدكاكير التي كانوا يعبدونها، و إخراج السحرة من بلاده، وصحّ إسلامه، و أسلمت عشيرته وحاشيته، بينما بقي أهل مملكته مشركين[1].

إن البكري لم يذكر لنا اسم ذلك الفقيه المسلم الذي اسلم على يديه ملك مالي أو(ملل حسب ذكر البكر)، لكننا نجد في المصادر الإباضية رواية مشابهة لرواية البكري لكنهم ينسبون أحداثها لأحد أئمتهم و هو علي بن يخلف، إلا أنهم يقولون بأنها حدثت مع ملك غانة و ليس

(1) البكري، المصدر السابق، ص 178.

مع ملك مالي[1]. و هذا يعود ربما إلى كون مالي كانت تابعة خلال الفترة التي جرت فيها الأحداث إلى إمبراطورية غانة. كما أن مملكة غانة كانت مشهورة لديهم بحكم العلاقات التجارية والدبلوماسية التي كانت تربطها بهم[2]. فابن الصغير يذكر بأن الإمام الرستمي أفلح بن عبد الوهاب أوفد سفيرا إلى ملك السودان يدعى محمد بن عرفة حاملا معه هدية. و رغم أن ابن الصغير لم يذكر اسم الملك السوداني لكن فترة حكم الإمام أفلح بن عبد الوهاب (180و220هجرية/796 و 844 ميلادية) توافق فترة وجود إمبراطورية غانة كأعظم دولة في السودان الغربي بينما لم تكن قد ظهرت بعد مملكة مالي. ما يجعلنا نميل إلى القول بأن الملك الذي زاره الإمام الرستمي علي بن يخلف هو ملك مالي وليس ملك غانة كما تهب إليه المصادر الاباضية.

و على كل حال فإن هذه الرواية تبين لنا دور الفقهاء المسلمين في إسلام ملوك السودان وحاشيتهم، و درجة تأثيرهم فيهم و ثقة أولائك الملوك بهم، كما تبين لنا من جهة أخرى أن الملوك و حاشيتهم المقربين كانوا أول من اعتنق الإسلام، بينما تأخر إسلام رعيتهم، أو لم يكن بنفس درجة ملوكهم. كما يشير البكري أيضا إلى ملك إمارة الوكن بغانة و هو فنمر بن بسي الذي كان مسلما و لكنه كان يخفي إسلامه عن رعيته، و هو ما يؤكد ما ذكرناه سابقا من أن ملوك السودان كانوا يراعون رغم إسلامهم مشاعر و معتقدات أغلبية رعاياهم المتمثلة في عباد الأوثان، و القوى السحرية، وأرواح الأجداد، و غيرها من المعتقدات التقليدية السائدة.

و منه يمكن القول بأن الإسلام في السودان كان في البداية ديانة الملوك والطبقة الأرستقراطية، بينما الطبقات الشعبية العامة لم تكن قد استوعبت بعد تعاليمه و بقيت وفية لوثنيتها، و هو ما جعل الملوك يضطلعون بمهمة نشر الإسلام في أوساط شعوبهم، وجعلهم يتحولون إلى دعاة حقيقيين، و أصحاب رسالة حضارية ورثتها بعدهم الأجيال المتعاقبة من ملوك السودان المسلمين،

---

(1) الدرجيني (أبو العباس أحمد بن سعيد)، طبقات المشايخ ،ص137.

(2) أخبار الأئمة الرستميين، ص81.

رغم أنهم لم يكونوا من الفقهاء الكبار، وأن كل ما كانوا يعلمونه من هذا الدين كانوا يتلقونه من الوافدين عليهم من رجال الدين، و كان منهم من رفع راية الجهاد في سبيل التمكين للدين الإسلامي في ديار السودان. ولقد كانت أسرة ندياي التكرورية من أوائل الأسر الحاكمة في السودان الغربي التي اعتنقت الإسلام، فقد اعتنقته في وقت مبكر، و بدون إكراه، و حتى قبل الغزو المرابطي لغانة، والتي فهم ملوكها الإسلام و اندمجوا بسرعة في حركته التي شملت السودان الغربي منذ القرن الخامس للهجرة بقيادة المرابطين، حيث دخل ملكهم " لبي بن واردياي" أو "وارجابي" في حلف مع المرابطين ضد كفار غانة (1).

و هكذا بدأت مرحلة جديدة من مراحل انتشار الإسلام في السودان الغربي و الأوسط مراحل انتشار الإسلام في السودان الغربي و الأوسط ، و هي المرحلة التي لعب فيها ملوكهم الدور الأساسي في التمكين لهذا الدين و إرساء أسس الحضارة الإسلامية في هذه الأرض.

و كان لظهور طبقة من العلماء و رجال الدين المسلمين الذين ينتمون إلى أصل سوداني حدثا مهما في تاريخ انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء، حيث بدأ ينتشر على يد أناس من أهل البلاد يعرفون اللغات والأعراف والمعتقدات المحلية، و امتد تأثير هؤلاء إلى غاية السودان الأوسط ، حيث كانت المنطقة الممتدة من بحيرة التشاد إلى غاية حوض النيجر الأوسط و خاصة إقليم الهوسا تشكل منطقة صعبة لانتشار الإسلام إلى غاية القرن الثامن للهجرة/14ميلادي. حيث استقبلت موجات من المسلمين السودان من جماعة الونجارة (ونغارة) التجار الذين تمكنوا من نشر الإسلام بين التجار خاصة و بين الطبقات الحاكمة ، ومنها قصر الملك "ياجي" الذي أصبح مسلما متشددا يرغم رعاياه على إقامة الصلاة، و أخذت تدخل إلى بلاده كتب أسلامية حملها معهم الفلاتة وتضم علم الكلام و أصول اللغة.

(1) **البكري**، مصدر سابق، ص 168.

أما في مملكة سونغاي فقد أسلم الملك "ديا أكوسي" الذي استقر في غاو حوالي عام 4001 هجرية/ 1010م، لكن في تلك الفترة أيضا مازال الإسلام يمس فقط العائلة الملكية و الطبقة الأرستقراطية التي يبدو أنها أعجبت كثيرا بسلوك التجار المسلمين الذين كانت تعج بهم عاصمتهم، و بهيئتهم و طريقة لباسهم و أحصنتهم ، أكثر من شيء آخر حسبما يذهب إليه كورنفان.

حسب المؤرخ الأندلسي أبي عبيد البكري فإن ملوك التكرور المنتمين إلى أسرة نديايي كانوا أول من اعتنق الإسلام من ملوك السودان. و حسب المؤرخ الانجليزي سبنسر تريمنغهام (Spencer Trimingham) فإن ذلك يعود إلى كون عبد الله بن ياسين اختار منطقة الساحل الجنوبي لنهر السنغال موقعا لإقامة رباطه الشهير ، و هو ما أدي إلى انتشار التأثير الإسلامي في هذه المنطقة منذ وقت مبكر. لذلك اعتنق الملك التكروري واردیابي الإسلام لما وجد في عقيدته من جاذبية و تجانس ، بالإضافة إلى ما كان يمثله له الإسلام من رقي اجتماعي و تفتح على العالم، فوجدت بذلك دعوة عبد الله بن ياسين استجابة واسعة من أهل التكرور و في مقدمتهم أسرة آل واردیابي، وخاصة الملك ، و ذلك قبل أن يستولي ابن ياسين على مدينة أودغست.

و قد كان لابنه" لبي بن واردیابي"من بعده دورا كبيرا في نشر الإسلام من خلال تحالفه مع جيش المرابطين في حربهم ضد خصومهم من جدالة و المرتدين عن دعوتهم و ذلك عام 448هـ/1056م ، في معركة تبفريلي ، و هي المعركة التي قتل فيها الزعيم اللمتوني يحي بن عمر[1]، و بالتالي فإن اسم مملكة التكرور كان أكثر الممالك شهرة عند المصادر العربية، بسبب أسبقية شعبها في اعتناق الإسلام، وظلوا من أشد الشعوب تمسكا بتعاليمه.

إن ملوك و على رأسهم "واردیابي" واصلوا عملية الدعوة داخل مملكتهم، وحسب البكري دائما فإن مدينة التكرور كان أهلها السودان على ما كان عليه سائر السودان من المجوسية و عبادة

(1) **البكري**، مصدر سابق،ص 168.

الدكاكير[1]إلى غاية أن تولى الحكم فيهم وارجابي سنة432هـ/1041م، حيث اعتنق الإسلام وأقام في مملكته الشريعة الإسلامية ، و فرض على شعبه اعتناقه. و بهذا أصبحت جميع المدن والإمارات الهامة التابعة لمملكة التكرور و الممتدة من التكرور إلى غاية سيلا(غالام) كلها مسلمة على يد الملك واردیابي بن رابيس، كما أن ملك سيلا رفع هو بدوره راية الإسلام في إمارته وأصبح يحارب كفارها الساكنين في مدينة قلنبو.

وفي الفترة مابين القرنين الخامس والسابع للهجرة/11 و 14 للميلاد زحف شعب الولوف أو(الجولوف)على منطقة التكرور، و أصبح يشكل معظم سكانهاإلى أن أسس أحد رجال الدين التكرور يدعى" نديا ديان نديايي"إمارة الجولوف، و التي بدأت تفقد تدريجيا الآثار الإسلامية التي عرفها ملوك التكرور الأوائل،لكن خلال منتصف القرن السابع للهجرة/ 13 للميلاد قام إمبراطور مالي المشهور "سونديا تا كيتا" بإعادة فتح مملكة التكرور من جديد التي يبدو أنها كانت قد تحالفت مع ملك مملكة الصوصو الوثني" سومنغورو كانتي".

أما بالنسبة لملوك الماندي أو ما يعرف بمملكة ملل، أو مالي، فإن أول من أسلم من ملوكها فكان يدعى " المسلماني" حسب البكري و "برمندانة" حسب ابن خلدون،والذي أسلم كما رأينا على يد أحد فقهاء الاباضية في منتصف القرن الخامس للهجرة/11م، و ينتمي هذا الملك إلى أحدى الأسر المالنكية المشهورة في منطقة النيجر و السنغال العلويين، والتي يعود لها الفضل في تأسيس مملكة مالي الإسلامية، و التي حكمتها مابين القرنين الخامس والتاسع الهجريين/11 و15، وهي عائلة كايتا. التي استقرت على ضفاف نهر السنكراني (أحد فروع النيجر) والتي لعبت دورا كبيرا في نشر الإسلام في مملكة مالي والسودان الغربي ككل[2].

لقد ذكر ابن خلدون بعض أسماء الملوك من هذه العائلة الذين أدوا فريضة الحج، و منهم الملك برمندانة الذي كان أول من أسلم و أول من حج منهم، ثم اقتفى سننه في الحج ملوك مالي

(**1**) دكاكير جمع دكور و هي الأصنام.

(**2**) **Trimingham(S)**, Op.Cit, p46.

من بعده، كما حج منهم الملك منسا أولي ابن ماري جاطة (سونديانا) أيام الظاهر بيبرس، وحج بعده مولاهم ساكورة الذي كان قد أصبح ملكا بعدما استولى على حكم مالي، بالإضافة إلى الملك الحاج منسا موسى.

ولقد تحدثت المصادر العربية كثيرا عن الدور الذي لعبه ملك مالي منساموسى أو(كونكو موسى) في نشر الإسلام في إمبراطوريته، و اهتمامه البالغ بتطبيق شعائر الإسلام بين رعيته، و كذا اهتمامه بأداء فريضة الحج حتى لقب بالملك الحاج، حيث كان عندما يخرج إلى الحج يقوم ببعض الأعمال الجليلة حتى يتقبل منه الله حجه، مثل بنائه لمساجد عديدة كمسجد تمبكتو، دوكوري، كوندام، و مسجد ديري، بالإضافة إلى تسخيره لإمكانيات ضخمة جدا للحج ، فكان يحمل معه في تلك الرحلات المقدسة،قوات عسكرية كبيرة،و عدد كبير من العلماء و القضاة،و الخدم والجواري، و كميات كبيرة جدا من الذهب إلى درجة كانت تؤدي إلى انخفاض قيمة ذلك المعدن النفيس في القاهرة لما كان يحل بها.

و من مظاهر تدين هذا الملك وحرصه على تطبيق شرائع الإسلام تلك الحادثة التي حصلت له بالقاهرة هندما قصدها في طريقه إلى الحج، فبينما كان الملك منسا موسى في القاهرة عام 724هـ/1324 فبعث إليه السلطان المملوكي الناصر بن قلاوون شخصا يستدعيه إليه و عندما وصل إلى قصره رفض منسا موسى السجود أمام ملك مصر، وقال:« أنا مسلم و لا أسجد إلا أمام الله».

كما تحدث الملك منسا موسى مرة و هو بالقاهرة مع الفقيه "ابن أمير حاجب" في نفس الزيارة عن عاداتهم بمالي و المتمثلة في أنه إذا نشأ لأحد من رعيته بنتا حسناء قدمها للملك أمة فيملكها بغير زواج مثل ملك اليمين، و عندما نهاه عن ذلك ابن أمير حاجب انتهى عنه وأعلن ترك ذلك و رجوعه عنه رجوعا كليا ، كما عرف عنه جهاده في سبيل الله ، حيث كان يحارب طائفة من الشعوب الوثنية المتوحشة تعرف بالدمادم، وهم يشبهون بالتتر، و يعرفون أيضا باللملم.

وخلال القرن الثامن للهجرة/ 14م زار ابن بطوطة مملكة مالي التي كان يحكمها آنذاك شقيق الملك منسا موسى وهو منسا سليمان، فنقل إلينا وصفا دقيقا عن هذا الملك الذي كان أشبه بسلاطين المسلمين و خلفائهم من خلال تدينه ، و حبه للعدل و تقربه من الفقهاء والعلماء وتعظيمه لهم . و كان حريصا على الصلاة ، حيث ذكر ابن بطوطة أنه إذا كان يوم الجمعة، ولم يبكر الإنسان إلى المسجد فإنه لن يجد أين يصلي لكثرة الزحام، كما أضاف عنه بأنه كان يأمر بربط أبنائهم يوم العيد بسبب عدم حفظهم لآية من القرآن.

وعُرف عن ملوك مملكة سونغاي أيضا تمسكهم بالدين الإسلامي ونشره في أركان مملكتهم، فلقد كانوا يخرجون كل سنة خارج مدينة جاو لملاقاة الحجاج و مدهم بالكسوات و اللباس، ويسألونهم الدعاء لهم، و يتبركون بهم. ومن مظاهر جهادهم في سبيل إعلان كلمة هذا الدين في إفريقيا جنوب الصحراء ما تم العثور عليه في سنة 1939م في بلدة "ساني" . و هي تبعد عن مدينة جاو بأربعة أميال . حيث وجدت بها لشواهد لقبور ملكية يعود تاريخها إلى بداية القرن السادس للهجرة/13م ، كتب عليها عبارة(هنا جثمان الملك الذي دافع عن دين الله و يرقد الآن في رعايته).كما كتب تحت هذه العبارة سنة 494هـ/1100م، و كتب أيضا اسم أبي عبيد الله محمد، ثم أضيفت إليه كلمة " إن الملك مات من أجل انتشار الإسلام في جاو".

كان ملوك جاو أشد الملوك اقتداء و تشبها بالملوك المسلمين، حيث كان إذا ولي منهم ملك قدّم إليه خاتم و سيف و مصحف يزعمون أن الخليفة أمير المؤمنين في المشرق الإسلامي هو الذي بعث به إليه [1]، في محاولة لعطاء حكمهم الصبغة الشرعية.فنجد أن ملك سونغاي في عهد الاسقيين الحاج محمد التوري ، بعد سقوط دولة المماليك في مصر حاول أن يأخذ الخلافة من آخر الخلفاء العباسيين، و هو المتوكل الثاني عبد العزيز بن يعقوب، و ذلك خلال زيارته للبقاع المقدسة بغرض الحج في أواخر عام 900 هجرية /1494م عندما مرّ بمصر، وكانت الخلافة آنذاك ما تزال

(1) **البكري**، مصدر سابق، ص182.

للعباسيين قبل أن يأخذها منهم السلطان العثماني سليم الأول. فاجتمع الاسقيا الحاج محمد التوري بالخليفة العباسي المتوكل الثاني، و طلب منه أن يأذن له بإمارة السودان، و يكون خليفته عليها، وأدعى الحاج محمد توري بأن الخليفة العباسي جعله نائبا له على ما وراءها من المسلمين. ولما عاد ملك سونغاي إلى بلده أقام حكمه على قواعد ا لشريعة الإسلامية.

أما أمير مدينة جني الواقعة على ضفاف نهر النيجر الأعلى، و التي تأسست في منتصف القرن الثاني للهجرة/الثامن ميلادي، فإن أميره المسمى" كنبر"هو أول من اسلم من ملوكها خلال أواخر القرن الخامس للهجرة/11م، و كان ذلك في عهد المرابطين و حذت حذوه رعيته التي اكتمل إيلامها في نهاية القرن السادس للهجرة/12م ، وعندما عزم هذا الملك على الدخول في الإسلام أمر بحشر جميع العلماء الذين كانوا في أرض المدينة، فحصل منهم على أربعة آلاف و مائتان عالما فأسلم على أيديهم، وأمرهم أن يدعوا الله بثلاث دعوات لتلك المدينة، و هي أن كل من هرب إليها من وطنه ضيقا وعسرا أن يبدلها الله له سعة و يسرا حتى ينسى وطنه ذلك،و أن يعمرها بغير أهلها أكثر من أهلها، وأن يسلب الصبر من الواردين للتجارة في ذات أيديهم لكي يملوا منها فيبيعونها لأهلها بناقص الثمن فيربحوا بها، فقرؤوا الفاتحة في هذه الدعوات كما قام بتخريب دار السلطنة و حولها إلى مسجد، كما بنى بيوتا حوله.

يرجع إسلام أول ملوك السودان الأوسط إلى القرن الخامس للهجرة/11م مع تحول ملك الكانم إلى الإسلام، إذ دخل أولا الإسلام إلى إقليم بورنو على يد "محمد بن ماني " الذي عاش خمس سنوات في بورنو في عهد الملك بولو، و أربع عشرة سنة في عهد الملك حمادي ، و ضم بورنو إلى الإسلام بفضل الملك حمادي و نشر الملك محمد بن ماني الإسلام في الخارج. و تجدر الإشارة إلى أنه في عهد أسلاف حمادي(بداية القرن الخامس للهجرة/11م) كان يعيش في بلاطهم عدد من علماء الدين المسلمين، يلقنون الحكام أنفسهم تعاليم الإسلام، و يدرسون معهم آيات من القرآن،

و لكن لا احد من الملوك كان يجاهر بإسلامه. لذلك لما تحدث عنهم البكري (منتصف القرن الخامس للهجرة/11م) و صف ملوك كانم بأنهم سودان مشركون.

مهما يكن فإن هذه النماذج من الملوك السودانيين الذين تقمصوا دور الدعاة في بلادهم، كانوا في اغلبهم على قدر مهم من الوعي الديني، و فهم للإسلام، رغم أنهم لم يكونوا يرقون إلى درجة الفقهاء أو العلماء ، ولكنهم كانوا يتميزون بقوة إيمانهم و بحماسهم ، و بعضهم بلغ درجة التعصب لهذا الدين، و فهموا دورهم باعتبارهم ولاة أمور يقع على رقابهم مهمة تبليغ هذا الدين والحفاظ عليه، فراحوا يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر ، و يحتكمون شريعة الله ، و يقيمون العدل ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، ويدعون إلى الله و يجاهدون في سبيله.لكننا نرى بأن بعض الملوك الأوائل الذين دخلوا الإسلام كان منهم من كان قليل المعرفة بالإسلام، و منهم من كان يخفي إسلامه عن قومه، أو تجده متسامحا بدرجة كبيرة مع رعاياه غير المسلمين فكانوا يراعون تقاليد شعبهم الوثنية و موروثاتهم الدينية القائمة على السحر و عبادة الأوثان و تقديس أرواح الأجداد، رغم ما اشتهر عن هؤلاء الملوك من إيمان و تقوى، فلقد كان هؤلاء الملوك يعرفون كيف يحافظون على تماسك مجتمعاتهم التي كانت تتحكم فيها الانتماءات العشائرية و الطائفية أكثر من أي عامل آخر.

لدينا في إمبراطور مالي سونديانا كيتا نموذجا على ذلك التسامح الذي كان يبديه إزاء مواطنيه من الوثنيين، و هو ما فتح المجال أمام بعض المؤرخين الغربيين للتشكيك في مسألة أسلامه أصلا رغم شهادة ابن بطوطة بإسلامه، و كذا تعاليمه و شرائعه التي كانت تحمل الكثير من تعاليم الإسلام في طياتها. كما ورث ذلك الجيل من الملوك خلفاء أعطوا نماذج هائلة في للملوك المسلمين الداعين لدينهم و المجاهدين في سبيله، خاصة خلال فترة الاحتلال الأوربي لإفريقيا الغربية أين ظهر لنا في مسينا الحاج عثمان بن فودي أو (دان فودي) الذي أعان عن مشروعه سنة 1223 هجرية/ 1809 م، فأعاد بعث الإسلام ونشره بين القبائل الوثنية، في شتى أرجاء القارة السوداء، كما عمل على إعادة بناء الدولة الإسلامية من جديد، وتوسيع رقعة الإسلام بالجهاد ضد القبائل الوثنية التي

اجتمعت على حرب الإسلام ودعوته الجديدة، واتبع إستراتيجية الجهاد على عدة محاور، وضم الشعوب الإسلامية تحت رايته، فضم إليه عدة شعوب وقبائل مسلمة كانت متناثرة ومختلفة فيما بينها، و توسع في الغرب والجنوب الغربي، حيث قبائل (اليوروبا) الكبيرة، فدانت له هذه القبائل ودخلت في دعوته، وأخذت دولته الإسلامية في الاتساع شيئاً فشيئاً، حتى أصبحت أقوى مملكة إسلامية في إفريقيا وقتها. بالإضافة إلى حركة تلميذه الحاج عمر طال(1799. 1864م/1214. 1281هـ) في نيجريا، و الشيخ ساموري توري و غيرهم، الذين يعود لهم الفضل ليس في نشر الإسلام فقط بل أيضا في نشر الوعي الوطني و القومي في إفريقيا، وفي الحفاظ على الشخصية الإسلامية لإفريقيا السوداء جنوبي الصحراء.

المبحث الثاني

الحياة العلمية و الثقافية في السودان الغربي:

إن الإطار الجغرافي المعني هنا بالدراسة هو المنطقة الممتدة من الحواف الجنوبية للصحراء إلى غاية منطقة السفانا جنوبا، و من المحيط الاطلسي الى غاية بحيرة تشاد شرقا، اما زمنيا فنخص بالدراسة الفترة الممتدة من القرن 11 الى غاية القرن 16م، فلقد عرفت هذه المنطقة بعض المراكز التاريخية و الحضارية التي كان لها تاثير كبير في تاريخ المنطقة، وذلك بسبب احتضانها لمراكز سياسية و عواصم ممالك عريقة و امبراطوريات قوية، بالاضافة الى تحولها الى مراكز اشعاع فكري و ثقافي.

عرفت هذه المنطقة الإسلام منذ القرن الحادي عشر للميلاد/5هجري، عن طريق التجار الاباضيون أولا، حيث استقر التجار الاباضيون و حتى صفريو سجلماسة في أهم المراكز التجارية في بلاد السودان من اجل جلب ذهب السودان المجلوب من الأدغال الإفريقية، فاحتكوا بكبار تجار إفريقيا الغربية و ملوكها، و تمكنوا من فرض انفسهم في تلك المجتمعات بفضل حسن سيرتهم و صدقهم و أمانتهم و حسن تدبيرهم حتى ان البكري خلال القرن العاشر يذكر ان ملك مالي الوثني كان يستعين بهم في تدبير شؤون دولته، فعين منهم الكتاب و الأمناء و الوزراء، كما خصص لهم

مدينة بأكملها للجالية الإسلامية بعاصمته تضم اثنتي عشر مسجدا فيه الراتبون و القراء و الأئمة و المؤذنون و حملة العلم.

و تمكن هؤلاء التجار إذا من إقامة جاليات إسلامية عملت على نشر الإسلام في تلك الأراضي الإفريقية، فتحولت تلك المراكز التجارية مع مرور الوقت إلى حواضر علمية بسبب تجمع العلماء و الفقهاء، ثم بناء المساجد التي تحولت إلى مراكز تعليمية و جامعات إسلامية و مراكز إشعاع للعلم و الثقافة.

أولا: أهم الحواضر التاريخية و العلمية في غرب إفريقيا:

1. الحواضر لغة:

ان كلمة حواضر لغة هو اسم جمع مفرده حاضرة، و تعني القوم الحضور، فنقول حضَر البدويُّ: أقام واستقرّ فلم يعد يترحّل. و بهذا فهي تعني مكان تجمع السكان الحضر أي عكس البادية، و هي بالمعنى الحديث تعني المدينة.

فالحواضر التاريخية الافريقية هي تلك المدن الو التجمعات السكانية التي احتضنت في تاريخها مراكز سياسية و تجارية و ثقافية، مما جعلها مراكز اشعاع للعلم و الثقافة في غرب افريقيا.

2. أهم الحواضر العلمية:

أ. تنبكتو:

تعد مدينة تنبكتو حديثة النشأة مقارنة بغيرها من المراكز الأخرى، إذ يعود بناؤها إلى أواخر القرن الخامس للهجرة/ 11م، على يد قبائل التوارق المعروفين باسم (مقشرن)[1]، الذين بنوها في مكان يبعد بتسعة أميال عن نهر النيجر. ولقد اصبحت المدينة بفضل موقعها المميز تستقطب

(1) **السعدي (عبد الرحمان)**، مصدر سابق، ص 20.

التجار والعلماء وأصحاب الأموال من مصر، و فزان، وغدامس، وتوات، ودرعة، وفاس، وغيرها[1]. فبعد أن كانت في البداية مجرد مخيم للشتاء قرب النيجر، تطورت بعد ذلك كمركز تجاري، وعوضت ولاتة التي كانت تلعب هذا الدور قبلها، حيث كان الفضل للملك منسا موسى في تحويلها من مجرد مخيم بسيط للبدو من الطوارق خلال القرن الخامس للهجرة 11 / م، وبقيت مجرد نقطة تتزود فيها قوافل الملح بالماء، وذلك رغم موقعها الإستراتيجي في أعلى منعطف النيجر، وبقيت مجهولة، ولم تثبت بناياتها إلى غاية القرن التاسع للهجرة /14 م عندما قرر منسا موسى الى اعادة تهيئتها فأصبحت بفضله أشهر مدينة في السودان الغربي، فبدأ بإعادة بناء المسجد القديم لتنبكتو ليكون أكثر ملاءمة لإمبراطورية كبيرة كمالي، فبنا في موضعه المسجد الكبير بالآجر وهو أمر لم يكن معروفا لدى السودانيين قبل ذلك، كما عرفت توافد السودانيين من كل جنس، فتكونت جالية من التجار الذين طلبوا الحماية من زعماء مالي، فأصبحت على يد منسا موسى مدينة متطورة، و عين عليها دار الإمارة، بعد أن عمرها وجعل فيها الدكاكين والصناعات، وجلب إليها البنائين، حيث يعد المؤسس الحقيقي للمدينة و ذلك عام 610هـ/ 1213م.

و لما ضمها الإسقيون الى مملكة سنغاي، اكتسبت مكانة تجارية اكبر و ذلك بفضل موقعها الممتاز في منحنى نهر النيجر، فأصبحت أقرب محطة سودانية للقوافل القادمة من المغرب، كما أن موقعها على النيجر جعلها حلقة اتصال بين تجارة المغرب وتجارة السودان، وخاصة تجارة الذهب والملح.

كما احتضنت مكانة علمية و ثقافية بفضل السمعة التي نالتها جامعاتها مثل جامع جنجربير و جامع سيدي يحي التادلسي، و التي كانت تستقطب طلبة العلم و العلماء من كل حدب و صوب، و عرفت نهضة علمية قادتها بعض البيوتات العلمية مثل عائلة اقيت وعائلة بغيغ و عائلة اندغمحمد، فأنجبت لنا عدة مؤلفات و مؤلفين أشهرهم احمد بابا التنبكتي و عبد الرحمان

(1) السعدي، نفس المصدر، ص 21.

السعدي، و محمود كعتي. حتى اصبحت اكثر شهرة من العاصمة جاو، و هو ما جعل المسكتشفون الاوربيون يتنافسون حول اكتشاف هذه المدينة الى ان اكتشفها روني كايي الفرنسي سنة 1828م و اطلق عليها اسم تنبكتو العجيبة.

ب. جني:

يطلق عليها التجار الأفارقة اسم كناوة، بينما يسميها أهلها بجني، وهي أسم مدينة ومملكة في نفس الوقت، تبعد عن ولاته بخمسمائة ميل في الصحراء، وتمتد على طول نهر النيجر على مسافة مائتين وخمسين ميلا، ولها جزء على المحيط حيث يصب نهر النيجر[1]. لقد كانت مدينة جني في البداية تابعة لمملكة مالي ثم ضمتها مملكة سنغاي الى حاضرتها في عهد الملك سني علي، بعد حرب مع جيش مالي.

ودخل أهل جني الإسلام خلال نهاية القرن السادس للهجرة/ 12م، وكان اسم السلطان الذي أسلم وأسلم أهل جني بإسلامه، هو (كنبر) الذي يحكي بأنه عندما عزم على دخول الإسلام أمر بجمع أربعة آلاف ومائتي عالم، وأسلم على أيديهم، وأمرهم أن يدعو الله تعالي بثلاث دعوات لتلك المدينة وهي:

1. « كل من هرب إليها و وجد في وطنه ضيقا وعسرا أن يبدلها الله له سعة ويسرا.
2. أن يعمرها بغير أهلها أكثر من أهلها.
3. أن يسلب الصبر من الواردين إليها للتجارة في ذات أيديهم لكي يملكوا فيها فيبيعوها لأهلها بناقص الثمن فيربحون بها».

وبالفعل فقد أصبحت منذ القرن السابع للهجرة/ 13م، مركزا تجاريا مهما بفضل موقعها في ملتقي الطرق، بالإضافة إلى إحاطة المياه بها مما يحميها من غارات المعتدي، وبدأ أهلها يحققون أرباحا هائلة من تجارة القماش والنحاس والسلاح. ففيها كان يلتقي أرباب الملح القادمون من

(1) **حسن الوزان**، المصدر السابق، ص 162.

تاغزة، وأرباب الذهب من أودغست، فاستقطبت إليها التجار من كل الآفاق، حيث كانت أسواقها تدوم طول أيام الأسبوع ، وكانت تستعمل فيها حتي القوارب لنقل الملح وسلع أخرى من تنبكتو إلى جني، وبالتالي أصبحت جني حلقة وصل بين تجارة الذهب وتجارة الملح.

ج. غاو:

تناولت المصادر العربية اسم هذه المدينة باختلاف كبير، فنجدها كوكو عند الإدريسي وحسن الوزان، ويذكرها المهلبي بكاوكو. وعلى كل حال فإن مدينة جاو تعد من أشهر مدن السودان، فهي تقع على ضفة نهر النيجر من جهة الشرق ، وازدادت شهرة عندما أصبحت عاصمة مملكة سنغاي. فهي كانت تمثل بالنسبة لشعب سنغاي، ما كانت تمثله تنبكتو لغيرها من دول السودان الغربي، من نواحي الثقافة والتجارة والإدارة الحكومية. وقد اكتسبت تلك الأهمية بوجودها في أحد الطرق التي تربط مصر بغانة، وهو ما جعلها تشارك في ذلك النشاط التجاري الذي جلب لها الرفاهية. لكن ذلك الطريق الذي أهمل خلال القرن الرابع للهجرة / 10م، جعل جاو توجه تجارتها إلى الشمال من خلال تادمكة وتوات باتجاه المغرب، ومن خلال الهقار وغات باتجاه مصر.

د. ولاتة:

يصفها بن بطوطة، الذي يذكرها بايوالاتن، بأنها أول عمالة السودان، وأنها تبعد عن سجلماسة بمسيرة شهرين [1]، ولعل هذا الموقع هو الذي جعلها مركزا تجاريا استقطب اهتمام التجار، ذلك أن تجار غانة الملقبين بـ(الونغارة)، هم من أسسها في مكان يدعي (بيرو)، وذلك عام 621هـ/ 1224م، مباشرة بعد نهب مدينة كومبي صالح.

وقد تم اختيار هذا المكان لأغراض أمنية، فوجودها على الحدود بين السفاناوالصحراء الكبرى، وعلى بعد شهرين من سجلماسة، جعلها المدينة السودانية الأقرب من بلاد المغرب، كما جعلها هذا الموقع بمثابة مفترق طرق كثيرا ما يعبره التجار، وأهل السودان الذاهبون إلى الحج.

---

(1) المصدر السابق، ص 676.

فولاته إذن تعد المحطة النهائية لعابري الصحراء، حيث عوضت الدور الذي كانت تلعبه أودغست المندثرة، والمسيطر على موقعها من طرف عرب المعقل الذين أصبحوا يشكلون خطرا على القوافل ، وعندما زار ا بن بطوطة مدينة ولاته، وأقام بها خمسين يوما، كان زعيمها (فربا حسين) تابعا لسلطان مالي، والمدينة تابعة لإمبراطورية مالي، وكانت تحتوي على فنادق، ويتكفل بضيافة التجار المشرف الذي يدعى (منشا نجو).

وبقيت على هذا الوضع إلى غاية الاستيلاء عليها من طرف الطوارق عام 838هـ/ 1433م، الذين فضلوا تطوير تنبكتو على حسابها ، حتى إذا زارها حسن الوزان في بداية القرن العاشر للهجرة/ 16م، كانت مملكة خاملة بالنسبة لسائر ممالك السودان، وليس لها من الأماكن المسكونة إلا ثلاثة قرى كبيرة وأكواخ متفرقة بين حدائق النخل.

هـ . تاكدا:

اشتهرت تاكدا بإنتاج النحاس، الذي يستخرج من مناجمها فيحملون إلى بلاد السودان، بعدما يسبك على شكل قضبان في طول شبر ونصف ، ولعل هذا المعدن هو الذي منح تاكدا أهمية تجارية، بالإضافة إلى موقعها في الطريق بين توات وغانة. فهي تبعد عن توات بسبعين يوما، فكانت القوافل تسير منها باتجاه بلاد بورنو حيث تجلب الجواري والعبيد والثياب وتصدرها إلى المغرب [1]. كما كان أهل تاكدا يسافرون سنويا إلى مصر، ويجلبون منها الثياب الحسنة وغيرها، وهو ما انعكس بالرفاهية وسعة الحال على أهلها.

ثانيا .مظاهر الحياة الثقافية و العلمية في الحواضر الإفريقية:

1 ـ مؤسسات التعليم:

بعد انتشار الإسلام في غرب افريقيا و قيام دول سودانية اسلامية مثل غانة و مالي وسنغاي، تحولت تلك المراكز التجارية و السياسية إلى مراكز علمية بعدما أُقيمت بها مساجد تحولت الة

(1) **الشيخ (أمين عوض الله)**، المرجع السابق، ص 84.

جامعات و مراكز إشعاع علمي، حيث استقطبت العلماء و الطلبة من كل بلاد السودان، حيث ذكر السعدي أنه بعدما أسلم سلطان جني الذي يدعى كنبر حضر إسلامه 4200 عالم كانوا موجودين في مدينة جني، و هو رقم كبير يدل على أهمية المدينة من الناحية العلمية. و لو أن المقصود بالعالم عند السعدي هو معلم الصبيان، أي حتى معلم في الكتاتيب كان يطلق عليه اسم عالم.

إن هذا العدد من المعلمين و القراء المنتشرين في أرياف و مدن مملكة جني يدل أيضا على انتشار التعليم و الاهتمام به خاصة في عهد الاسقيين و هو الفترة التي كان يقصدها السعدي بالدراسة. فالتعليم كان موجودا حتى في الفترات السابقة أي فترة حكم سوندياتا كيتا ، خلال القرن13م، أين كان يتم عن طريق الكلمة فقط، أي عن طريق الرواية الشفوية التي كانت تحفظ عن ظهر قلب، وتتوارثها الأجيال وتلقن عن طريقها العلوم والمعارف.

لكن مع ظهور الممالك السودانية الإسلامية، و ظهور ذلك الجيل من الملوك الحجاج واحتكاكهم بالحضارة الإسلامية في المغرب والمشرق، بدؤوا يتعرفون على الطرق التعليمية الجديدة، وأخذوا ينقلونها إلى إمبراطوريتهم التي كانت تتهيأ لأن تكون إحدى أقطاب الثقافة العربية الإسلامية [1].

وكان التعليم في البداية يقتصر في أول الأمر على الأساتذة العرب والبربر القادمين من المغرب الإسلامي، وبعد مدة تكونت طبقة من المعلمين السودانيين الذين تخرجوا من مختلف المدارس المشرقية والمغربية، وكان دورهم في البداية يقتصر على تعليم الملوك القرآن وبعض شرائع الإسلام واللغة العربية ، وكانوا يتلقون مكافآت على ذلك، ثم تطور التعليم ليشمل علوم اخرى، ومستويات أعلى.

---

(1) **نور الدين شعباني**، دور عائلة كيتا في مملكة مالي الإسلامية و علاقاتها الخارجية بين القرنين 5و10هجريين، رسالة دكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة الجزائر، السنة الجامعية: 2012.2013م، ص 279.

و كانت مؤسسات التعليم في حواضر غرب إفريقيا تمتاز بظاهرة عامة و هي ارتباطها الشديد بالدين، حيث كانت في البداية المدارس مرتبطة بالمساجد و ملحقة بها، فالي جانب كل مسجد كان هناك غرفة او غرفتان لتعليم الأولاد، و هناك أمكنة أخرى ليبيت فيها الطلاب القادمين من البلاد البعيدة، و هناك مساجد خصصت كلها لتلقي العلم كانت تعقد فيها حلقات لمختلف العلوم الشرعية.

2 ـ مراحل التعليم:

مع ظهور الحواضر الكبرى في عهد إمبراطورية مالي و سنغاي ظهرت معه المؤسسات التعليمية الكبرى ذات المستوى العالي مثل جامع جنجربير و سيدي يحي في تنبكتو و جامع سنكاري في مدينة جني، حيث كانت تمر بمراحل تعليمية تبدأ من الإبتدائية إلى غاية المرحلة العليا التي يتخرج منها الطالب عالما.

أ. مرحلة التعليم الابتدائي (الكتاتيب):

قبل الحديث عن هذه المرحلة، تجب الإشارة إلى أنَّ عملية التعليم تختلف جزئياً بين الأقطار الإسلامية، وقد أوضح العلامة ابن خلدون ذلك في مقدمته عندما تحدث عن تعليم الأولاد واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية، حيث قال: ''إنَّ تعليم الأولاد للقرآن الكريم شعار من شعائر الدين، أخذ به أهل الملة، ورجوا عليه في جميع أمصارهم، لما يسبق إلى القلوب من رسوخ في الإيمان وعقائده من آيات القرآن، وبعض متون الأحاديث، وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعد من الملكات...واختلفت طرقهم في تعليم القرآن للأولاد باختلافهم، باعتبار ما ينشأ من ذلك التعليم من الملكات.

وتعد المرحلة الابتدائية أساسية للطلاب، حيث تستقبل الأطفال منذ نعومة أظافرهم، وتلقنهم تهذيبا دينيا سليما يتزودون فيها بمعرفة مبادئ القراءة والكتابة، ويحفظ لهم القرآن الكريم وتدرس لهم اللغة العربية حتى يتمكنون من كتابتها،كما كانوا يدرسون بعض المواد العلمية، وعادة ما تضم هذه المرحلة الطلاب صغار السن، بداية من سن الخامسة حتى مرحلة الصبا، وكانت مدة بقاء الطالب

فيها تراوح بين الخمسة والستة أعوام في المتوسط؛ يحفظ فيها أجزاء من القرآن الكريم، ويتقن فن الكتابة والخط، ويلمّ بمبادئ اللغة العربية ..وكل ذلك يتم عن طريق الكتابة على الألواح الخشبية .إنَّ هذه المرحلة من التعليم تقوم بها الكتاتيب، وقد اختلفت مسمياتها في إفريقيا الغربية باختلاف قبائلها؛ فقبيلة الولوف تطلق عليها اسم دارا ، وقبائل بلاد شنقيط) موريتانيا (يعرفونها بـ المحظرة، أما قبائل التكرور فيدعونها ديا لجانتي، في حين تسمي قبائل أخرى معلم الكتاتيب معالام، وهو تحريف للفظ معلم.

أما نظام التعليم فقد كان يتميز بالصرامة الشديدة، وكثافة البرامج، حيث كان في جني مثلا يخرج المعلم من بيته إلى المسجد في منتصف الليل، فيبدأ الحصة ويجلس حوله الطلبة، فيتابعون الدرس إلى غاية صلاة الصبح، ، وعند نهاية الصلاة يعودون إلى أماكنهم إلى غاية منتصف النهار أين يعود المعلم إلى بيته، ثم يعودون إلى الدراسة بعد صلاة الظهر، وتنتهي الحصة مع صلاة العصر. كما كان الآباء يحرصون على حفظ أبنائهم للقرآن وكانوا يعاقبون أبناءهم عليها أشد العقاب كما يخبرنا بذلك ابن بطوطة.

وكان الفقيه الحاج التمبكتي، الذي تولى القضاء بتمبكتو في أواخر عهد دولة مالي كان قد أصدر أمر بقراءة نصف حزب من القرآن بعد صلاتي العصر والعشاء في جامع سنكري.

ب. مرحلة التعليم الثانوي:

فكان يتخصص فيها الطالب لدراسة علوم القرآن وتفسيره، بالإضافة إلى دراسة مواد أخرى مثل الفقه والحديث والفكر الإسلامي والأخلاق الإسلامية والأدب العربي،كما كانوا يدرسون الطب والجراحة وعلم الفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء واللغات والتجارة. بعد ذلك يتدرج الطلبة في مناهج أخرى لتشمل حلقات درس وندوات تجري فيها مناقشات فقهية، وفلسفية حيث يُدَرَّس لهم منطق أرسطو ومقامات الحريري. كما كانوا يدرسون الفقه المالكي لخليل بن إسحاق.

وكانت دراسة النحو تقوم على الاستنتاج، إذ يقرؤون النص الأدبي ويناقشونه من خلال بعض المسائل النحوية ثم تستخرج القاعدة. بعد ذلك تأتي المراحل العليا من التدريس في تمبكتو وفاس والقاهرة وهو ما يعادل التعليم الجامعي، حيث يتم التدريس في هذه المرحلة على أساتذة مرموقين في مجال التعليم الإسلامي، هنا يصبح المنهاج أكثر تخصصا وعمقا في البحث، حيث كان الأستاذ يطرح على الطلبة مسائل تتعلق بشتى المواضيع، وكان على الطالب تقديم حلول لها مدافعا عن رأيه بالحجج والبراهين وذلك أمام عدد من زملائه الطلبة وأساتذته، كما يتدربون خلال هذه المرحلة على تزكية النفس ليكونوا نموذجا صالحا للأجيال المقبلة. أما التخرج فيتم بعد التأكد من تفوق الطالب في المعرفة والأخلاق الإسلاميين، فيعطى بعدها عمامة مزينة بالعقد والدوائر التي ترمز إلى أسماء الله الحسنى، أما العمامة فكانت ترمز إلى الحد الفاصل بين العلم والحكمة والمعرفة والخلق الحسن.

ج. مرحلة التعليم الجامعي(او العالي):

تختلف هذه المرحلة كثيراً عن مرحلة التعليم السابقة لها، فهي تعادل ما يُطلق عليه في يومنا هذا المرحلة الجامعية، و الدراسة في هذه المرحلة تتميز بالتعمق في القضايا، والخوض في المسائل التفصيلية والشروح الدقيقة التي ضمتها بعض أمهات المؤلفات الكبيرة التي عرفها المسلمون في ذلك الوقت .ومن أشهر المساجد التي اهتمت بالمرحلة العالية :مسجد سنكري .وتحدثنا بعض المصادر التاريخية أنَّ الأسكيا الحاج محمد كان يخصص أوقافاً لتنفق على الطلاب المتفرغين للعلم والدراسة.

و كانت تتم هذه المرحلة في جوامع عديدة منها جوامع تمبكتو التي كانت ذات شهرة كبيرة وخاصة مسجدها الكبير الذي يعد أقدمها وأكبرها، وإن كنا لا نعرف تاريخ تشييده على وجه التحديد، لكن الأكيد هو أن هناك مسجد أقيم فوق موقعه خلال القرن السابع للهجرة/13م، والراجح أن بناءه لأول مرة كان في مطلع القرن السادس للهجرة /12م على وجه التقريب، أي في

الفترة التي وجدت فيها مدينة تمبكتو واستقرار المسلمين فيها، وجدده فيما بعد منسا موسى عن عودته من الحج.

وكان نظام التعليم في تمبكتو يتميز بمستوى عال لا يقل عن الجامع الأزهر وجامع الزيتونة والجامع الأموي أو غيره، فكانت تعقد فيه حلقات العلم يتشاور فيها الأئمة والأساتذة والعلماء فيما بينهم بين أروقة الجامعة لمعالجة المسائل التي ترسل إلى السلطات الحكومية للتقيد بها.[1]أما الكتب المتداولة لدراسة بهذه الجمعة فهي نفسها المتداولة في الجامعات الإسلامية الكبرى مثل كتاب الشفا للقاضي عياض، مدونة القاضي سحنون، مختصر ابن الحاجب الفرعي، تهذيب البرادعي، جمع الجوامع القرطبية، جامع المعيار وهي كلها في الفقه المالكي، بالإضافة إلى ألفية بن مالك في النحو وتلخيصها للسيوطي، ألفية السيوطي، صحيح مسلم والبخاري، سيرة بن هشام وتفسير الجلالين، وغيرها.

وعموما فقد كان مستوى التعليم عال جدا في جامعة تمبكتو إلى درجة أن عبد الرحمان التميمي الذي جاء من أرض الحجاز مع منسا موسى، لما سكن تمبكتو وجدها تعج بالفقهاء السودانيين، ولما رأى تفوقهم عليه في الفقه رحل إلى فاس وتفقه فيها، ثم رجع إلى تمبكتو فاستقر فيها.

كما انتهجت جامعة تمبكتو سياسة تقوم على التبادل العلمي بينها وبين الجامعات والمعاهد في البلدان الإسلامية الأخرى في المغرب والأندلس والصحراء الكبرى، ولما كانت معاهد المغرب أعرق منها فقد حرص ملوك مالي على إرسال طلبتهم إليها، حيث قام منسا موسى بإرسال العالم كاتب موسى الذي كان إماما ومدرسا بجامع تمبكتو إلى فاس ليتلقى المزيد من العلوم الإسلامية وذلك بأمر من السلطان الحاج منسا موسى.

---

(1) **باري (محمد فاضل) و كريدية (سعيد إبراهيم)**، المرجع السابق، ص 105 .

عندما اشتهرت هذه المعاهد وفد عليها كثير من الطلبة من بقاع شتى من السودان الغربي لتلقي العلم على مشايخها ومنهم الفقيه مخلوف بن علي البلبالي، ومن إقليم ودان وفد عليهم سيدي أحمد الغزالي بن محمد بن يعقوب الحاجي اليعقوبي السوداني الذي تتلمذ على يد والد أحمد بابا التمبكتي. وعندما زار ابن بطوطة إمبراطورية مالي خلال فترة حكم منسا سليمان التقى عددا من علماء المغرب ومصر المقيمين بمالي، منهم محمد بن الفقيه الجازولي، وشمس الدين ابن نقوش المصري، وعلي الزودي المراكشي الذي قال عنه بأنه كان من الطلبة.

كما جذبت جامعة تمبكتو بعض علماء الأندلس أمثال علي بن أحمد بن محمد بن عبد الله الوادي آشي (المتوفى عام 724هـ /1323م) وهو والد ابن الملقن التكروري (توفي 804هـ /1401م) صاحب كتاب طبقات الأولياء، وقد مارس التدريس لمادة اللغة العربية قبل أن يرحل إلى القاهرة.

وهناك بعثة تعليمية انطلقت من تمبكتو المالية إلى بلاد الهوسا والبرنو كانت تظم طلبة من الونغارة (لذلك سميت بالبعثة الونغارية) و كانت تضم ركائز معاهد تمبكتو، فأخذ العلماء التمبكتيون منذ ذلك الحين يتوافدون على بلاد الهوسا والبرنو أمثال الفقيه مخلوف البلبالي، والتاذخني، ومنهم من أسس معاهد تعليمية في هذه المنطقة، مثل معهد الحنبليين في كاتسينا.

وكان التعليم في جامعة سنكري يشمل المناهج الدراسية التي كانت تتضمن :التوحيد، والتفسير، والحديث، والفقه، والعلوم العقلية، وغيرها من المعارف التي كانت تشكل في الوقت ذاته الدعائم الأساسية للعلوم الإسلامية .وقد اشتهرت جامعة تنبكت بتدريس المذهب المالكي، الذي كان يقوم بتعليمه علماء ضالعون في مادته، سواء من الإفريقيين أو الزائرين من أساتذة القاهرة وفاس، الذين كانوا يأتون لإلقاء الدروس على الطلاب الذين يفدون على هذه الجامعة من كل مكان من مناطق إفريقيا الغربية المجاورة[1].

(1) **عبد الله عيسى**، التعليم الإسلامي في غرب إفريقيا، مرجع سابق.

د. التَّعليم المهني (الحرفي):

رغم قلة انتشار هذا النوع من التعليم واقتصاره على مهمة الخياطة وبعض المهن الحرفية الأخرى؛ كصناعة السيوف والحراب؛ فإنَّ التدريس في هذا النوع كان يتولاه معلمون متخصصون عُرفوا بـالشيوخ الرؤساء، حيث كان التدريس والعمل يتم في بيوت وفي مقر عمل شيوخ المهنة. وقد ذكر المؤرخ محمود كعت أنه يوجد في مدينة تنبكتو وحدها 26 بيتاً من بيوت الخياطين، ولكل بيت من تلك البيوت شيخ معلم، وقد بلغ تلاميذهم ما بين 75 إلى 100 تلميذ.

3 ـ الإجازات العلمية و الشهادات:

إن شهادة التخرج أو الإجازة هي إقرار الأستاذ بأهلية الطالب بعد تحصيله التام لفن من الفنون، ويقع النطق بذلك الإقرار أو يحرر على ورقة تدفع للطالب المتخرج. ووجدت في الواقع ثلاث درجات للإجازة، هي: شهادة السماع، وتعني أن الطالب تتبّع أقوال العالم وحفظها. وشهادة العرض، أي سرد الطالب على أستاذه مع استذكاره النصوص ومعرفته شروحها. ثم الإجازة الكاملة، وهي أن يصل الطالب إلى المرحلة التي يستطيع معها ذكر الأسانيد وإرجاعها لمصدرها الأول وذكر الفوارق في الروايات بعد الإلمام بفن معين من الفنون.

وقد تتعدد المواضيع التي يتقنها الطالب ويكثر أساتذته فيها جميعاً، لكن الإجازة لا تعطى إلا في أحوال نادرة، أي عندما يتأكد المدرس أن الطالب متمكن من مادة أو من إتقانها إتقاناً تاماً، ويلاحظ مواظبته على تلك المادة واهتمامه بها، وأيضاً عندما يطمئن الأستاذ إلى بلوغ الطالب مرحلة التعليق والمناقشة والاجتهاد، وقد يكون على المجاز أن يلقي درساً بمحضر أستاذه لتحصل لديه القناعة بالحكم الذي سيصدره والشهادة التي سيشهد بها.

ولا تُعطى الإجازة أو ينطق بها لأكثر من شخص واحد، فلم تكن شهادة جماعية، وقد يضم مجلس علمي مجموعة من الطلبة ويحصل كل واحد منهم على إجازة في فن مستقل متمايز، ثم يبقى طالباً عادياً في فن أو فنون أخرى، ويحضر بانتظام حلقات أستاذه فيها.

وتتضمن الإجازة المكتوبة تصريحاً من المدرس بأنه حضر عليه مواد متعددة لكنه برع في مادة خاصة، ولذلك فهو يجيزه في جميع ما يحوز له إن كانت للمدرس كتب من تأليفه، وما يحوز له من غيره إن كان الكتاب من وضع شخص آخر. ومما يدل على مدى تحري الأساتذة وحرصهم على

الإنصاف ما جاء في إجازة أحمد بابا عن أستاذه محمد بن محمود بغيغ، وما تضمنته إجازته على يد أحمد المقري في مصنفات الأحاديث النبوية الستة بعد أن رواها كلها بالسند السوداني المتصل بروايات واضعي تلك المصنفات، وقد كتبت تلك الإجازة بمراكش في 15 ربيع الآخر عام 1010 للهجري/ 13 أكتوبر 1601م.

ولقد تشابهت الإجازات بين إفريقيا الغربية والمغرب بفضل الاتصال بين علمائهما، وبصفة خاصة بعد عودة علماء السودان المهجرين إلى وطنهم، ويمكن من مراجعة تراجم علماء تنبكتو وفقهاء المالكية السودانيين أن نميز بين نوعين من الإجازات التي أعطيت لبعض المتخرجين: **إجازات خاصة** تهم فناً واحدا أو عدة فنون متحدة الموضوع، **وإجازات عامة** تشمل فنوناً وعلوماً متباينة، ومن أمثلة النوع الأول: الإجازات القرآنية و الحديثية، وكان يراعى فيها الاحتياط في قراءة النص والمعرفة التامة بالقراءات السبع واختلاف روايات حديث. أما الإجازات العامة فتقتضي ختم عدة مواد على النحو الذي يؤهل المجاز لرواية العلم عنه والقدرة على تبليغه للآخرين، ولم يكن ذلك متأتياً إلا لمن لزم المجالس العلمية لسنوات طويلة قد تشمل جانباً كبيراً من حياة الطالب[1].

ثالثا: مظاهر الحياة الثقافية في غرب إفريقيا:

1 ـ حركة التأليف و المؤلفين:

شهدت الحواضر الثقافية في غرب إفريقيا حركة تأليف واسعة كان وراءها علماء من غرب إفريقيا تكوَّن معظمهم في جامعات السودان الغربي كتنبكتو و جني و غاو، و لقد شملت حركة التأليف ميادين مختلفة نصنفها كما ياتي:

أ. التاريخ:

الشيخ القاضي(محمد بن محمود كعت)،الذي ولد عام 868هـ/1468م بمدينة تمبكتو[2]، وعاصر السلطان أسقيا الحاج محمد التوري، الذي عاش بين 898هـ و925هـ، وألف كتابه المشهور في التاريخ والمعروف بـ « تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، وذكر وقائع التكرور

(1) **عبد الله عيسى**، التعليم الإسلامي في غرب إفريقيا، مرجع سابق

(2) بوعزيز ،المصدر السابق، ص 255.

وعظائم الأمور وتفريق انساب العبيد من الأحرار»، والذي بدأ بتأليفه سنة 925هـ/1519م. وكان هذا الكتاب من أهم المصادر الخاصة بتاريخ السودان الغربي في عهد الإسقيين، خاصة فيما يتعلق بتمبكتو وأوضاعها، والغزو المغربي لسنغاي، وتخريب تمبكتو، وتدهور حالتها. وقد توفي محمود كعت عام 1001هـ/1593م. وأكمل أحفاده من بعده، أحداث السنوات الست المسجلة بعد ذلك بالكتاب، وتميز كتابه بلغة سلسة، ومعلومات غزيرة.

* **احمد بابا التنبكتي** من عائلة اقيت الشهيرة في تنبكتو، كتب أكثر من 400 مؤلف، أشهرها نيل الابتهاج بتطريز الديباج و هو موسوعة تراجم لأكثر من مائة عالم في الفقه المالكي، وكذا كتاب «كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج» وهو مختصر كتابه الأول حيث هذبه وأضاف له حواشي و أسماء أخرى كان قد أغفلها في تطريز الديباج، و لديه كتاب معراج الصعود في حكم مجلوب السود.

ومن المؤرخين الذين أنجبتهم بلاد السودان، عبد الرحمان بن عبد الله السعدي، الذي ولد بمدينة تمبكتو عام 1004هـ/1596م، أي بعد الغزو المغربي لمملكة سنغاي الذي حدث عام 999هـ/ 1591م، وعاش في ظل الحكم السعدي لتمبكتو، حيث عينه الباشا محمد بن عثمان حاكم تمبكتو سنة 1646م ناظرا لخارجيته، فسمح له ذلك المنصب بالتنقل في أنحاء المملكة، فألف كتابه المشهور (تاريخ السودان)، الذي أتمه عام 1063هـ/1655م فكان هذا الكتاب أفضل متمم لتاريخ الفتاش عن تاريخ السودان.

كما عرفت مملكة كانم بورنو حركة تاليف مهمة جدا في التاريخ لعل أهمها مؤلفات احمد بن فرتيوا البرنوي و هو مؤرخ البلاط في إمبراطورية كانم الذي ألف كتاب(تاريخ مي إدريس ألوما وغزواته) وقد كتب هذا التاريخ على حدّ قوله تبعاً لما يراه من تأليف الشيخ الفقيه مسفرمه عمر بن عثمان في عصر سلطانه الملك العادل. وقد ترجمه المؤرخ الألماني بالمر(Palmer) إلى الإنجليزية.

ومنها كتاب (ديوان سلاطين كانم) لمسفرمه عمر بن عثمان السابق الذكر، يضمّ هذا الديوان أهمّ الوثائق، وأسماء السلاطين في إمبراطورية كانم برنو الإسلامية القديمة، ومنها غزوات كانم، وكتاب« أخبار أصل فلات برنوي » وغيرها).

ومن أهمّ الوثائق التاريخية في البرنو الإسلامية « المحارم »، وهي المراسيم التي كان يصدرها الحكام في حق العلماء، وقد استفاد المؤرخون منها، الأمر الذي جعل المؤرخ الألماني بالمر يترجمها إلى الإنجليزية في كتابه(صحارى برنو (The Borno Sahara)، كما ترجم عدداً غير يسير من الرسائل العربية البرنوية والمعاهدات، وبعض القصائد في كتابه الثاني تحت عنوان« مذكرات سودانية Sudanese Memoirs » الذي يقع في ثلاثة أجزاء.

فالقيمة التاريخية في هذه الآثار العربية البرنوية لا شكّ فيها، وإن تضاؤل هذه الآثار العربية النثرية في الإيفاء بشروط تدوين التاريخ على حدّ مفهومها المعاصر؛ لا يُخرج أولئك العلماء من كونهم مؤرّخين؛ لأن الاستفادة مما خلفوا من المعلومات.

ب.في الأدب:

تعتبر اللغة بالنسبة لأي شعب، بمثابة الوعاء الذي يحمل ثقافته وإنتاجه الأدبي والفكري، لكن اللغة العربية تمتاز بالإضافة إلى كل ذلك، بأنها أداة للصناعة الأدبية، والبلاغة التي ارتبطت بحضارة العرب قبل الإسلام، ثم جاء القرآن ليجعل منها معجزة جمعت جمال الكلمة، وبلاغة القول، وحملت رسالة إنسانية عظيمة، فكان الأدب العربي أول ما نقلته هذه اللغة أينما حلت بعد القرآن. فلم يكن للأفارقة في السودان الغربي قبل مجيء الإسلام من الآداب، سوى حكايات يتناقلها الخلف عن السلف شفهيا، وتتمثل أغلبها في ذكر بطولات الأجداد، وأصول القبائل، والملوك وأنسابهم، بالإضافة إلى صراع الإنسان مع الطبيعة[1].

(1) زبادية، المرجع السابق، ص 77.

فكان الأدب السوداني إذن، أدبا غير مكتوب، ومعظم التراث الأدبي تم الحفاظ عليه عن طريق الروايات الشفهية، إلى غاية مجيء الإسلام، واحتكاك السودانيين بالتجار المغاربة والفقهاء، وخاصة في المدن الهامة مثل تمبكتو، جاو، جني، ولاتة، وغيرها، حيث كان يلتقي العلماء والتجار والقضاة، فتمكن أهل السودان من تشكيل نخبة حملت آداب اللغة العربية [1]. وقد سبق وأن ذكرنا البلاغة التي ميزت الأديب الكانمي، أبا إسحاق إبراهيم بن يعقوب الأسود، وشعره الذي قاله عند ملاقاة أبي يوسف المنصور الموحدي.

إن المتصفح لتاريخ اللغة العربية وآدابها في هذه البلد؛ يعرف أن بعض العلماء والرجال على مرّ عصورها قد أسهموا في ترقية العربية وتطويرها في إفريقيا، وتركوا أنواعاً كثيرة من الكتابة، مثل الرسائل الديوانية بين العلماء، والوثائق الرسمية بين رجال الحكومة، وبعض الوثائق التاريخية، ومن الممكن تقسيم هذا الفن الأدبي(النثر) الذي أنتجه علماء هذه الديار إلى فنيّ وعلميّ، فالأول استعملوه في رسائلهم، والثاني في تأليفهم.

أما النثر الفني، فخير مثال على ذلك الرسائل المتبادلة بين أهل الفودي وبين فارس الكانم الشيخ محمد الأمين الكانمي، ونورد هنا نصّاً من رسالته إلى الزعيم الفلاني الشيخ عثمان بن فودي، قال فيها» :من المتعفّر بتراب الذنوب، والمتدثّر بجلباب العيوب، العبد الذليل محمد الأمين بن محمد الكانمي إلى العلماء الفلانيين ورؤسائهم، السلام على من اتّبع الهدى، أما بعد، فالباعث لرسم هذا المزبور، أنه لما ساقتني المقادير لهذا الإقليم، وجدتُ نار الفتن بينكم وبين أهل الوطن موقودة، فسألتُ عن السبب، فقيل :بغي وقيل :سنّة، وتحيّرنا في الأمر، فكتبتُ لإخوانكم المجاورين لنا وثيقةً، طلبتُ منهم بيان السبب والدليل على الجواز، فأجابوني بجواب ركيك لا يصدر عن عاقل، فضلاً عن عالم، فضلاً عن مجدّد، وعدّوا فيه أسماء كتب لنا اطلاع على بعضها، لكن لم نفهم منها ما فهموه.

---

(1) نفسه.

ومن أمثلة الرسائل الديوانية كذلك؛ رسالة ملك برنو إلى السلطان الظاهر البرقوق في القاهرة سنة 894 هجرية تقريباً، والتي ورد فيها ما يأتي :« بسم الله الرحمن الرحيم، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً :الحمد لله الذي جعل الخط تراسلً بين الأباعد، وترجماناً بين الأقارب، ومصافحة بين الأحباب، ومؤنساً بين العلماء، وموحشاً بين الجهال، ولولا ذلك لبطلت الكلمات، وفسدت الحاجات، ومن المتوكّل على الله تعالى، الملك الأجلّ المستنصر بالله، المنصور في كلّ حين وأوان، ودهر وزمان، الملك العادل، الزاهد التّقي النّقي، الأبجد والأمجد الغشمشم، فخر الدين، زين الإسلام، قطب الجلالة، سلالة الكرماء، كهف الصدور، مصباح الظلام، أبي عمرو عثمان الملك ابن إدريس الحاج أمير المؤمنين المرحوم، كرّم الله ضريحه، وأدام ذرية هذا ملكه؛ إلى ملك المصر الجليل، أرض الله المباركة، أم الدنيا، سلام عليكم أعطر من المسك الأذفر، وأعذب من ماء الغمام ..زاد الله ملككم وسلطانكم، والسلام على جلسائكم وفقهائكم وعلمائكم، الذين يدرسون القرآن والعلوم، وجماعتكم وأهل طاعتكم أجمعين. وبعد ذلك؛ فإنّا قد أرسلنا إليكم رسولنا، وهو عمّي، واسمه إدريس بن محمد، من أجل الجائحة التي وجدناها وملوكنا، فإن الأعراب الذين يُسمّون جذاما وغيرهم، قد سبوا أحرارنا من النساء والصبيان وضعاف الرجال، وقرابتنا من المسلمين».

وإذا ألقينا نظرة على ما أوردناه من مثال للإنتاج الهلمي باللغة العربية لعلماء كانم برنو؛ يتضح أن هؤلاء العلماء قد أسهموا بقدر الإمكان في التأليف العربي، وتناولوا فيه مواضيع شتّى، مع هذا فمن الأحسن أن ننتبه إلى سؤال قد يطرح نفسه على الدارس المدقّق، وهو أنه إذا كان لعلماء كانم برنو. تراث عربي [1].

ج. العلوم الشرعية و العقلية:

[1] **ن آدم أديبايو سراج الدين**، نفس االمرجع

من أشهر علماء غرب إفريقيا تأليفا في هذا المجال و خاصة خلال القرن 16م نذكر احمد بابا التنبكتي الذي ترك لنا حوالي 40 كتاب، حيث عبر عنها بقوله: « وألفت عدة كتب تزيد على أربعين تأليفا: كشرحي على مختصر خليل من أول الزكاة إلى أثناء النكاح ممزوجا محرراً، وحواشي على مواضع منه، والحاشية المسماة منن الرب الجليل في مهمات تحرير خليل يكون في سفرين، وفوائد النكاح على مختصر كتاب الوشاح للسيوطي».

وله كتاب فتح الرزاق في مسألة الشك في الطلاق، والزند الوري في مسألة تخيير المشتري، وأيضا تنبيه الواقف على تحرير نية الحالف ، كما كتب تعليقا على أوائل الألفية سماه النكت الوفية بشرح الألفية، ونيل الأمل في تفضيل النية على العمل، وغاية الإجادة في مساواة الفاعل للمبتدأ في شرط الإفادة في كراسين، وآخر سماه "النكت المستجادة في مساواتهما في شرط الإفادة، وما رواه الرواة في مجانبة الولاة، بالإضافة إلى شرح الصغرى للسنوسي، ومختصر ترجمة السنوسي، ونيل الابتهاج بتطريز الديباج، و "كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج" اختصر فيه "النيل"، وخمائل الزهر فيما ورد من كيفيات الصلاة على سيد البشر، والدرر النضير في ألفاظ الصلاة على البشير، وسؤال وجواب في جواز الدعاء بالّلهم ، وشرح الصدر وتنوير القلب ببيان مغفرة ما نسب للجانب النبوي من ذنب، والكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان، المناقب الفاخرة في أسماء سيد الدنيا والآخرة، والمنهج المبين في شرح حديث أولياء الله الصالحين، والبدور المسفرة في شرح حديث الفطرة، وفتح الصمد الفرد في معنى محبة الله تعالى للعبد، نزول الرحمة في التحديث بالنعمة، ودرر الوشاح في فوائد النكاح وهو مختصر لكتاب الوشاح للسيوطي، ونيل المرام ببيان حكم الأقدام على الدعاء لما فيه من إيهام وهو مأخوذ من مسودة تأليفه فتح القدير للعاجز الفقير في الكلام على دعاء محمد بن حمير، وتحفة الفضلاء ببعض فضائل العلماء ومختصره مرآة التعريف في فضل العلم الشريف، ودرر السلوك بذكر أفاضل الخلفاء الملوك، وأجوبة الأسئلة المصرية، وله أسئلة في المشكلات.

و خلال القرن19م ألف الشيخ عثمان دان فوديو في بلاد الهوسا أكثر من مائة كتاب في العلوم الشرعية و الجهاد و السياسة أشهرها كتاب « إحياء السنة و إخماد الفتنة » و كتاب « السنة و إخماد البدعة » الذي تطرق فيه إلى عدة مسائل تتعلق بالشرع و أركان الإسلام من صلاة و صيام و حج و زكاة، و آداب الطعام و ميراث نكاح و بيوع . و كتاب عنونه بـ «وثيقة الإخوان لتبيين دلالة وجوب إتباع السنة و الإجماع » ، كما كتب أخوه عبد الله في الأدب و الفقه أشهرها كتابه ضياء السياسات و فقه النوازل.

المبحث الثالث

انتقال المذاهب الإسلامية في السودان الغربي

رغم أن التاريخ الإسلامي للسودان الغربي قد ارتبط بالمذهب السني المالكي، حيث مثّل هذا المذهب المسلك الإسلامي الذي رافق انتشار الإسلام في الغرب الإفريقي بعد إتمام فتح المغرب، وقامت عليه كل الحركات الإسلامية الإصلاحية في العصور الحديثة والمعاصرة، مثل حركة الشيخ عثمان دان فوديو، و الحاج عمر تال في بلاد التكرور، وحركة ساموري توري في بلاد المندينغ ، إلا أنه لم يكن هو المذهب الوحيد الذي عرفه السودانيون، فكما انتقل الإسلام و معه الثقافة العربية الإسلامية إلى ما وراء الصحراء، انتقلت إليه التيارات المذهبية السائدة في المشرق الإسلامي بعد أن أصبح السودان الغربي جزء من العالم الإسلامي.

لكن المصادر التاريخية و حتى الدراسات الأكاديمية الحديثة المختصة بتاريخ هذه المنطقة لا تشعرنا بوجود مذاهب أخرى في بلاد السودان الغربي غير المذهب السني المالكي، رغم دورها الديني و العلمي و الاقتصادي الذي لا يمكن تجاوزه. لهذا حاولت في هذه الدراسة أن أبيّن دور تواجد المذاهب الإسلامية في السودان الغربي، لكن دون أن اخفي دور المذهب السني المالكي و أحلل أسباب و عوامل تفوقه و انتشاره على المذاهب الأخرى.

أولا: الخوارج في السودان الغربي:

رغم أن المذهب الخارجي كان مشرقي النشأة والظهور إلا أن الخوارج لم يحققوا انتشارا ولا انتصارا إلا خارج بيئتهم المشرقية، إذ أن دورهم الأبرز في التاريخ كان ببلاد المغرب الإسلامي، أين أثّروا في أحواله السياسية و الاقتصادية والاجتماعية منذ القرن الثاني إلى غاية القرن الرابع للهجرة/من القرن الثامن إلى العاشر للميلاد. حيث استطاع الصفرية منذ بداية القرن الثاني للهجرة أن يلهبوا المغرب ضد الولاة الأمويين في ثورة كانت بداية لانتصارات خارجية ستكلل بقيام دول مستقلة عن السلطة المركزية في الشام.

وقد استقطبت هذه الحركات الخارجية العنصر السوداني الإفريقي منذ الوهلة الأولى لظهورها عن طريق أبي القاسم سمكو بن واسول الذي نقل تعاليم الصفرية إلى جماعات السودان القاطنين جنوبي الصحراء مستغلا تواجده بتافلالت(أو سجلماسة) التي تعد محطة للقوافل العابرة للصحراء، فوجد فيهم أتباعا مخلصين فاعتنقوا مذهبه، حتى كان أول أئمة دولته الصفرية بسجلماسة سنة 140هـ/757م، رجلا من السودان و هو عيسى بن يزيد الأسود الذي ولاه أمرهم قبل أن ينكروا عليه.

و يبدو أن السودان قد وجدوا في أفكار الخوارج و مبادئهم متنفسا لهم من النظرة العنصرية التي كانت تلاحقهم، و خاصة مبادئ المساواة و الديمقراطية التي لا تجعل الإمامة والحكم حكرا على العنصر الأبيض من القرشيين كما كان على عهد بني أمية، لذلك كان إقبال العنصر الأسود كبيرا على اعتناق المذهبين الاباضي و الصفري.

و كان لقيام دولتي بني مدرار الصفرية في سجلماسة سنة140هجرية، والرستمية بتيهرت سنة 162هجرية /779م دورا كبيرا في احتكاك السودان أكثر بهذا المذهب بسبب الموقع الجغرافي لكل من سجلماسة عاصمة المدراريين (بنو واسول)، و تيهرت عاصمة الرستميين، و الذي جعل منهما محطتين هامتين لطرق القوافل التجارية الرابطة بين شمال الصحراء الكبرى وجنوبها. بحيث نشطت

تجارتهما مع السودان الغربي، و كانت هذه التجارة المتصلة قد حملت معها الإسلام والتعاليم الخارجية إلى ما وراء الصحراء.

فكان التجار القادمين من تيهرت إلى جانب أعمالهم التجارية يقومون بالدعوة إلي الإسلام ، وقد ارتبطت التجارة مع انتشار الإسلام في غرب إفريقيا حيث أصبح من العسير معها وضع حد فاصل بين الدور الذي قام به التجار من جهة وبين دور العلماء ودعاة الإسلام من جهة أخرى ، ويتضح ذلك من تتبع سير الإباضية الذين كانوا يمارسون التجارة يمارسون التجارة على نطاق واسع مع غرب إفريقيا منذ القرن الثاني للهجرة.

و قد أدى استقرار الإباضية على أطراف الصحراء في واحات فزان وجبل نفوسه وغدامس وواحات الجزائر منذ القرن الثاني للهجرة إلي ارتباطهم القوي بتجارة الصحراء ، وعزز ذلك الارتباط اعتناق مجموعات من قبيلتي هوارة وزناتة للمذهب الاباضي، وتخصص كثير منهم بالتجارة عبر الصحراء فوصلوا إلى بلاد كوكو(جاو) ، حيث تذكر المصادر التاريخية أن مخلد بن كيداد أو أبا بزيد (الملقب بصاحب الحمار) زعيم الثورة الخاجية ضد الفاطميين، كان أبوه يتردد على التجارة إلى بلاد السودان، إذ اشترى أمة(جارية) من مدينة تادمكة تسمي سبيكة، و لما حملت منه و لدت له أبا يزيد الذي كان أعرجا و في لسانه شامة، فأخذه أبوه إلى مدينة كوكو(جاو)، و قدمه إلى أحد زعمائها الدينيين(عرّافا) حيث تنبأ له هذا الأخير بأعلى المراتب و الملك. و هو ما يبين بأنه حتى الخوارج الصفرية كانت لهم جالية هناك، ثم توسعت تجارة الصحراء بقيام الدولة الرستمية الإباضية بتيهرت عام 163هـ، فقد أشرفت هذه الدولة على المنطقة الصحراوية ما بين سجلماسة (جنوب المغرب الأقصى) وزويلة التي دخلت ضمن دائرة نفوذها.

و خلال منتصف القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد قامت هناك مدينة مهمة في جنوب الصحراء شمال شرق منحنى نهر النيجر، و التي عرفت حركة تجارية نشيطة بينها و بين تيهرت وورقلة، و هي مدينة تادمكة التي أصبح يؤمها التجار من شمال إفريقيا، و تحولت فيما بعد إلى محطة

هامة لأصحاب المذاهب خلال جهودهم الدعوية في السودان الغربي، خاصة و أن معظم المدن التي تشرف على المداخل الصحراوية إلى بلاد السودان سيطرت عليها الجماعات الخارجية. فقد كانت درعة في يد الخوارج الصفرية، وكان أهل زويلة كلهم إباضية حسب اليعقوبي. كما وجد بالسُّوس ودرعة بعض الشراة الخوارج.

وكان شيوخ الاباضية الرستميين يتوافدون على بلاد السودان في تجارة متصلة حسبما تفيدنا به مصادرهم، فيذكر ابن الصغير بأن الإمام أفلح لما كان صغيرا عزم على السفر إلى جاو بغرض التجارة لكن أباه منعه من ذلك كعقاب له على فشله في الإجابة على سؤال فقهي يتعلق بالربا. وذكر الشماخي في كتاب السير أن أحد شيوخ و علماء الاباضية يدعى أبا صالح كان يسافر إلى غانة بغرض التجارة، وأن شيخا آخر يدعى أبا موسى هارون بن أبي عمران استقر في مدينة غيارو المشهورة بالذهب إلى غاية وفاته.

و قد ساهم هذا التوافد المبكر و النوعي لجماعات الخوارج الاباضية بالسودان الغربي في اعتناق الكثير من مسلمي السودان الأوائل لمذهبهم، فلما زار ابن بطوطة إمبراطورية مالي خلال فترة حكم منسا سليمان وجد بها قرية صغيرة يسكنها تجار السودان يسمون ونجراتة (أو الونغارا) ، و يسكن معهم جماعة من البيضان يتمذهبون بمذهب الاباضية من الخوارج، و يسمون صغنغو(. وربما انتقل هذا المذهب إلى المناطق الجنوبية للسودان الغربي و خاصة إلى منطقة الغابات أين كان التجار الونغارا السوننكي والديولا المالنكي ينشرون الإسلام وسط سكان الغابات إلى جانب تجارة نواة الكولا.

يظهر إذن بأن تأثير التجار الاباضيين كان واضحا في اعتناق أهل السودان المذهب الاباضي، لكننا نرى بان تأثيرهم كان مقتصرا على الفترات الأولى لدخول الإسلام إلى المنطقة، و كان حكرا على عدد محدود من السودان، و هم طبقة التجار بالدرجة الأولى بحكم احتكاكهم الدائم بهم، بينما لم يبق في عهد ابن بطوطة(القرن الثامن للهجرة) إلا بعض البيضان(ذوو البشرة

البيضاء) الذين يكونوا من أحفاد أولئك التجار الاباضيون الذين استوطنوا بلاد السودان خلال القرنين الأول و الثاني للهجرة.

لم تشر المصادر إلى وجود المذهب الخارجي خلال الفترات المتأخرة من تاريخ السودان الغربي، و خاصة بعد ظهور مملكة مالي التي عمل ملوكها من عائلة كيتا على رفع راية المذهب المالكي السني عاليا في سماء السودان الغربي، و اندثرت أمامهم بقية المذاهب الأخرى، باستثناء ما شهدته إمبراطورية سنغاي من أعمال قام بها ملكها سني علي (أو بر علي)، من قتل للعلماء و الصالحين و سفك لدماء المسلمين و استباحة دماهم و سبي نسائهم، و الذي وصفه عبد الرحمان السعدي بالخارجي. و لكننا لا نعلم إن كان السعدي يقصد بكلامه اعتناق الملك سني علي للمذهب الخارجي فعلا، أم أنه مجرد تشبيه بتصرفات الخوارج المتطرفين كالأزارقة و النجدات و غيرها.

وبالرغم من ذلك يبقى دور الخوارج و خاصة الاباضية منهم مهما جدا في التاريخ الاقتصادي و الديني لممالك السودان الغربي، فبفضلهم عرف أهل السودان الإسلام، وعن طريقهم كانت موجة اعتناق الإسلام الأولى في صفوف السودان، فقد أورد لنا البكري قصة ملك ملل(مالي) و هو المسلماني الذي أسلم على يد أحد الفقهاء المقيمين عنده، و الذي نرجح أن يكون من المشايخ الاباضية، لأننا نجد في المصادر الإباضية رواية مشابهة لرواية البكري لكنهم ينسبون أحداثها لأحد أئمتهم و هو علي بن يخلف، إلا أنهم يقولون بأنها حدثت مع ملك غانة و ليس مع ملك مالي. و هذا يعود ربما إلى كون مالي كانت مملكة صغيرة تابعة خلال الفترة التي جرت فيها الأحداث إلى إمبراطورية غانة، و لم تكن قد تأسست الإمبراطورية بعد. كما أن مملكة غانة كانت مشهورة لديهم بحكم العلاقات التجارية و الدبلوماسية التي كانت تربطها بهم. فابن الصغير يذكر بأن الإمام الرستمي أفلح بن عبد الوهاب أوفد سفيرا إلى ملك السودان يدعى محمد بن عرفة حاملا معه هدية[1].

(1) أخبار الأئمة الرستميين، ص81.

و رغم أن ابن الصغير لم يذكر اسم الملك السوداني لكن فترة حكم الإمام أفلح بن عبد الوهاب (180و220هجرية/796 و 844 ميلادية) توافق فترة وجود إمبراطورية غانة كأعظم دولة في السودان الغربي بينما لم تكن قد ظهرت بعد مملكة مالي، و هو ما يجعلنا نميل إلى القول بأن الملك الذي زاره الإمام الرستمي علي بن يخلف هو ملك مالي وليس ملك غانة كما تذهب إليه المصادر الاباضية.

ولقد برز فقهاء الاباضية في ميدان الدعوة بفضل سلوكهم الحضاري الذي أدهش التجار السودانيين و ملوكهم، فقد كانت أخلاقهم الطيبة و حسن معاشرتهم و صدقهم وأمانتهم، تمثل أفضل دعاية للإسلام و للمذهب الاباضي الذي يمثلونه، و هو ربما السبب الذي جعل هذا المذهب يبقى مقتصرا على مناطق تواجد التجار الاباضية دون سواها. وكان تأثيرهم يشمل جوانب العبادات من شهادتين و صلاة و زكاة و حج، دون الجوانب المذهبية التي تخص رأيهم في الإمامة، أو نظرتهم لمن هم على غير ملتهم من المسلمين، وهذا بسبب عدم معرفة السودان بالإسلام من جهة، بحيث لم يكونوا قد استوعبوا بعمق الأركان الخمسة للإسلام ولا يحسنون اللغة العربية كتابة وقراءة، فما بالك باستيعاب الأنساق المذهبية المعقدة كتلك التي يعتنقها الخوارج، و من جهة أخرى طبيعة نشاط أولئك الدعاة الذين كانوا في الأصل تجارا كان همهم الأول الحصول على الأموال الكافية عن طريق التجارة لمواصلة الحرب ضد خصومهم وخصوصا الشيعة، و بالتالي لم تكن للمسائل المذهبية أولوية في دعوتهم.

ومن العوامل التي تبدو أنها ساهمت أيضا في عدم انتشار المذهب الخارجي على نطاق واسع في بلاد السودان و اندثاره فيما بعد، هو لجوء دعاتهم إلى اعتماد أسلوب التقية والكتمان في عملهم بسبب انهزامهم أمام حركة أبو عبيد الله الداعي الفاطمي ثم فشل ثورات كل من أبي يزيد مخلد بن كيداد (صاحب الحمار) سنة 336هـ، و أبي خزر يعلى بن زلتاف سنة 358هـ.

وبالإضافة إلى دورهم الديني في نشر الإسلام، فقد ساهم الخوارج بجانب كبيرا في الجانب الاقتصادي بحكم ممارستهم للتجارة الصحراوية الرابطة بين مدن المغرب الإسلامي و بلاد السودان، خاصة بعدما تحالف الخوارج الاباضية بتيهرت و الصفرية بسجلماسة على احتكار التجارة مع السودان إلى درجة أصبح فيها من الصعب التفرقة بين الاباضية و الصفرية[1]. كما وجد عدد كبير من تجار جبل نفوسة الخوارج في المراكز التجارية السودانية كأودغست رغم معارضتهم لعبد الرحمان بن رستم و ابنه عبد الوهاب من بعده.

فلقد تميزت تيهرت منذ تأسيسها في أواخر القرن الثاني للهجرة بتجارتها مع بلاد السودان، كما جلب الرستميون تجار مصر و افريقية إلى عاصمتهم، التي عرفت ازدهارا كبيرا حتى أصبحت تسمى بالبصرة الصغيرة، بالإضافة إلى سجلماسة التي عاصرتها و التي كان أئمتها من بني مدرار يوسعون نفوذهم حتى بلغوا السوس الأقصى تلعب نفس الدور التجاري، و بالتالي شكلت الدولتان الخارجيتان (التي جمعت بينهما صلات عائلية) إمبراطورية تجارية تسيطر على جميع الطرق التجارية القادمة من الجنوب.

و استمرت سيطرة الخوارج على التجارة الصحراوية إلى غاية القرن الثالث للهجرة أين بلغت أوجها، لكن بعد ظهور الدولة الفاطمية في أواخر القرن الثالث للهجرة(296هـ/909م) بدأت مرحلة الانهيار للخوارج، و بالتالي فقدت دورها التجاري خاصة بعدما تحول أهل تيهرت وسجلماسة إلى المذهب السني.

بعد انهيار دول الخوارج في المغرب الإسلامي و أطراف الصحراء تحت ضربات أبي عبيد الله الشيعي، و تفرق أهل تاهارت و سجلماسة في واحات الصحراء، ثم انتهاج الزيريين نفس البطش ضد الخوارج في المغرب الأوسط، قامت هناك ثورتان خارجيتان بقيادة كل من مخلد بن كيداد، و أبي خزر بن زلتاف خلال القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد لكنهما منيتا بالفشل، لذلك لجأ

(1) **عز الدين عمرو موسى**، دراسات إسلامية غرب افريقية، مرجع سابق، ص56.

الاباضيون في الواحات الصحراوية إلى العمل السري، أو ما يعرف بدور الكتمان الذي استعملوا فيه التقية كأسلوب لعملهم.

و يبدو أن النكسة التي أصابت المذهب الخارجي في شمال الصحراء قد انعكس سلبا على نشاطه في بلاد السودان، حيث لم يعد دور التجار ولا الدعاة الخوارج مسموعا خلال القرن الخامس للهجرة/11م، بالإضافة إلى نشاط حركة المرابطين السنية التي سيطرت على الصحراء و حتى منطقة نهري السنغال و النيجر، فإن الجاليات الخارجية المتمركزة في المراكز التجارية الكبرى لم تعد تملك ذلك الدعم الذي كانت تتلقاه من حكومات تيهرت و سجلماسة قبل ذلك.

لكننا إذا أردنا أن نكون أكثر واقعية فإنه لا يجب علينا أن ننكر وجود بقايا الجاليات الاباضية في السودان الغربي إلى غاية القرن الثامن للهجرة/14للميلاد، حيث يذكر الرحالة المغربي ابن بطوطة بأنه وجد بمملكة مالي في قرية زاغزي التي كان يسكنها التجار السوننكي من الونغارا، جماعة من البيضان(أي من الجالية البربرية) يتمذهبون بالمذهب الإباضي و يعرفون بصغنغو.

و رغم أننا لم نصادف أي مصدر آخر تكلم عن وجود المذهب الاباضي في مملكة مالي باستثناء ابن بطوطة، إلا أن المؤرخ المغربي عبد الرحمان السعدي ذكر بأن ملك سنغاي و سن علي(أو بر علي) الذي اعتلى عرش مملكة سنغاي سنة 869 هجرية كان خرجي المذهب. و هو ما يؤكد بأن تأثير الخوارج في بلاد السودان بقي متواصلا حتى أثناء فترة الكتمان لكنه كان محدودا جدا.

ثانيا: المعتزلة (الواصلية):

إن الشيء الأكيد هو أن الطريق الذي سلكته المعتقدات الاباضية و الخارجية سلكته معتقدات ومذاهب أخرى، حيث تكون الواصلية[1] قد عرفت الطريق المؤدية إلى السودان الغربي منذ وقت

(1) ينتسب الواصلية أو المعتزلة إلى أبي حذيفة واصل بن عطاء الغزال، وهو تلميذ للحسن البصري، وأهم ما جاء به هو نفي بعض الصفات عن الله مثل العلم و القدرة و الإرادة و الحياة، كما اشتهر بقضية المنزلة بين منزلتين أي أن صاحب الكبيرة لا

مبكر، حيث ظهرت الواصلية بجبل نفوسة على أيدي بعض بربر زناته في فترة حكم الإمام الرستمي عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم و استغلوا فرصة افتراق الاباضية[1]بعد وفاة عبد الرحمان بن رستم و ثاروا ضد تيهرت و أنكروا إمامة عبد الوهاب هم أيضا، فبعث إليهم من يناظرهم ثم حاربهم. كما ذكر ابن حوقل خلال القرن الرابع للهجرة/10م بأنه يوجد في كثير من البرانس المقيمين في السوس و أغمات و فاس و إلى غاية سجلماسة أناسا متدينين ورأى في بعضهم بالعلم و الاعتزال، حيث لقي بنواحي زناته نفرا من أصحاب واصل بن عطاء.

يمكن بذلك أن نقول بأنه في وسط التجار الاباضية والسنة الذين كانوا يجوبون الصحراء بغرض التجارة و الدعوة وجد بينهم دعاة و علماء من الواصلية، خاصة بعدما تحالف معهم الاباضية و الصفرية في التجارة الصحراوية المؤدية إلى بلاد السودان و ذلك من أجل التصدي للتجار السنيين.

فبدون شك يكون التجار المعتزلة قد حملوا معهم بعض معتقدات الاعتزال إلى بلاد السودان، لكن يبدو أنهم لم يتمكنوا من نشر مذهبهم في أوساط السودانيين و ذلك لعدة اعتبارات هي:

إن الفترة التي تواجد فيها المعتزلة في أطراف الصحراء و في المراكز التجارية المؤدية للسودان، وهي بين القرنين الثاني و الرابع للهجرة لم يكن الإسلام قد انتشر بعد في بلاد السودان الغربي، إذ أن أول ملك من ملوك مالي أسلم و هو برمندانة (المسلماني) كان خلال القرن الخامس للهجرة، و ملك التكرور واردیابي لم يسلم إلا في سنة في432هـ/1040م[2].

=هو مؤمن مطلقا و لا هو كافر مطلقا. (الشهرستاني(أبو الفتح محمد بن عبد الكريم): الملل، 1402هـ/1982ميق:محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان،1402هـ/1982م، الجزء الأول، ص48.

(**1**) بعد وفاة عبد الرحمان بن رستم اختلف الناس من بعده حول من يخلفه في الإمامة، فانقسم الاباضية إلى قسمين، قسم يتبع عبد الوهاب بن عبد الرحمان و يدعو إلى مبايعته خلفا لأبيه ، و قسم أنكر بيعة =عبد الوهاب، و يقودهم عيسى بن فندين و لقبوا بالنكارية لإنكارهم بيعة عبد الوهاب، و دخل الفريقان في صراع عرف في تاريخ الاباضية بالافتراق الاباضي الأول.

(**2**) **البكري**، المصدر السابق، ص 172.

كما أن سيطرة المرابطين على الصحراء الكبرى و تجارتها خلال القرن الخامس للهجرة تزامن مع سيطرتها السياسية على المنطقة عن طريق ثورتهم المالكية السنية التي لم تترك المجال لأي دعوة أخرى تنافسها، فالحركة المرابطية انطلقت من الصحراء و أغلب نشاطها كانت الصحراء ميدانا له، لذلك لم يكن ممكن لدعاة المعتزلة أن ينافسوا هذا السيل الجارف.

ثالثا: الشيعة في السودان الغربي:

لقد حكم الفاطميون (وهم شيعة إسماعيلية) المغرب مدة نصف قرن، حيث استطاعوا أثناء فترة حكمهم المغربية أن يربطوا علاقات تجارية و غيرها مع بلاد السودان الغربي وملوكها، حيث استفاد الفاطميون كثيرا من تجارة السودان التي ساهمت قوافلها في إثراء خزينتها إذ بلغت جباية الضرائب على تجارة القوافل الآتية من السودان خلال القرن الرابع للهجرة أربعمائة دينار سنويا. كما أن المعز لدين الله الفاطمي لما عزم على توجيه حملته إلى مصر رصد أموالا كان مجموعها حوالي أربعة و عشرين مليون دينار كان قد جلبها من بلاد السودان. كما وردت في بعض المصادر السودانية أن أحد ملوك الكانم بالسودان الأوسط يسمى حوا (حكم بين 457 و 460هـ/1064 و 1067م) قد تلقى رسالة مباركة من طرف الخليفة الفاطمي بالقاهرة و الذي قد يكون المستنصر.

فالفاطميون إذن كانت لهم اتصالات و علاقات قوية مع بلاد السودان فيما وراء الصحراء، وهو ما يجدر به أن يترك أثرا مذهبيا في تلك الأراضي، وقد ذكر البكري(كتب مؤلفه خلال القرن الخامس للهجرة) بأنه في بلاد السودان وجدت قرية على ضفاف نهر السنغال تسمى بوغرات يسكنها قبيلة من بربر صنهاجة ، و قد أخبره الفقيه أبو محمد عبد الملك أنه رأى في بوغرات هذه طائرا يشبه الخطاف يفهم من صوته كل سامع إفهاما لا يشوبه لبس كلمة (قتل الحسين) يكرر هذه الكلمة تكرارا ثم يقول (بكربلاء) مرة واحدة[1].

(1) **البكري**، المصدر السابق، ص181.

فهذه الرواية التي نقلها المؤرخ الأندلسي عن أهل بوغرات و فقهائها إنما تدل على وجود التأثير الشيعي في بلاد السودان خلال القرن الخامس للهجرة، لكن ذلك كان بعد رحيل الفاطميين إلى مصر، و باستثناء هذه الإشارة التي زودنا بها صاحب كتاب المغرب، فإننا لم نجد في المصادر الأخرى المعاصرة له أو التي جاءت بعده ما يشير إلى المد الشيعي في بلاد السودان إلى غاية العصور الحديثة، و ذلك على يد جماعة من الباكستانيين والهنود الذين يعتبرون الجالية الشيعية الوحيدة فيها.

ويمكن أن نحصر سبب فشل انتشار المذهب الشيعي في بلاد السودان الغربي في المعارضة التي شكلها الخوارج في المغرب الإسلامي ضد الشيعة و التي مثلت حركة مخلد بن كيداد، والذين لم يكتفوا بمقاومة المذهب الشيعي هناك فقط بل حالت دون انتشاره باتجاه الجنوب، حيث لما أجبر الخوارج الصفرية على الفرار نحو الصحراء بفعل ضربات الفاطميين اتخذوا غدامس و فزان وسدراته ملاجئ آمنة لهم و مستقلة عن نفوذ الفاطميين مما مكنهم من ربط علاقات وثيقة مع دول جنوب الصحراء، و شكلوا معاقل خارجية امتدت على طول الحواف الشمالية للصحراء ،أصبحت بمثابة سدا منيعا في وجه المد الشيعي نحو السودان الغربي.

و بالتالي يكون الخوارج قد عوضوا هزيمتهم على أيدي الفاطميين بالمغرب الإسلامي خلال القرن الرابع للهجرة بحضورهم المكثف و القوي في الصحراء الغربية و السودان الغربي إلى حين انتشار المذهب السني المالكي منذ القرن الخامس.

رابعا: المذهب المالكي و عوامل تفوقه بالسودان الغربي:

رغم أن الخوارج كانوا أول من عرف أهل السودان الغربي بالإسلام ، و رغم أن دعاتهم هم من رفعوا راية الإسلام الأولى بين طبقة التجار و الحكام في ممالك إفريقيا الغربية، إلا أن المذهب السني هو الذي ساد في آخر المطاف، فقد أكد ابن خلدون هذا الأمر بقوله: ((وأما مالك رحمه الله فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس وإن كان يوجد في غيرهم، إلاّ أنهم لم يقلدوا غيره إلاّ في القليل)).

و يبدو أن انتشار المذهب المالكي و تفوقه على بقية المذاهب الأخرى في السودان الغربي قد تأثر كثيرا بالحركة المرابطية التي ظهرت خلال القرن الخامس للهجرة/11م. ذلك أن عبد الله بن ياسين الذي نشر الدعوة المرابطية في الصحراء الغربية و بلاد السودان الغربي كان سنيا مالكيا، فهو تلميذ الشيخ وجاج بن زللو اللمطي الصنهاجي الذي تخرج من جامعة القيروان عاصمة المذهب السني المالكي في المغرب الإسلامي.

وقد تميز عبد الله بن ياسين بالتشدد في الدين و عدم التسامح مع المخالفين أو المتهاونين مع فروض الشريعة[1]، وقد استندت أحكام مذهبه إلى الشريعة الإسلامية المأخوذة عن الإمام مالك بن أنس[2].

أما العامل الآخر الذي ساهم في انتشار المذهب المالكي في إفريقيا الغربية فهو رحلات الحج التي كان يقوم بها مسلمو السودان إلى ارض الحجاز، ذلك لأن المجتمع السوداني خاصتهم وعامتهم يعتبرون أن كل ما جاء من مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، من أمور دينية وفقهية هو الحق المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولذا تعلقوا بالمذهب المالكي وتشبثوا به ولم يبغوا عنه بديلاً. لذلك وجدنا إقبال ملوك مالي ممن حجوا إلى مكة على جلب معهم كتب الفقه المالكي، فلقد جلب ملك مالي الشهير منسا موسى عند عودته من الحج الفقهاء و الكتب على مذهب الإمام مالك.

ولما حج أخوه من بعده الملك منسا سليمان سنة751 هـ/ 1351م، قرر استغلال فرصة تواجده بمصر لشراء عدد من الكتب لتدعيم مكتبات الإمبراطورية، و خاصة تلك الموجودة بمدينة تمبكتو و ذلك لتعويض ما خربه و حرقه الموسي خلال هجومهم عليها، فكانت الكتب التي جلبها تضم كتب المذهب المالكي.

وقد ساهم التبادل الثقافي الذي حدث بين بلدان دول السودان الغربي و دول المشرق الإسلامي دورا مهما في نشر المالكية فيما وراء الصحراء، حيث حرص ملوك مالي و سنغاي على نقل الإسلام الصحيح إلى بلادهم و نشره بين شعوبهم و ذلك من خلال إرسال الطلبة الأفارقة إلى جامعات الحجاز،القاهرة، فاس و تلمسان من أجل تعميق معارفهم الدينية و يمكن أن نذكر منهم الشيخ العالم أبو محمد يوسف بن عبد الله التكروري الذي درس في الأزهر بمصر و بقي يلقن ما

تعلمه إلى غاية وفاته، لهذا قام المصريون بمكافأته على مجهوداته في التعليم ببناء قبة قرب ضريحه ومسجد سمي بمسجد التكروري. و يمكن أن نذكر أيضا الشيخ ابن صبيح بن عبد الله التكروري الكلوتاتي، رشيد عبد الله التكروري، عبد الملك بن علي الكانمي، وغيرهم، وبدون شك فإن هؤلاء العلماء يكون قد تلقوا علمهم الشرعي وفق المذهب المالكي بما أن تلك الجامعات تعد مراكز علمية سنية، وشيوخها الذين نهلوا منهم العلوم الشرعية كانوا سنيين و مالكيي المذهب.

وعموما فإن المذهب السني المالكي أصبح هو المذهب الرسمي للدولة المالية ، ومعتنقيه يدعون "توري" بلغة المالنكي، فخلال وصول منسا موسى إلى القاهرة أثناء رحلته إلى الحج سنة 724هـ/1324م، أرسل السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون المهمندار في طلبه، وطلب منه السجود و تقبيل الأرض رفض منسا موسى ذلك وقال للترجمان الذي كان يكلمه:« أنا مالكي المذهب، ولا اسجد لغير الله ».

ونشير إلى أنه رغم تردد منسا موسى على مصر، والعلاقات التي كانت تربطه بعلمائها وملوكها، إلا أنه لم يتأثر بالمذهب الشافعي الذي ك ان مذهب المماليك بمصر، وهو ما يفسر بمدى تأثير العلماء والفقهاء المغاربة في الثقافة الدينية لمالي، ومدى تمسك ملوك مالي بالمذهب المالكي، بالإضافة إلى محاولة إظهار استقلالهم عن مصر، بينما لم تتكلم المصادر عن أي أثر للمذهب الشيعي في مملكة مالي.

ولقد كان تأثير المذهب المالكي واضحا في الحياة اليومية لسكان السودان الغربي، فقد كان شيوخ و قضاة مملكة مالي أمثال القاضي الحاج جد القاضي عبد الرحمان بن أبي بكر بن الحاج الذي تولى القضاء بتنبكتو في أواخر مملكة مالي، والقاضي الفقيه محمد الكابري، والقاضي عمر الذي كان قاضيا بتنبكتو أيام الحاج أسقيا ملك سنغاي، وكذا القاضي أبو عبد الله أند غمحمد بن الفقيه المختار النحوي بن أند غمحمد إمام مسجد سنكري، وغيرهم كلهم على مذهب الإمام مالك و يحكمون بفقهه. كما ظهر التأثير المالكي في عبادات أهل السودان الغربي في الصلاة، كالإسبال بعد تكبيرة الإحرام، والنوافل مثل تحية المسجد وغيرها.

وعموما فإنه رغم انتصار المذهب السني المالكي في السودان الغربي، فإن تواجد المذاهب الإسلامية الأخرى في هذه المنطقة كان في وقت مبكر، وهو ما يبين الارتباط العميق بين بلاد السودان الغربي و بقية العالم الإسلامي الذي أصبح جزء منه، فكانت الحياة المذهبية في المشرق و المغرب الإسلاميين تلقي بظلالها على بلاد ما وراء الصحراء، فكانت المذاهب الإسلامية تجوب الصحراء مع التجار والفقهاء كما جابت سلع المشرق والمغرب أسواق تنبكتو، جاو، أودغست، تادمكة، جني وغيرها من أسواق السودان مثلما انتقل التصوف واللغة العربية وغيرها من مظاهر الحياة الدينية والثقافية والعلمية الإسلامية.

المبحث الرابع

دور علما الجزائر في نشر الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء

تعد منطقة الساحل الافريقي أو ما يعرف بالشاطئ الجنوبي للصحراء الكبرى منطقة تماس بين شعوب الصحراء و شمالها مع شعوب الغابات الافريقية مما جعلها تستقطب مختلف التيارات البشرية القادمة من الشمال، و معها ثقافاتهم و لغاتهم و عاداتهم و تقاليدهم و حتى نظمهم السياسية، فامتزج النم الحضاري السوداني الاصيل بالمؤثرات الشمالية.

و لقد كانت شعوب شمال افريقيا اكثر الشعوب احتكاكا بشعوب منطقة الساحل بفعل العوامل الجغرافية و التاريخية فكان التواصل الحضاري بين هذه الشعوب مثمرا من الناحية الاقتصادية و الثقافية و الحضارية عموما. و لقد كانت الجزائر حاضرة في هذه الحركية بشكل مكثف منذ القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد بفعل اهتمامات الائمة الرستميين بالتجارة الصحراوية، ثم استمر هذا التواصل في العصر الحديث ليأخذ شكلا اكثر نضجا و تأثيرا بفضل حركة الدعاة و العلماء والتجار و المتصوفة الجزائريين الذين كان دورهم متعدد الجوانب، و أثرهم اكثر عمقا في مجتمعات الساحل وما جاورهم.

لهذا سنحاول من خلال هذه الدراسة الكشف عن دور علماء الجزائر في منطقة الساحل الافريقي وتحليل أثرهم في المنطقة و كذا المعوقات التي صادفت هذا الدور بعد ذلك.

أولا: مجهودات علماء الجزائر في نشر الاسلام و ثقافته منطقة الساحل:

خلافا لفترة العصور الوسطى فإن مراكز الاشعاع الحضاري و النشاط الاقتصادي في الجزائر انتقلت من تيهرت و بجاية في الوسط المناطق الغربية و الجنوبية الغربية بسبب ظهور خطر قبائل بني هلال و تغير جغرافية المسالك نحو الغرب، بالإضافة الى بروز اهمية ممالك الهوسا و مملكة سنغاي في عهد الاسقيين التي جعلت من اقليم توات و تادمكة و الآير نقاط عبور ضرورية لأي حركة بشرية، وحول تلك المراكز الغربية نقاط اشعاع علمي انطلقت منه مؤثرات علماء الجزائر نحو حواضر الساحل كتنبكتو و جاو.

ثانيا: دور علماء توات في منطقة الساحل:

تعد منطقة توات من المدن الجنوبية الغربية للصحراء الجزائرية، و هي تابعة اليوم لولاية ادرار الجزائرية. و لقد كان لنخبة هذه المدينة دور كبير في الحركة العلمية في منطقة الساحل، و ذلك بحكم الموقع الجغرافي، والعامل التاريخي، حيث جعل منطقة توات على اتصال مستمر بأهم الحواضر العلمية في بلاد الساحل كتنبكتو، و جاو، و اودغست، إذ كانت توات تشكل منطقة عبور رئيسية لقوافل التجارة والحج القادمة من بلاد السودان، و المتجهة نحو دول المغرب الاسلامي او المشرق[1]. كما ساهمت الهجرات المتدفقة من اقليم توات نحو بلاد الساحل دور في نقل الاسلام و التصوف والزوايا و ما ترتب عنها من حركة التعليم و نشر العلوم الدينية، دون اغفال دور تجار توات في مد مناطق صحراء إفريقيا بالأفكار والتعاليم الإسلامية.

(1) **نور الدين شعباني**، دور عائلة كيتا في مملكة مالي الاسلاميةمرجع سابق، ص192.

لهذا فلقد تحدث السعدي خلال القرن السابع عشر للميلاد/11هجري، عن وجود حوالي خمسين(50) رجلا من اهل توات الصالحين كانوا مدفونين في تلك الفترة بمدينة تنبكتو[1]. حيث اخبرنا بان هناك عدد كبير من العلماء والصالحين التوتيين الذي كانوا في مدينة ولاتة التي ازدهرت قبل مدينة تنبكتو ثم انتقلوا الى تنبكتو بعدما ازدهرت هذه الاخير في عهد الأاسقيا . ومن اشهر هؤلاء العلماء والصالحين القادمين من توات، و الذين كان لهم اثر بالغ في الحياة العلمية في حاضرة تنبكتو نذكر الفقيه العلامة ابي زكريا يحي بن يدير بن عتيق التادلسي (توفي سنة 877هجرية، قاضي توات، و الذي اخذ العلم عن الامام ابن زاغو و غيره، كما تتلمذ عليه الامام محمد بن عبد الكريم المغيلي، ومنهم ايضا العالم سيدي مولاي زيدان، و العالم الحاج احمد بلحاج الامين الملقب بالحاج الغلاوي الذي كان يشرف على ركب الحجيج في بلاد التكرور.

و لقد كان التواتيون يتوافدون علىتنبكتو و جني من اجل النشر الاسلام والتعليم في مساجدهم، كما قربهم سلاطين هذه الحواضر من اجل الافتاء فاغدقوا عليهم بالرواتب و العطايا، فتركوا اثارا عظيمة من مخطوطات و رسائل و تصانيف. كما عكف علماء توات على نشر اللغة العربية التي اصبحت بفضل التجار التواتيون لغة التخاطب في منطقة الساحل كتنبكتو و جاو وحتى كومبي صالح العاصمة القديمة لمملكة غانة الاسلامية، و اصبحت ايضا لغة التدوين ايضا.

و لقد بلغت سمعة علماء توات الى غاية السودان الاوسط أو ما يعرف بالسودان التشادي، حيث تتحدث بعض المصادر عن طلب أحد ملوك بورنو و هو كادي(1440 ـ 1447م) من علماء توات ليرسلوا الى بورنو بعثات علمية تواتية، خاصة بعدما سيطر اليهود على التجارة في توات و لم تعد تقصد قوافلهم مملكة بورنو، بحيث بعث الملك البوربي المذكور رسالته الى علماء توات على كل شكوى ليحاول استلطافهم.

(1) **عبد الرحمان السعدي**، مصدر سابق، ص128.

كما عرفت تنبكتو وجود عدد من أئمة المساجد التواتيين منهم ابي القاسم التواتيإمام جامع تنبكتو الذي يعد اول من ابتدأ قراءة الختمة في المصحف بعد صلاة الجمعة سنة 102هـ/1611م، وقد ابتنى محضرة في قبالة المسجد يعلم فيها القرآن للأطفال، وكان الاسقيا الحاج محمد توري يصلي وراءه ويطلب دعاءه، وحينما توفي في تنبكتو عام 1516م.كما كان للتواتيين بتنبكتو مسجدا خاصا بهم بني سنة 1776م/1190هـ، و هناك من يقول قبل ذلك،و لقد بناه الشيخ محمد علي التواتي القادم من بلدة تواتمع جماعة من قومه ، حيث تذكر الروايات سبب بنائه وقوع خلافات دينية بينه وبين بعض اهالي تنبكتو.

لكن الدور الكبير الذي مارسه علماء قبائل توات الجزائرية في منطقة الساحل و بالخصوص في تنبكتو، يبقى بدون منازع من طرف شيوخ الصوفية، و على راسهم شيوخ الطريقة القادرية البكائية، التي انشاها الشيخ سيدي احمد البكاي الكونتي من قبيلة كونته الصحراوية الذي عاش خلال القرن التاسع للهجرة/15م، و حمل راية الاسلام ونشره في صفوف القبائل السودانية في منطقة الساحل، و بعده تمسكت قبيلة كونته بهذا الدور خاصة في عهد ابنه الشيخ عمر.

و يؤكد المؤرخ الفرنسي بول مارتي بأن الرسالة التي ارسلها ملك بورنو الملقب بـ (كادي) او (كانديي) سابق الذكر الى علماء توات كانت موجهة الى الشيخ عمر الكونتي يدعوه فيها و يدعو جميع احفاد الشيخ احمد البكاي الكونتي المقيمين في توات الى عدم التخلي عن تقاليدهم في التواصل مع مملكة بورنو، ويتساءل عن سبب حدوث تلك القطيعة، و لقد منحهم ملك بورنو امتيازات بعدم فرض اي اتاوة او ضريبة على اي شخص يحمل رسالة من طرف الشيخ عمر الكونتي[1] .كما عملت الاسر التواتية بدورها على نشر الطريقة البكائية في السنغال و منطقة فوتا جالون و اسسوا مراكز للطريقة في كنكان،و تمبو، و في بلاد المندينغ، و وصلت الى غاية غينيا).

(1)**Paul Marty**, Op.Cit,p23.

و لم يكتف الكونتيون بهذا الدور الديني بل انهم مارسوا دورا سياسيا ايضا في منطقة الساحل، حيث قام الشيخ أحمد البكاي الذي خلفه اباه الشيخ المختار الكونتي بالتفاوض بشان عقد اتفاق مع حاكم تنبكتو و امير الفلاتة الحاج عمر تال سنة 1844م. حيث كان التواتيون الكونتيون تجارا كبار، الى أن اصبحوا يراقبون و يحرسون جميع الطرق الصحراوية التي تؤدي الى تنبكتو، و كان الكونتيون يتمتعون بسلطة دينية كبيرة في جميع انحاء المنطقة منذ ان أدخل الشيخ سيدي مختار الكونتي الطريقة القادرية البكائية الى منطقة الساحل ،لهذا فلما استولى الفلاتة الذين كانوا يحكمون مسينا على تنبكتو سنة 1826 و كادوا أن يقضوا على تجارتها قضاء نهائيا من خلال ابتزازهم السكان الوثنيين و المسلمين دون استثناء وشملت عمليات النهب تجار توات و غدامس، مما دفع هؤلاء التجار الى الاستنجاد بالشيخ المختار الكونتي(1729 ـ 1830م) باعتباره زعيم الازواد وشيخ البكائيين الكونتيين، و له نفوذ كبير لدى بربر الصحراء، لهذا فلقد هب الشيخ المختار الكونتي لنجدة تجار تنبكتو و سياسيها، و رغم فشله في تحرير المدينة من ايدي الفلاتة لمكنه استغل فرصة وفاة أحمدو شيخو سنة 1845 م ليعقد اتفاق مع خليفته حول مصير سكان تنبكتو.

و لقد نص هذا الإتفاق الذي اشرف عليه الشيخ المختار الكونتي على ان تكون تنبكتو محمية من طرف دولة الحاج عمر تال بماسينا و لكنها تتمتع باستقلال داخلي و يدير شؤونها قاض من اهل تنبكتو، و لا ينقطع هذا العقد الا اذا رفضت تنبكتو دفع الضريبة للحاج عمر.

و رغم ان السلطة الاسمية في تنبكتو كانت بيد أحمدو لبو الثاني(زعيم مملكة حمد الله) الذي اعاد سلطة ماسينا على تنبكتو ، الأ أن السلطة الفعلية بقيت في يد قبيلة كونته و زعيمها سيدي احمد البكاي الكونتي الذي كانت هيمنته تمتد على كافة حوض النيجر، لهذا حاول ربط تحالفات مع البمبارا أعداء الحاج عمر تال و عرض عليهم تأييده المعنوي، كما تحالف مع احمدو لبو الثاني في حمد الله ، بينما كان هو يعرض السلم على الحاج عمر تال. و بهذا تمكن الشيخ احمد البكاي الكونتي من تجميع تحالف ثلاثي تمكن من الحاق هزائم قاسية بالحاج عمر تال الفوتي بين 1863م

و1864م، انتهى بفرار الحاج عمر الى كهف ديغمبيرةحيث توفي هناك سنة 1864م. لكن ابن اخيه التيجاني تمكن من امداده بجيش و الحق هزائم بالائتلاف خاصة بعد وفاة سيدي احمد البكاي الكونتي في شهر فيفري 1865م، حيث كان يشكل عماد ذلك التحالف فأعاد التيجاني سيطرته على ماسينا و تنبكتو.

كما تمكن أحمد البكاي بضمان امن الرحالة الألماني هنري بارث عندما زار تنبكتو سنة 1853م ووفر له حسن الاستقبال و الإقامة طيلة مكوثه بالمدينة و المقدرة بثمانية اشهر كاملة[1]، وهو ما يؤكد المكانة التي كان يتمتع بها الاوساط السياسية و الاجتماعية لمنطقة الساحل و حوض النيجر.

ثالثا: دور علماء تلمسان في بلاد السودان:

كانت تلمسان عاصمة الزيانيين تربطها علاقة صداقة و مودة بملوك السودان الغربي، وذلك منذ عهد ملك مالي المشهور منسا موسى، و كانت الدولتان المالية و الزيانية ترتبطان بعلاقات ثقافية، لما كانت تمثله تلمسان من مكانة ثقافية كمركز إشعاع علمي، حيث كان للنخبة التلمسانية دور كبير في نشر الاسلام و التعليم العربي الاسلامي في مملكة مالي و خاصة في عاصمتها نياني، حيث ذكر لنا ابن بطوطة أن رجلا من نخبة تلمسان يعرف بـ(ابن الشيخ اللبن)، يكون قد درس ملك مالي منسا موسى في نياني لما كان صغيرا، و احسن هذا العالم التلمساني في صغره بسبعة مثاقيل و ثلث، للملك منسا موسى و هو يومئذ صبي غير معتبر، كان يتعلم القرآن و علوم الدين عند هذا الشيخ بمالي. ولما كبر منسا موسى و أصبح ملكا، جاءه الشيخ التلمساني في خصومة فعرفه وقربه منه، و أعطاه عن ذلك سبعمائة مثقال ذهب و كسوة، و عبيدا و خدما و أمره أن لا ينقطع عنه[2].

---

(1)Paul Marty, Op.Cit,p86.

(2) **ابن بطوطة** ، الرحلة، مصدر سابق، ص690.

و في أواخر الدولة الزيانية، لما كانت الدولة تعيش ظروفا صعبة بعد سقط غرناطة وبداية التحرشات الاسبانية على السواحل المتوسطية ظهر العالم الفقيه الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي كان يمثل اشهر النخب التلمسانية حسبما وصفه ابن مريم بقوله:«...هو خاتمة المحققين الامام العالم المحقق الفهامة القدوة الصالح السني الحبر احد اذكياء العالم وافراد العلماء الفذين أوتوا بسطة في العلم و التقدم و النسبة في الدين»، و كان المغيلي يعيش نفس القلق الذي كانت تشعر بها النخبة التلمسانية خصوصا و العربية الاسلامية عموما بخصوص الظروف التي آلت اليها حالة المسلمين بعد سقوط الاندلس سنة 1492م، وكذا احتلال البرتغال لسبتة و مليلية المغربيتين سنة 1415م قبل ضمها لإسبانيا. وفي ظل حالة الضعف التي استشرت في صفوف المجتمع التلمساني و حتى الامراء و الملوك الذين انغمسوا في الصراعات و الملذات، وجد المغيلي نفسه امام مسؤولية تاريخية، و هي ان يهاجر بعلمه الى افريقيا التي كانت تشهد نهضة حضارية و بحاجة الى النخبة الاسلامية حتى ترسم لها طريق الاصلاح الصحيح و تعرفها بدينها.

و في طريقه الى بلاد السودان مر بمنطقة توات حيث وجد ان اليهود المتمركزين في هذه المنطقة قد سيطروا على تجارة القوافل الصحراوية و بلغوا من النفوذ الاقتصادي و السياسي ما مكنهم من شراء ذمم الحكام و القضاة هناك، كما انتشرت بيعهم و تعالت على مساجد المسلمين و هو ما اعتبره المغيلي خروجا عما هو مسموح به لأهل الذمة، لكن قاضي توات أبو عبد الله العصنوني عارضه، فكاتب المغيلي فقهاء الآفاق، ولما بلغه موافقة بعضهم قام مع أتباعه بهدم تلك البيعة، وألزم اليهود حدهم، وممن عارض موقف المغيلي فقهاء فاس، فحمل متاعه وارتحل إليهم يناظرهم، بعدها عاد الى توات اين خاض معركة تمنطيط ضد يهود توات ثم من توات توجه إلى السودان.

لما وصل المغيلي الى بلاد السودان الغربي كانت شهرته قد سبقته كعالم جليل، حيث عبر بمنطقة الآير في ارض الطوارق و منها الى بلاد الهوصا بنيجيريا حيث استقر بمنطقة تيقيدا التي كانت محطة تجارية و نقطة التقاء القوافل و ارض العلم و الثقافة فاشتغل بالتدريس والوعظ و الارشاد

هناك، بعدها انتقل الى كانو اين التقى بملكها المصلح محمد رمفة فطلب منه طريقة الحكم الاسلامي فكتب له رسالة حول ما يجب على الامير من حسن النية للامارة و منها الى كاتسينا اين تزوج و انجب الاولاد، منها انتقل الى ارض سنغاي و زار عاصمتها جاو اين التقى بالسلطان الاسقيا محمد توري فأجابه على عدد من الاسئلة المتعلقة بالحكم الاسلامي.

و عموما فلقد كانت رحلة المغيلي الى السودان الغربي بمثابة نموذج للثورة الاصلاحية التي قام بها واحد من النخبة التلمسانية في هذه الممالك و الشعوب التي كانت قبل رحلته تعيش وضعا دينيا تتخلله التقاليد الوثنية و ممارسات الاسلام السطحي حتى جاء المغيلي فصحح الاسلام و سطر لملوك السودان خريطة طريق لتقويم الحياة الدينية و السياسية والاجتماعية على اسس اسلامية شرعية صحيحة وفق المذهب السني المالي، كما استطاع من خلال احتكاكه بالمجتمع السوداني العميق وممارسته للتدريس من تكوين جيل من الطلبة الذي اخذوا منهجه و علمه، و ساهموا هم بدورهم في نشره افكاره الاصلاحية و كانت سببا في ظهور حركات اصلاحية عديدة في بلاد الهوسا و ماسينا من بعده. منها حركة الشيخ عثمان دان فوديو في كاتسينا و حركة الشيخ عمر تال في ماسينا.

رابعا: مظاهر تأثير علماء الجزائر في منطقة الساحل الافريقي:

إن الدور الذي كان لعلماء الجزائر في منطقة الساحل الافريقي لم تقتصر على التواجد السياسية والاقتصادي التجاري، فذلك كان تحصيل حاصل للهجرات والعلاقات القبلية والمصاهرات وللعوامل التي تفرضها قرابة الجوار، لكن مساهمتهم في الحياة الثقافية و الاجتماعية للسودان الغربي كانت واضحة بشكل لا يمكن لأي دراسة ان تتجاهله.

1. في ميدان التأليف:

فمن مؤلفات علماء الجزار التي لاقت رواجا و انتشرت في منطقة الساحل و السودان الغربي نجد عقائد السنوسي لاتي لاقت قبولا واهتماما كبيرينحتى اصبحت تذكر في معظم المقدمات الكلامية لعلم الكلام، حيث كان الشيخ يحظى بمكانة عظيمة لدى علماء الساحل، و كان يعد

مؤسسالمدرسة الأشعرية االشتهرت بالاجتهاد فيتلمسان، لهذا عكف علماء وطلاب بلاد السودان على دراسة مصنفات السنوسي فنالت اهتمامهم و حازت على إقبال كبير عندهمفكانت كتبه تعتمد في الحلقات العلمية في الساحل وبلاد السودان، فحفظوها و فهموها و نسخوها، و لعل اكثر كتبه انتشارا عندهمهي العقيدة الصغرى المساة بـ "**أم البراهين**" التي زودوها بشروح ومختصرات وتعليقات، وقد تردد ومن اشهر من درسها في تنبكتو الفقيه محمد بن محمود بن أبي بكر الونكريالمعروف باسمبغيغ وأخذها عنه تلميذه أحمد بابا حيث قال: « وختمت عليه...صغرى السنوسي »، وقرا عليه "الكبرى" وشرحها في قوله: « وحضرت عليه الكبرى وشرحها» ، ومن العلماء الذين وضعوا عليها شرحا أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت تحت عنوان "شرح السنوسية الصغرى"،وأحمد بابا التنبكتي بعنوان « شرح الصغرى للسنوسي».

كما انتشرت في بلاد الساحل و السودان الغربي مصنف محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني في علم المنطق و خاصة مصنفه المسمى: «منح الوهاب في رد الفكر إلى الصواب» ،الذي كان يدرس للطلبة السواحليين في حلقات التدريس بتنبكتو ،و التي عرفت عند علماء تنبكتو بمنظومة المغيلي في المنطق[1] أو رجز المغلي في المنطق، حيث كان يدرسها الفقيه محمد بن محمود بن أبي بكر الونكري ودرسها أحمد بابا التنبكتي على يد شيخه حيث يقول: «وقرأت عليه رجز المغلي في المنطق» [2].

كما ترك كتابا غاية في الاهمية و هو كتاب ما يجب على الملوك و السلاطين والذي يعد مرجعية سياسية لملوك السودان كان قد قدمه لسلطان كانو محمد رمفة، و تضم ثمان ابواب وهي مجموعة من التوصيات و المبادئ التي لابد ان يتبعها اي حاكم يحكم بالشريعة الاسلامية، حيث كتبه بطلب من سلطان مملكة كانو في بلاد الهوسا الذي زاره المغيلي و قربه اليه عين كمستشار خاص

(1) **أحمد بابا التنبكتي**: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص142.

(2) نفسه، 602.

للملك، و طلب منه السلطان محمد رمفا مجموعة من النصائح التي تجيز للحاكم ردع الناس عن الحرام، فكتب اليه رسالة تضم مجموعة من النصائح التي تضم تنظيم شؤون الامارة و الحكم.

و لقد انتشرت هذه الوصايا و هذه الرسالة في كامل بلاد الساحل و غرب افريقيا لدى الحركات الاسلامية التي ظهرت خلال العصر الحديث و اتخذها زعماء هذه الحركات دستورا لهم.

كما لقي كتاب أبي العباس يحي الونشريسي التلمساني (المتوفى سنة 914هـ/1508م) المعروف بـ «المعيار المعربوالجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب» رواجا في منطقة الساحل و بالخصوص تنبكتو، حيث قام أحمد بابا التنبكتي بترتيبه حسب المواضيع و الأبواب.

2.في ميدان التعليم:

إلى جانب انشغال علماء الجزائر بالتأليف في بلاد الساحل عكفوا أيضا على مزاولة مهنة التعليم، فلقد طلب ملك بورنو من علماء توات ارسال بعثات من العلماء التواتيين للاضطلاع بهذه المهمة، فكان من بين هؤلاء العلماء الشيخ محمد الطاهر الفلاتي التواتي إلى جانب تأليفه لعدة مؤلفات في ميدان الفقه و علم الكلام و الشعر، مارس التعليم في بورنو، إلى جانب الشيخ أبي القاسم التواتي سابق الذكر الذي كان يمارس مهنة التعليم في جامع سنكري في تنبكتو.

و لما زار الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي منطقة الآيراهتم بالتعليم و انشا مدرسة قرآنية للصغار واخرى للكبار كان يعلم فيهما علوم الدين و اللغة العربية، و لقد تتلمذ على يديه العديد من طلبة الساحل، و الذين اسهموا بدورهم في نشر الثقافة العربية الإسلامية في المنطقة منهم الشيخ العاقب الاغداسي، ومنهم الشيخ شمس الدين النجيب التجداوي.

وقد تأثر عثمان دان فوديو(ت1232هـ-1817م) بهذه الرسالة فألف كتابا سماه "**أصول العدل لولاة الأمور وأهل الفضل**" اقتدى فيه اقتداءا تاما بكتاب المغيلي لأمير كانو محمد بن يعقوب بل لم يزد عنه شيئا ، ثم انتقل إلى مملكة سنغاي سنة 1502م ايناتصل بالسلطان أسكيا الحاج محمد توريحيث قربه إليه، ووجه له أسئلة تتضمن المشاكل السياسية والدينية والاجتماعية التي

تواجه مملكته، فأجابه المغيلي في رسالة بعنوان "**أسئلة أسكيا وأجوبة المغيلي**"كما مر علينا من قبل والتي أصبحت مرجعا لكل حكام منطقة الساحل وافريقيا جنوب الصحراء فيما بعد.

3 . التصوف:

من أهم الآثار التي نقلها الجزائريون الى منطقة الساحل خلال تواصلهم قضية التصوف، حيث انتقل شيوخ الطريقة القادرية و التيجانية و السنوسية من المدن الجزائرية نحو منطقة الساحل التي عرفت حواضرها أول الطرق الصوفية المنتقلة الى افريقيا. و لقد كانت الطريقة القادرية أول الطرق التي جسدت التأثير الديني للجزائر في دول الساحل.

المبحث الرابع

الطُّرُقُ الصُّوفية و دورها في نشر الإسلام في غرب إفريقيا

رغم أن الإسلام ثبيت أقدامه كدين رسمي لعديد من الممالك الاسلامبية في السودان الغربي، وازدهرت العديد من المدن السودانية كحواضر للثقافة العربية الإسلامية، مثل تنبكتو و جاو و جني ولاتة، إلا أن المناطق الريفية و الأدغال بقيت تعاني من ضعف في الدعوة الإسلامية نتيجة تمركز النشاط العلمي و الدعوي في الحواضر دون غيرها من المناطق، وهذا ما نتج عنه انحراف في الدين واختلاط العقائد الاسلامية بالمعتقدات الوثنية التقليدية، في ظل انتشار الجهل بأمور الدين فاصبح الإسلام يقتصر عندهم على الشهادتين و أداء الصلاة في أحسن الأحوال.

إن مهمة إصلاح الدين وتعليم الناس فقد وقعت على عاتق الطرق الصوفية التي كان لها الدور الأعظم في تنظيم سلوك الأفراد و تهذيب أرواحهم، و تقويم سلوكهم و ربطهم حول الشيخ الذي أعاد اللحمة للمجتمع الإفريقي المسلم من خلال عمل قاعدي متدرج يبدأ من الزاوية ينتهي عند مشروع الدولة الاسلامية.

أولا:دور الطريقة القادرية:

وكانت الطريقة القادرية هي أول طريقة صوفية وصلت إلى الغرب إفريقيا، و كانت المدينة الجزائرية تلمسان البوابة التي انطلقت منها الطريقة القادرية نحو الصحراء الجزائرية، وذلك مرورا بمراكش المغربية بواسطة العالم المراكشي الشيخ ابي مدين شعيب الانصاري الأندلسي (ت 594هـ/1197م) بعد مقابلته للشيخ عبد القادر الجيلاني الذي تُنسَبُ الطريقة القادرية إليه خلال رحلته إلى الحج، حيث أخذ عنه التصوُّف و ألبسه الخِرْقَةفي لقائهما في الحجِّ، ولما رجع إلى بلاد المغرب استقر ببجاية في النصف الثاني من القرن الثاني عشر للميلاد، ونشر بها العلم وتعاليم الطريقة. وهكذا أخذت هذه الأخيرة في الانتشار في كامل بلاد المغرب، وذلك وغيره، لتنتقل إلى الصحراء بواسطة عدة شيوخ، كعبد السلام بن مشيش وغيره لتنتقل إلى الصحراء والواحات، ومن توات في أقصى جنوب غرب الجزائر؛ حيث تم ذلك بفضل العالم الجليل الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي(توفى عام 909هـ/1503م) الذي نشر الطريقة أولا بمنطقة توات خلال القرن التاسع

الهجري/15م، إذ بدأ ذلك بتأسيس زاويته هناك بغرض نشر الإسلام وتدريس تعاليم الطريقة القادرية.

و قد انتقلت بعدها إلى ما وراء الصحراء الكبرى حيث واصل المغيلي نشاطه الدعوي للطريقة هناك ايضا، و ذلك بشهادة الشيخ آدم الألوريالذي قال فيه:« ... **أوَّل من نشرها في بلاد السودان محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني** »، الذي نشر الطريقة القادرية بمنطقة توات وأسس بها زاوية بقصر بوعلي في أواخر القرن التاسع الهجري/15م، إذ كان لها إشعاعُ كبير في منطقة توات وغرب إفريقيا.

قام الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني برحلة إلى بلاد السودان الغربي، ومر في طريقه بِعِدَّةِ مُدُنِ داعيا للناس و وَاعِظا للحكام، ومن بين المدن التي زارها كانت كانو، وكاتسينا، وكاغاو، و تيقدا، وآيير، وبلاد الهوسا بالاضافة إلى بلاد التكرور، وبعد ذلك مرَّ بجاو عاصمة مملكة سنغاي والتقى بسلطانها الأسقيا الحاج محمد الكبير سنة 1493م ،الذي حمل له بعض النصائح و الفتاوي الخاصة بشؤون الحكم ، و نقل إلى سنغاي مبادئ الطريقة القادرية السنية المالكية، و بذلك كان أوَّل من نشر الطريقة القادرية بالسودان الغربي.

وفي سنة 1553م دخلت على االطريقة القادرية في إفريقيا جنوب الصحراء أفكارا جديدة قادمة من مصر وتركيا عبر شرق إفريقيا، منها أفكار الشيخ زروق والذي يعتبر من أهم رجال الطريقة القادرية بمنطقة أغاديس، ومن هذه المدينة انتقلت أفكاره وآراؤه إلى الشيخ المختار البكاي الكبير الكنتي.

فبعد وفاة الشيخ المغيلي ظهر فرغ آخر للقادرية عرفت باسم الطريقة البكائية، وذلك في الصحراء الجزائرية في القرن (10هـ-16م) وامتدت إلى ساحل صحراء إفريقيا التي تفرعت عن الطريقة القادرية ،حيث أسسهاالشيخ أحمد بكاي الكنتي (توفي سنة960هـ/552م) الذي التقى المغيلي بتوات واخذ عنهأوراد الطريقة، وأصبح رئيسا لها في الصحراء الكبرى، لكن الطريقة البكاية ازدهرت في عهد الشيخ المختار الكنتي (توفي سنة 1226هجري/1811م) الذي أحيا الطريقة بعد فترة خمول و جمود، وأعاد بعثها من جديد ، إذ عمل على توطيد العلاقات الثقافية بين ضفتي

الصحراء وتنقل بين توات وولاته وتنبكتو في حين استقر أحفاده في الأزواد شمال مالي وانشئوا فروعا لزاويتهم في حواضر الصحراء الإفريقية، والملاحظ انه لم يقتصر دورها على الجانب الروحي والاجتماعي بل تعداهما إلى الجانب السياسي إذ ظهرت دويلات استندت على دعوتها مثل دولة عثمان دان فوديو في نيجيريا وأحمدو لوبو (1260هـ-1844م) في ماسينا.

كما انتقلت القادرية من حاضرة توات نحو بلاد الساحل الافريقي و السودان الغربي، إذ تعد منطقة توات من المدن الجنوبية الغربية للصحراء الجزائرية، و هي تابعة اليوم لولاية أدرار الجزائرية. لشيوخ الطريقة في هذه المدينة دور كبير في نشر الإسلام و علومه في منطقة الساحل، و ذلك بحكم الموقع الجغرافي، والعامل التاريخي، حيث جعل منطقة توات على اتصال مستمر بأهم الحواضر العلمية في بلاد الساحل كتنبكتو، و جاو، و أودغست، إذ كانت توات تشكل منطقة عبور رئيسية لقوافل التجارة والحج القادمة من بلاد السودان، والمتجهة نحو دول المغرب الاسلامي أو المشرق[1]. كما ساهمت الهجرات المتدفقة من إقليم توات نحو بلاد الساحل دور في نقل الاسلام والتصوف والزوايا و ما ترتب عنها من حركة التعليم و نشر العلوم الدينية، دون اغفال دور تجار توات في مد مناطق صحراء إفريقيا بالأفكار والتعاليم الإسلامية على النهج الصوفي القادري.

لكن الدور الكبير الذي مارسه علماء قبائل توات الجزائرية في منطقة الساحل وبالخصوص في تنبكتو، يبقى بدون منازع من طرف شيوخ الطريقة الصوفية القادرية، و على رأسهم شيوخ الطريقة القادرية البكائية، التي أنشاها الشيخ سيدي أحمد البكاي الكونتي من قبيلة كونته الصحراوية الذي عاش خلال القرن التاسع للهجرة/15م، و حمل راية الاسلام ونشره في صفوف القبائل السودانية في منطقة الساحل، و بعده تمسكت قبيلة كونته بهذا الدور خاصة في عهد ابنه الشيخ عمر.

و يؤكد المؤرخ الفرنسي بول مارتي(Paul Marty) بأن الرسالة التي أرسلها ملك بورنو الملقب بـ(كادي) أو (كانديي) سابق الذكر إلى علماء و سشيخى القادرية بتوات كانت موجهة الى الشيخ عمر الكونتي يدعوه فيها و يدعو جميع أحفاد الشيخ أحمد البكاي الكونتي المقيمين في توات إلى

(1) **نور الدين شعباني**، دور عائلة كيتا مرجع سابق، ص 180.

عدم التخلي عن تقاليدهم في التواصل مع مملكة بورنو، ويتساءل عن سبب حدوث تلك القطيعة، و لقد منحهم ملك بورنو امتيازات بعدم فرض أي إتاوة أو ضريبة على أي شخص يحمل رسالة من طرف الشيخ عمر الكونتي.

كما عملت الأسر الصوفية التواتية بدورها على نشر الطريقة البكائية في السنغال و منطقة فوتا جالون وأسسوا مراكز للطريقة في كنكان،وتمبو، و في بلاد المندينغ، و وصلت الى غاية غينيا.

وخلال القرن 19م ظهرت فروع أخرى من الطريقة القادرية في إفريقيا حملت نماذج جديدة للتصوف إسلامي منها الطريقة الموريدية، حيث تعد الطريقة الموريدية التي أسسها الشيخ أحمدو بمبا في السنغال خلال القرن التاسع عشر أهم نموذج للإسلام الإفريقي أو الإسلام الأسود، إذ بفضل هذه الطريقة و مجهودات شيخها و حركة التعليم التي انتهجها تحول الإسلام إلى ديانة الجماهير السودانية في إفريقيا الغربية وخاصة السنغال وشعب الولوف. أي أن الموريدية حملت قراءة جديدة للإسلام في إفريقيا السوداء، لهذا تعرضت الطريقة إلى عدة انتقادات واتهامات بانحرافها عن الدين الصحيح الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم حاولنا من خلال هذه الدراسة أن نبرز دور الموريدية في نشر الإسلام في السنغال والتجديدات الذي قدمت الإسلام إلى الولوف بطريقة مغايرة وجعلتها تقف على نفس المسافة بين الشعب والسلطة الحاكمة دون أن تخسر أي منهما، ودون أن تحرف النصوص التشريعية أو تتجاوزها.

كانت الطريقة الموريدية تتبع عقيدة ومذهب صاحبها احمدو بمبا وهي عقيدة أهل السنة والجماعة فلقد كان الشيخ بمبا سنيا مالكيا مثل اغلب مسلمي السودان الغربي، فحركة احمدو بمبا كانت استمرارا لحركة المرابطين التي ظهرت خلال القرن الخامس للهجرة/11م، فالمريدية هي في الأصل حركة صوفية انبثقت من الطريقة القادرية، لذلك كان الشيخ احمدو يحث أتباعه على إعطاء أهمية بالغة للتربية، وترتيل القرآن، ودراسة الشريعة الإسلامية بالإضافة إلى الرياضيات و اللغات الأجنبية.

لم يكتف أحمدو بمبا بترديد السنة التي تركها الرسول صلى الله عليه وسلم، و إنما اجتهد في الوصول إلى البعد الإنساني للإسلام وخاصة الإفريقي وذلك حتى يتوغل به إلى الشعوب السنغالية وغيرها من الشعوب السوداء في إفريقيا، فلقد عمل على إعادة قراءة الإسلام ليسهل فهمه من طرف من يدعوهم إليه.

قامت الطريقة المريدية على مجموعة من المبادئ والتعاليم التي وردت في كتابات الشيخ احمدو بمبا ونصائحه، حيث ركز على تصحيح عقائد أتباعه وعباداتهم وأخلاقهم عن طريق التوحيد والفقه والتصوف، كما كانت تقوم على تزكية النفوس وتطهير القلوب عن طريق الجهاد والخدمة والعمل مع مراعاة الآداب، وكل ذلك يتم تحت إشراف شيخ مرشد يهدي المريد إلى الصراط المستقيم و يبين له موطن الثغرات فلقد لخص ذلك بقوله :

بِأَنْ يُلاَزِمَ مُطِيعًا لا يمَيل في ظاهِرِ و باطِن عَنِ السَّبيل

يَقُـودُهُ بالعِلْمِ والعِبـَادةِ كمـا يـُرَبّيه بـِتـَرْكِ الـعَـادَةِ

ومنه يتبين لنا بأن أهم مبادئ المريدية هي العلم، العمل، تزكية النفس، الخدمة ومراعاة الآداب.[1]. كما تقوم الطريقة المريدية على التعلق بالنبي صلى الله عليه وسلم من خلال مبايعته على الامتثال لأوامره واجتناب نواهيه).

كان الشيخ أحمد بامبا يؤمن بعقيدة أهل السنة والجماعة ويدعو إليها في كتاباته التي بين فيها بوضوح اعتقاده ومذهبه في العبادة والأخلاق، فهو أشعري في العقيدة، مالكي في الفقه، وصوفي في السلوك.

ثانيا: الطريقة التيجانية

تنتسب إلى مؤسسها أبي العباس أحمد بن محمد بن المختار التيجاني الجزائري الذي ولد بعين ماضي بولاية الأغواط، وانتشرت في إفريقيا جنوب الصحراء عبر الصحراء الجزائرية انطلاقا من

(**1**) مدونة سام بوسو عبد الرحمان مفتش التعليم العربي مدينة تياس بالسنغال، سؤال و جواب عن الطريقة المريدية في موقع الكتروني: *http://samebousso.blogspot.com* اطلع عليه يوم 09 ـ 05 ـ 2010م.

بوسمغون، عين ماضي تماسين، قمار. وقد تأثر الشيخ التيجاني بالنزاعات الصوفية في وقت مبكر من حياته ، ولم يكن قد جاوز واحدا وعشرين من عمره ، وذلك عندما سافر علي مدينة فاس المغربية في عام 1758م بحثا عن مشائخ للطرق الصوفية بعد حصوله علي بعض العلوم في قرية أبيه (عين ماضي) بما فيها حفظ القرآن ودراسة الفقه المالكي من كتب مختصر الخليل والأخضري ، ورسالة جماعة الصوفية ببلاد الإسلام للشيخ ابي القاسم القشيري.

وتمثل دور الطريقة في تصحيح المعتقد الديني ونشر الإسلام بين الوثنيين ونشر العلم وبناء المدارس والتصدي للاستعمار، من بلاد المغرب انطلقت من المغرب لتشمل موريتانيا بواسطة شيخ يدعي (محمد الحافظ) الذي كان أحد مريدي الشيخ أحمد التجاني في مدينة فاس المغربية. وبهذا أصبحت الطريقة التيجانية الطريقة الصوفية الأولي في شمال إفريقيا ، أي أوسع انتشارا، وأكثر تمثلا في المناسبات الرسمية.

ومن الأوائل الذين نشروها في إفريقيا الحاج عمرتال الملقب بالفوتي (نسبة الى فوتا تورو) الذي يقول عنه الشيخ آدم الألوري:« **وأعظم من نشر هذه الطريقة في غرب إفريقيا هو الحاج عمر الفوتي**».

عاشت دولة الحاج عمر تال الإسلامية في الفترة من 1794- 1864 ولعبت دورا حيويا ودينيا وثقافيا في تاريخ المنطقة ، ونظرا للطابع التعصبي الذي اتسم به أهل الطريقة التجانية ، وموقف الرفض في الآخر ، فإن دولة عمر الفوتي ، لم تستمر بعد وفاته وسرعان ما خمدت نيرانها في عام 1864م ، نتيجة النزاعات التي نشبت بين أولاده ، فضعفوا بعده، ثم لم يكونوا علي نفس القدر من الحنكة السياسية والذكاء والتأهيل العلمي ، وفي عاصمتها (بنيقرا) والتي تقارب في المعني سر من رأي سامبراء تعني " يعجب الرائي وإن كان عدوا " وهذا يعني أنها" أي مدينة (بنيغرا) كانت مدينة حاضرة ، ومتطورة عمرانيا ، وأهم مدن هذا الشيخ نيورو و سيقو.

وقد كان في مدينة (نيورو) شيخ يدعي محمد المختار بن أحمد بيللي سال (1860 – 1930م) فهو الذي لعب دورا في نقل الطريقة التجانية إلى داخل إفريقيا مثل الغابون وغانا وتوغو ، وكوت ديفوار ، وسيراليون، وكان سبب نانتقالها الى الغابون البعيدة في وسط إفريقيا ، هي لكونها كانت منفى لشيوخ الطرق وزعماء المقاومة الأفارقة ، فكانوا يستغلون وجودهم في الغابون لنشر

الطريقة التيجانية ، كما أن البلاد الساحلية عموما كساحل العاج وغانا وسيراليون، هي بلاد جاذبة لسكان المناطق الصحراوية الحارة ، فهم يشكلون العمالة ، والمغتربين في هذه المناطق.

كما كان الحاج عمر الفوتي هو من نشر الطريقةالتيجانية في السنغال و حتى في بلاد الهوسا بنيجيريا لما مرَّ بها لما كان عائدا من رحلته إلى الحج، أين نزل على الشيخ عثمان دان فوديو لكنه فشل في اقناعه باعتناق الطريقة التيجانية بما أن الشيخ عثمان كان قادريا[1]، لكنه تمكن من إقناع أمير كانو عبد الله بيرو باتباعه طريقته بعدما دعاه إلى زيارته، و قد وزَع نسخا من كتابه كشف الإلباس على علماء كانوا وأجاب على أسئلتهم فالتف حول طريقته الكثيرون من الأتباع،كما زار موريتانيا و كوناكري الغانية،لكن أكبر جهد بذله الشيخ الشيخ في الدعوة كان داخل السنغال، مقتديا في ذالك بمسيرة والده في ميدان الدعوة الإسلامية فسخّر كل طاقته لتبليغ رسالة التوحيد، معتمدا في ذلك على مجموعة من الوسائل والأساليب، التي مكنته من الوقوف أمام كل القوى التي سعت لفتنة المسلمين فبرز نجمه.

كما اشتهر في جميع مناطق غرب إفريقيا، ووسطها، وذاع صيته في أمصار العالم الإسلامي، وترك تركة لأحفاده وأولاده من بعده، من كتب ودور علم وزوايا، وأتباع في كل مكان، حتي أوروبا، وأمريكا، وغيرهما. وانتشرت الطريقة التجانية أيضا في بوركينافاسو عبر شيخين جليلين هما: الشيخ أبوبكر ميغا، شيخ مدينة " رحمة الله " في محافظة ياتنقا " في الشمال الأوسط من بوركينافاسو، وقد أخذها علي مشايخه من ينزو معقل الحمويةوعلي يده أسلم أغلب سكان هذه المنطقة، وقد انتشر اتباعه الذين أسسوا زوايا عدة في جميع المدن والقري ببوركينافاسو. بالإضافة إلى الشيخ عبدالله دوكوري الذي كان من بين الذين تم استبعادهم وسجنهم، نظرا لآثارهم الدعوية في منطقة الشمال ببوركينا فاسو، حيث انطلقت دعوته في مدينة (جيبو) عاصمة إقليم (سوم) وانتشرت طريقته في الوسط الفولاني، ووسط (الموسي) وله تأثير خارج حدود بوركينافاسو. وفي النيجر اشتهر الشيخان، شيخ كيبوتا أبوبكر هاشم أحمد في منطقة (دوسو) في أواسط غرب النيجر، وهو من أشهر شيوخ التيجانية في المنطقة، وإليه يهاجر أتباع التيجانية في مناسبات عيد المولي النبوي الشريف وكان

(1) **موسى عبد السلام أبيكن** الطريقة التيجانية، مرجع سابق، ص29.

تلميذا للشيخ إبراهيم نياس الكولخي والشيخ علي جاتي " شيخ حارة "كاراجي " في مدينة نيامي، وهو تلميذ الشيخ عبدالله دوكوري.

ثالثا: الطريقة السنوسية:

تنتسب الطريقة السنوسية إلى مؤسسها وشيخها محمد بن علي بن السنوسي العربي الإدريسي الجزائري (1201- 1275 ه /1787-1859م)ولد بضاحية مايثا الواقعة بضفة وادي الشلف بمستغانم بالجزائر، في أوائل سنة1221ه/1807م خرج من مستغانم إلى مدينة مازونة ومنها إلى تلمسان حيث تتلمذ على كبار شيوخها، وقد شغله منذ وقت مبكر تدهور حالة المسلمين في العالم آنذاك و فقدانه للقادة الراشدة و ضياع البلدان الإسلامية تحت نير الاستعمار الاوربي، وانتشار الافكار المنحرفة، عن طريق الأخبار التي كانت تحملها القوافل المارة بمستغانم فأدرك أهمية العلم في استرجاع أمجاد الأمة الإسلامية، فقرَّر السفر من أجل طلب العلم، فكانت رحلته إلى فاس المغربية أوَّلا أين مكث فيها نحو سبع سنوات، وهناك بفاس درس على أقطاب التصوف من شاذلية و درقاوية و نال المشيخة الكبرى بها.

وبسبب الفتنة التي عرفتها مدينة فاس اضطر إلى مغادرتها، فقرّر العودة إلى مستغانم و منها الرحلة إلى المشرق و خاصة مكة المكرَّمة من أجل أدا مناسك الحج و الإلتقاء بكبار العلماء والتعرُّف على الشعوب الإسلامية عن قرب، فكانت رحلته مرورا بتونس و طرابلس الغرب و مصر و الحجاز، فوقف على أسباب تخلف المسلمين من تعصب و انحراف في العقيدة و تعطُّل الجهاد، فتتلمذ على نخبة من العلماء المسلمين في الحجاز، و كان أفضل شيوخه الذين تتلمذ عليهم في مكة و تأثر بهم، هو أحمد بن إدريس، وهناك قام بتأسيس أول زاوية لطريقته، لكن وفاة شيخه أحمد بن إدريس جعله يغادر الحجاز ويعود مرة أخرى إلى المغرب).

عاد السنوسي إلى طرابلس مع مجموعة من الإخوان سنة 1841م، و نزل ضيفا على عائلة المنتصر لكن والي طرابلس العثماني علي عشقر تخوَف من السنوسي لكن عميد عائلة المنتصر تمكن

من إقناع الوالي بإخلاص السنوسي للدولة العثماني، و عرّفه بالسنوسي، فأُعجب الوالي العثماني بورع السنوسي و علمه فمكث في طرابلس مدة من الزمن يعلِّمُ الناس و يبصِّرهم بأمور دينهم، فتعلق الناس به و ساروا إليه من كل حدب وصوب، وحتى الوالي علي عشقر اتبع طريقة السنوسي الصوفية و صار من مريديه، كما حرص الوالي على الاستفادة من نفوذ السنوسي في ليبيا لتوحيد كلمة الشعب و تقوية الأمن وإخماد الفتن.

واصل السنوسي طريق إلى برقة برفقة اعيان اسرة المنتصر و أعيان مصراتة، و رَحَّبَ به أعيان وشيوخ برقة و الجبل الأخضر، و مدينة بنغازي ورافقوه في رحلته، إلى أن وصل إلى مكان يسمى دنقلة اين وجد أتباعه السنوسيون قد شرعوا بأمر منه في بناء الزاوية البيضاء بالقرب من ضرح الصحابي الجليل رويفع بن ثابت الأنصاري و كانت أول زاوية يقيمها السنوسي خارج الحجاز، وأطلق عليها أم الزوايا، كما أسس عدة زوايا في برقة و الجبل الأخضر بلغت حوالي عشرين زاوية[1]، و في سنة 1856م نقل مركز حركته إلى واحة الجغبوب، فكانت نقطة انطلاق حركته نحو القبائل الوثنية في الفريقا جنوب الصحراء.

بعد وفاة الشيخ السنوسي خلفه اخوه محمد الشريف المهدي الذي كان مشرفا على مركز الجغبوب، و كان رجلا ذكيا مثقفا و مطلعا، و في سنة1896م، زاره اعيان برقة و رؤسا القبائل ليقدموا له العزاء، و يدرسوا معه الأحداث الإقليمية و الدولية و المحلية، فأخذ الإمام المهدي يهتم بافريقيا جنوب الصحراء، فأخذ يشتري الأرقاء صغارا من بلاد السودان ويربون في زوايا هذه الطريقة ويقومون بتعليمهم ومتى أكملوا تحصيل العلم اعتقوهم وسرحوهم إلى أطراف السودان مبشرين من سواحل الصومال شرقا إلى سواحل السنغامبية غربا، وكذلك اهتم السنوسيين ببناء الزوايا في هذه المناطق. كما أخذ يرسل بعثات استكشافية في الصحراء و حفر الآبار ويتفقَّد الطرق المؤدية إلى بلاد السودان الغربي و الاستعداد لمقاومة الاستعمار الفرنسي.

---

(1) **علي محمد الصلابي**، تاريخ الحركة السنوسية في افريقيا، مرجع سابق، ص47.

كما أسست الطريقة السنوسية عدة زوايا في غرب افريقيا وتمكن السنوسيون من بسط نفوذهم هناك ، حيث وصلت دعوتهم إلى أقصى الصحراء الكبرى ، ومرورا ببحيرة تشاد وما جاورها من إمارات سواء كانت إسلامية أو زنجية وثنية، ومما تميزت به تلك البلاد في هذه الفترة هو نمو الأطماع الاستعمارية عليها. كما وضع نصب عينيه ا زوية قرو في برقو ناحية السودان الغربي، فاصطحب معه كبار المشايخ السنوسية و شيوخ الزوايا و بعض أعيان القبائل، ومن بين من إصطحبهم معه أثناء وصوله إلى تلك النواحي بالسودان الغربي ابن أخيه الشريف السنوسي حيث عند وصوله إلى المنطقة قام بتعيينه كخليفة له من بعده على السنوسية(.

ما إن وصل إلى تلك المنطقة المقصودة حتى أخذ ينشر دعوته هناك ، وقد رحب به سكانها وانظموا تحت لواء طريقته دون أن يمارس عليهم أي إكراه ، ولم يجبرهم هلى الانظمام لطريقته حسب ما قاله المؤرخون.

وتذكر المصادر أنه في حدود عام 1892 م، ظهر مرابط ينتمي إلى الطريقة السنوسية يدعى محمد السني في إقليم دامراغوردا ماغاريم وجند أنصاره في النواحي المجاورة هناك، وأنشأ ازاوية وضع عليها معلما لتعليم القرآن هناك ، وزيادة على ذلك فإن السنوسية في إقليم كاوار كان لها تسع مدارس ، ومن مشاهير أتباع السنوسية في زندر و الذي لقبه أهلها بالزعيم الروحي للسنوسية هناك عبد الكريم دوما الطرابلسي ، الذي تذكر المصادر أنه كان يعمل حذاءا في منطقة بيرني.

رابعا: الطرق الصوفية و الإسلام في نيجيريا:

يسكن نيجيريا عدة شعوب من بربرو فلاتة و برنو و ماندينغ، لكن أغلبية الشعب النيجيري ينتمي الى شعب الهوسا* و الذين يتمركزون في الجزء الشمالي من البلاد، و يتكلم الهوسا لغة تشبه كثيرا اللغة العربية في حروفها،و قواعدها. كما تشبه اللغة السواحلية في جنوب و شرق إفريقيا.

لقد دخل الاسلام الى نيجيريا بنفس الطريقة التي وصل بها إلى غرب افريقيا أي من خلال التجارة و نشاط طبقة الونغارا و الديولا، و هو ما جسده وجود عدد من العلماء و شيوخ الصوفية.

* ينتشر شعب الهوسا شمال نيجيريا الحالية خاصة في مقاطعات سوكوتو، كانو، زاريا، باوتشي، و لقد قامت في المنطقة سبع امارات هي: كاتسينا،كانو، زاريا، دورا، غوبير، زنفرا و رانو.

حيث عرفت بلاد الهوسا منذ القرن الثاني للهجرة /8م و هي الفترة التي انتشرت فيها حركة تجار وفقهاء الاباضية بصورة كثيفة إلى أرض السودان.

1.دور العلماء و المتصوفة في الإسلام في نيجيريا:

و عرفت نيجيريا عدة علماء مسلمين منهم الشيخ يحي بن عبد الله الحسن المعروف بلقب (طن مدينة) التي تعني في لغة الهوسا صاحب المدينة، و هو عالم فقيه قام بتاسيس مدينة جاندوتو (Jandouto). وكان الاسلام في البداية دين بعض التجار و المثقفين، لكنه مع هجرة الداعية موسى جوكلو الى بلاد الهوسا خلال القرن السادس للهجرة/12م، تحول الى موجّه للدولة بفضل المكانة التي كان يتمتع بها هذا الرجل في الدولة ورجالها.

و خلال القرن التاسع للهجرة/15م صار الاسلام هو الدين المهيمن و الدين الرسمي في نيجير. و في عهد السلطان محمد رنفا الذي استقبل الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي في مدينة كانو و زوده بمجموعة من النصائح و اصبح يدرس في جامع المدينة ، و أرشده الى تعاليم الاسلام في الحكم.

و لقد استفادت ارض الهوسا و القبائل المتحالفة معها من توسطها لعدة دول اسلامية كبيرة و هي مالي، سنغاي، تكرور، و بورنو، بالإضافة الى رحلات الحج التي كانت تمر بأرضها، لكن دور المتصوفة يبقى مميزا في اسلام نيجيريا و الهوسا، حيث كان الشيخ فتح الله بوراس بن محمد الصوفي الذي زار بلاد الهوسا في القرن الثامن و التاسع للهجرة/14و15م ، ثم زيارة محمد بن عبد الكريم المعيلي القادري الذي استقر في كانو، و بقيت ذريته الى اليوم اتخذت من حارة شريفي مقرا لسكناهم.

كما زارها الشيخ محمد زهرة الصوفي المشهور ب(ماي كرغيMai Karghi) حيث قدم من تونس وتحديدا من قرية فيقيق ، و كان الشيخ محمد زهرة ضالعا في علم الحديث في عصره. و قد عاصر هذا العالم الصوفي سلطان كانم محمد قيسوكي، و قد توفي بكانو و ما يزال قبره الى اليوم في حارة كوروندوتس(Goronduts) حيث عاش خلال القرن التاسع الهجري/15م و قام فيما بعد الشيخ عثمان بجمع اسانيده كلها.

كما عرفت امارة كانو الشيخ محمد الفلاتي التورنكي الكشناوي و هو من المتصوفة الذين عاشوا خلال القرن 11هـ/17م، توفي بمصر. بالإضافة الى الشيخ عبد الله ثقة، و هو من أصول مالية أخذ عنه الكثير من العلماء النيجيريين أمثال أمير كوا كاوكوانا(Kwa Kwana) و امير كانوا الخر محمد جانازو(Janhazo).

و عموما فقد احتضنت أرض نيجيريا عدة علماء متصوفة الى درجة أنه في إحدى المناسبات الخاصة باحتفالات عيد الاضحى انعقد مؤتمرا بمدينة مغامي(Magami) سنة 1788م شارك فيه اكثر من الف عالم ، و هو ما شجع هؤلاء على اقامة دولة يكون الاسلام شريعتها و مكوجهها، وقد تجسدت هذه الدولة على ايدي الشيخ عثمان دان فوديو الفلاتي.

فلقد عرفت البلاد هجرات الفلاتة منذ القرن السابع الهجري/13م حيث كانوا يستقرون في التكرور والسنغال. و قد استقر هؤلاء المهاجرين الفلاتة في المدن الكبرى و اختلطوا بالسكان المحليين وتزوجوا معهم و اعتنقوا الإسلام و فرضوا على السكان الأصليين سيطرتهم السياسية و الدينية.

2. حركة الشيخ عثمان بن فودي القادري:

هو الشيخ المصلح عثمان بن محمد بن صالح بن هارون بن محمد الملقب بالفودي و التي تعني الفقيه بلغة الهوسا ، ولد بقرية **تفل**بولاية سوكوتو في نيجيريا الحالية. و ذلك يوم الاحد آخر يوم من صفر،1168هـ الموافق ل 15 ديسمبر عام 1754م.

و تنحدر عائلة الشيخ عثمان دان فوديو من قبائل الفلاتة الذين هاجروا الى نيجيريا قادمين من اعالي نهر السنغال و بالتحديد من فوتا تورو خلال القرن15م، و نشأ الشيخ عثمان بن فودي في بيئة علمية توارثت العلم أبا عن جد، و هو ما اتاح له تعلم مبادئ العربية و اصول الفقه و حفظ القرآن الكريم على يدي ابيه، ثم بعد ذلك أخذ العلم عن علماء آخرين منهم الشيخ جبريل بن عمر الذي كان يعد من اكبر علماء السودان، بالاضافة الى خاله الشيخ عثمان بن الامين الملقب ب(بيدوري Bidduri) الذي لازمه سنتين و تاثر باخلاقه و طبائعه، ثم سافر الى مكة لأداء فريضة الحج، وفي مكة التقى بمجموعة من العلماء فزادت ثقافته و رغبته في إصلاح أوضاع منطقته. فرجع الى نيجيريا و بدأ بالدعوة الى تصحيح الدين و إلى ترك البدع و العادات السيئة والخرافات، فبدأ الناس يلتفون حول دعوته().

و لقد اتخذ الشيخ عثمان سوكوتو مقرا لانطلاق حركته،و صار تلاميذته ينطلقون منها للوعظ والإرشاد،كما اهتم بتعليم النساء ليتكمنن من نشر الدعوة في اوساط النساء، و سمح للنساء بحظور مجالس العلم، حيث كتب رسالة سماها (**تنبيه الاخوان على جواز اتخاذ مجلس لأجل تعليم النسوان**) خاصة بعدما رفض بعض العلماء ذلك و اعتبروه اختلاطا، فعمل على تعليم بناته و زوجاته، و استطاعت ابنته أسماء ان تؤلف عدة كتب بالعربية و الفلانية و الهوسية) .

لقد تضايق أمير غوبير الامير **باوا** من حركة عثمان دان فوديو فحاول التقرب منه من خلال استدعائه هو و عدد من العلماء بمناسبة عيد الاضحى و اعطاه خمسمائة مثقال من الذهب كهدية و تقرب منه فرفض الشيخ عثمان الهدية و طلب منه أن يحقق له المطالب التالية:

1 ـ حق التجول في الامارة من اجل الدعوة.

2 ـ عدم منع أي فرد من الاستجابة للدعوة و الارشاد.

3 ـ احترامك العلماء الذين يلبسون العمامة.

4 ـ اطلاق سراح المساجين السياسيين.

5 ـ التخفيف من الضرائب الباهضة المفروضة على الرعية.

فقبل الامي(**باوا**) شروط الشيخ نظرا لسمعته و كثرة اتباعه و انصاره.

و في سنه 1794م توفي الامير باوا و خلفه الامير نافتا الذي ناصب العداء للشيخ عثمان والمسلمين عموما و اصدر مرسوما ينص على ما يلي:

1 ـ لا يجوز لأحد اعتناق الاسلام ما لم يكن قد ورثه عن والديه.

2 ـ باستثناء الشيخ عثمان فإنه لا يجوز لاي أحد غيره القيام بالدعوة الى الاسلام في البلاد.

3 ـ منع وضع العمامة و الخمار إطلاقا في البلاد.

كما قام بحركة اضطهاد للمسلمين في امارته، حيث شن حملة عسكرية تناديبية على مجموعة تابعة لجماعة الشيخ عثمان تسمى هذه **جماعة عبد السلام** * و الذي نتج عنه قتل عدد من

* عبد السلام هو احد حواريي الشيخ عثمان دان فوديو، كان يرابط في منطقة غمبانا Gilmbana

الفقهاء و القراء في نهار رمضان، و نهبوا ممتلكات هذه الجماعة و اسروا اولادهم ، و جعلوا يفرشون الكتب و المصاحف و يحرقون الالواح و اخذوا يقولون (**إئتونا بنا كنتم تعدوننا ان كنتم صادقين**). وهذا ما دفع بالشيخ عثمان لإعلان حركة الجهاد التي تعد الاولى في ارض السودان.

و اتفقت جماعة الشيخ عثمان على تنصيبه أميرا للمؤمنين معلنين بذلك قيام اول دولة اسلامية في بلاد الهوسا و ذلك في عام 1804م، أو ما يعرف بخلافة سوكوتو، و حثّ الناس على حمل السلاح و مقاتلة الوثنيين وكان يقول لهم:(إن حمل السلاح سنة) و نصح اتتباعهخ بلبس الزي العربي و لبس العمائم و ستر النساء، وهو ما جعل ملوك وأمراء المنطقة لمحاربته فدعا اتباعه الى الهجرة الى مكان يسمى غودوgudu، فسمي ذلك اليوم بيوم الهجرة في افريل 1804م.

بعد هجرته بدأ بمراسلة حكام بلاد الهوسا طالبا منهم الدخول في دعوته و نظامه الجديد لكنهم رفضوا، ولجؤوا الى محاربته. كما اتخذ سوكوتو عاصمة دولته الجديدة بين سنتي1804و1809م.

و لم تصل سنة 1810م حتى استطاع ان يؤسس امبراطورية الفلان الكبرى التي ضمت اراضي شمال نيجيريا و اغلب اراضي النيجر و جزء من مالي الحالية. و قد قسمك الشيخ عثمان دولته الى قسمين هما:

1 . القسم الشرقي و نصب عليه ابنه بللو.

2 . القسم الغربي و نصب عليه اخاه عبد الله.

بينما اكتفى عثمان بالزعامة الروحية ، متخذا من مدينة سوكوتو عاصمة للدعوة الإسلامية، كما الف العديد من الكتب منها:

1 . هداية الطلاب.

2 . توقيظ المسلمين على مذهب المجتهدين.

3 . عماد العلماء.

كما ترك عدة رسائل منها: رسالة في اصول الولاية، رسالة في احياء السنة و بيان بالبدع، رسالة في الاجتهاد،رسالة نور الالباب، رسالة في نصائح الامة، رسالة في الهجرة، رسالة في علم المعاملة وغيرها.

رغم ما شيع حوله من انه المهدي المنتظر فقد كان يرفض هذا الادعاء بشدة ، و صرح عدة مرات بطلان هذا الادعاء، كما تركت لنا حركته الجهادية تراثا اسلاميا في نيجيريا و افريقيا الغربية عموما سواء من الناحية السياسية او الفكرية او الادبية او اللغوية او الشرعية، و لا تزال المكتبات العامة و الخاصة في غرب افريقيا تزخر بنفائس المخطوطات التي الفها الشيخ عثمان بن فودي و أبنائه و إخوته و حتى بناته و طلبته. وتوفي رحمه الله في عام 1817م عن عمره يناهز 63 سنة[1].

(**1**) القشاط، مرجع سابق، ص 116.

الفَصْل الثَّاني

الإسلام في منطقة الغابات الإفريقية

مقدمة:

على خلاف عدة مناطق من العالم فإن حركة انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء اكتست طابعا سلميا وهادئا و متدرجا، بينما بقيت منطقة الغابات الاستوائية في أدغال إفريقيا مستعصية عليهم، بسبب عوامل جغرافية و استراتيجية، بالإضافة إلى ذلك الحاجز الطبيعي والحضاري و حتى طبيعة شعوبها العدائي للعنصر الأجنبي، الذي جعل هذه المناطق تبقى بعيدة عن مرمى الدعاة المسلمين وظل سكانها بعيدين عن أي تأثير إسلامي إلى غاية القرن الخامس عشر أن بدأت اول الاحتكاكات بين المسلمين و تلك الشعوب، عن طريق حملات قام بها الاسقيا محمد التوري على مملكة الموشي فير نهر الفولتا، ضد ممالك لموشي، حيث اقتحم عالم الغابات المعزول الموحش و غزاهم، لكن تلك الحملات لم تتمكن من تثبيت أركان الإسلام تلك الغابات الكثيفة، لتبقى منطقة الغابات وفية لوثنيتها إلى غاية القرن السادس عشر عندما بدأت الطائفة من التجار المندي يتسربون اليهم محدثين ثورة حقيقية في تاريخ ومصير تلك الشعوب الحضاري، بفضل نشر عقيدة التوحيد إلى أواسط إفريقيا.

المبحث الأول: الديولا و دورهم في نشر الإسلام في منطقة الغابات الإفريقية

أوَّلا: التعريف بطائفة الديولا:

الديولا هي طائفة مهنية تنتمي إلى مجموعة شعب الماندينغ، وهم تجار متنقلون عرفوا باحتكارهم لتجارة الذهب و الكولا، داخل الغابات الافريقية. وينحدر"الديولا (Dioula) أو "

الجيولا"، من سلالة السوننكي الذين يعتبرون فرعا من شعب الماندينغ [1] ولكنهم انفصلوا عنهم قبل أن يختلطوا مع شعوب الساحل من ساميين وبربر مورسكيين (الطوارق)، وهو ما جعلهم يحتفظون بنمطهم المندي الأصيل، فلغتهم تختلف عن المالنكي وعن كثير من لغات جيرانهم المندي. و يؤكد الديولا أنفسهم هذه الأصالة من خلال قولهم بأن كلمة "ديولا" تعني عمق السلالة المندية. بينما يؤكد الرحالة بنغر بأن كلمة الديولا تطلق على المندي الموجودين في منطقة كونغ في كوت ديفوار سواء أكانوا تجارا أم لا.

إن الشيء الذي لاحظته عند دراستي لهذا الشعب هو ذلك الخلط الذي وقع فيه كثير من المؤرخين بالنسبة للمالنكي و الديولا، فمنهم من يقول بأنهما شعبا واحدا و يختلفان في الاسم فقط، ومنهم من يجعلهما شعبين مختلفين بحيث يتفرعان من ماندينغ الوسط.

لكن يبدو لي أن ديولا أو"جولا" هم عبارة عن مجموعة من العشائر المجتمعة في شكل قرى، والتي تنتمي إلى شعب المالنكي، كما أنهم تمركزوا على شكل جاليات صغيرة في المراكز التجارية الهامة و نقاط عبور القوافل التجارية التي تخرج من مالي باتجاه مناجم الذهب في "بامبوك" و"غالام" أو باتجاه الغابات الاستوائية، ذلك لأن ديولا يمتهنون التجارة المتجولة، حيث أن كلمة ديولا في لغة المانكي تعني تاجرا.[2]

---

(1) **الماندينغ** : و يطلق عليهم أيضا اسم "مندي"، و "ماندينكا"، ويشكل الماندينغ القسم الأساسي لشعوب المجرى الأعلى لثلاثة أكبر الأنهار في إفريقيا الغربية و هي السنغال، غمبيا و النيجر. كما أنهم ينتشرون في كل منطقة السودان الغربي، و في جنوب السنغال، و في النيجر الأعلى انطلاقا من سواحل المحيط الأطلسي إلى غاية جمهورية نيجريا الحالية. حول شعب المانمدينغ أنظر:

Sik(**André**), Histoire de l'Afrique noire. Budapest, Hongrie, 1962, 2eme édition, tome1, p48 Niane (Temsir djibril) .Mise en place des populations de la la haute guinée. In Revue éthiopique, N°02, Avril, 1960, p40haute guinée. In Revue éthiopique, N°02, Avril, 1960, p40.

(2) **جبريل(تمسير نياني)**، مالي والتوسع الثاني للماندينغ. ضمن كتاب: ***تاريخ إفريقيا العام***، صادر عن منظمة اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، 1988م، المجلد الرابع، ص129.

وبسبب نشاطهم التجاري هذا فقد عرفهم بعض المؤرخين بكونهم طبقة من التجار في مملكة مالي الإسلامية وذلك لأنهم كانوا يتجهون بتجارتهم إلى ما وراء الحدود السياسية لإمبراطورية مالي، حيث كانوا يخترقون الغابات البعيدة في جنوب نهري النيجر و غمبيا العلويين بحثا عن مصادر جديدة للذهب و العاج و نبات الكولا الذي يعد سلعة مطلوبة جدا بالنسبة لكل سكان السودان الغربي بسبب فوائدها الصحية باعتبارها مادة منشطة.

وقد اعتنق الديولا الإسلام في وقت مبكر، واتخذوا نظاما عشائريا. وعندما بلغت الإمبراطورية المالية أوج قوتها خلال القرن السادس للهجرة/13م، اتخذوا منها قاعدة تجارية سمحت لهم بالتعامل مع العالم العربي الإسلامي، كما كسبوا مودة الملوك الأفارقة وأقاموا معهم علاقات جيدة سمحت لهم بممارسة نشاطهم كمفاوضين تجاريين .

و يشير "موريس دولافوس" (Maurice delafosse) أنه من الصعب تحديد الوقت أو الظروف التي ظهر فيها المندي لأول مرة في الأرض التي يقطنونها الآن تحت اسم ديولا، كما يذكر بأن مختلف الأهالي في مناطق "كونغ Kong"، "غميني Guimini" و"غيامبالا guiambala " أو "ديامالا Dyamala" قد أخبروه بأنهم يجهلون تاريخ استقرارهم في هذه المناطق، فضلا عن أن الرواية الشفوية الأكثر شهرة في المنطقة تقول بأنهم قدموا من الغرب، و يذكر الرحالة بنغر بان الديولا ظهروا على مسرح الأحداث منذ سنة 1335م أي في السنة التي فر فيها سن على من مالي وأسس مملكة السنغاي الثالثة، واحتلاله لمعظم أراضي إمبراطورية مالي الإسلامية.و يقول الديولا عن أنفسهم بأنهم في الأصل كانوا يتشكلون من خمس عائلات فقط وهي داوو، كيرو، بارو، توري و واتارا، و أنهم ينتسبون كلهم إلى الإمبراطور المالي الشهير منسا سليمان كيتا. لكننا يمكن أن نجد مع الديولا عائلات أخرى مثل ديارا، كوليبالي، ساخو، بمبا، دياكيتي،و تلراوري، الذين ارتبطوا بهم عن طريق المصاهرة.

وتعتبر مدينة جني مهد الديولا، حيث أنهم كانوا يأتون منها إلى منطقة كونغ منذ عدة قرون من أجل ممارسة التجارة، وشيئا فشيئا وجدوا البلد مناسبا لهم فاستقرت بعض العائلات منهم، و نشرت من حولها تقاليدها و نمط لبسها وديانتها التي كانت الديانة الإسلامية. و قد نمت هذه المستوطنات الجديدة بفضل وصول مستوطنات مندية أخرى جديدة، وخاصة عندما تزوجوا مع نساء القبائل المحلية مثل"بوبو bobo"،" كبارهالا Kparhala"، أكني Agni" وخاصة "السينوفو Senoufo"، و من خلال زواج هؤلاء المندي مع نسوة من عناصر عرقية مختلفة ظهرت قبيلة ديولا.

فهي إذن لا تمثل العنصر المحلي الخالص كما يدعيه الديولا أنفسهم، بل يمكن أن نقول أيضا بأن الديولا الخالصين (الأقحاح) عددهم قليل جدا مقارنة بشعوب البلاد التي يسكنوها، لكنهم يتميزون بذكاء أكبر عموما من السكان الأصليين، كما يتميزون بعقلية متفتحة أكثر وأكثر ثقافة خاصة بعد اعتناقهم الإسلام.

كما أن الديولا الأصليين لا يضعون الوشم على أجسادهم عكس أولئك الذين ولدوا من زواج مختلط بين ديولا و سينوفو و الذين يدعون بـ"سورونغي Sorongui" حيث يضعون وشما على خدودهم. و يقطن الديولا مراكز هامة شرق"باني [1] و في فولتا العليا وغينيا العليا، ويعتبرون من كبار الرحالة التجار، حيث يفوقون في ذلك جيرانهم الونغارا إلى درجة أصبح فيها اسم ديولا يعني تاجرا.و يتمركز الديولا في المدن الهامة ضمن جاليات مجتمعة وسط السكان المحليين من المزارعين الوثنيين، وهو ما مكنهم من التضامن أكثر فيما بينهم وإقامة مجتمعات قائمة على أساس ديني وتجاري، وهذا ما زاد في قوتهم ودرجة تأثيرهم على السكان الذين يعيشون بينهم.

ولقد كانت جماعات الديولا تجوب السودان الغربي، وتسيطر على تجارة الذهب بفضل تميزهم بالصدق والأمانة والثقة، وسيطروا أيضا على تجارة نبات الكولا الذي كان يعد نباتا مقدسا لا يجوز لغيرهم تجارته. وكان هذا الامتياز قد تحصلوا عليه من ملوك مالي نظرا لعلاقتهم الوطيدة بهم،

(1) تقع على ضفة ثنية النيجر جنوب مدينة جني.

بالإضافة إلى أخلاقهم وأمانتهم. وفي المقابل كانوا يحصلون على النسيج والمصنوعات الزجاجية والجلود المدبوغة والملح. و بالموازاة مع نشاطهم التجاري كانوا يشكلون دعاة ماهرين للإسلام في المناطق التي يدخلونها، و خاصة المناطق الغابية الجنوبية) .

كان المالنكي خلال العصور الوسطى شعبا محاربا كما أنهم كانوا يمثلون أيضا يمثلون شعبا منسجما، و يعد جزء من شعب الماندينغ الذي يضم ثلاث فروع هي البامبارا الديولا، والمالنكي من أهم الشعوب التجار في إفريقيا الغربية، حيث مارسوا الجارة مع الهوسا والسراكولي، بالإضافة إلى تجارتهم باتجاه المناطق الغابية الوثنية جنوبا أو باتجاه الصحراء شمالا، فقد كانوا يجوبون إفريقيا كلها في كل الاتجاهات من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب. و حملوا الذهب المجلوب من مالي إلى كل من غاو و تمبكتو كما جلبوا نواة الكولا من المناطق الغابية، فلقد كانوا يبيعون هذه السلع إلى التجار البربر والعرب. وبالمقابل كانوا يشترون قطع القماش والمصنوعات الزجاجية والملح القادم من الملاحات الصحراوية. وبفضل هذا النشاط التجاري الواسع تمكن الديولا من نشر ثقافتهم في مناطق بعيدة عن مواطنهم و خارج حدود دولهم فتوغلوا في أدغال الغابات و أسسوا مستوطنات و مقاطعات تجارية داخل الدول الوثنية مثل بوبوديولاسو (bobodioulasso) كونغ، بوندوكو (bondoukou) و غيرها.

ثانيا: الديولا و دورهم في منطقة سنغمبيا:

يبدو من خلال الشواهد الأثرية في سنغمبيا وخاصة في مضارب الولوف بمنطقة الكازامانس أن المنطقة كانت مأهولة بالسكان منذ الألف الأولى قبل الميلاد، و أن عملية استيطان المنطقة قد استمرت إلى غاية القرن الثالث للميلاد، حيث اقتصرت الحياة إلى غاية هذا التاريخ على وجود مخيمات صغيرة منصوبة على كثبان رملية.

و ابتداء من المائة الثالثة بعد الميلاد عرفت منطقة سنغمبيا هجرات أخرى عندما وصلت إليها شعوبا قادمة من الشرق حاملين معهم تقنيات جديدة في صناعة الأواني الفخارية وادخلوا على

المنطقة زراعة الأرز في المياه المغمورة، لكن الهجرة الأهم تبقى تلك التي قدمت إليها من الجنوب والتي قام بها أسلاف الديولا الذين طردوا السكان الذين يقلون عنهم عددا وحلوا محلهم واحتلوا جميع الأودية الواقعة بين دلتا نهر الكازامانس و نهر السندروغو، كما احتلوا منطقة مصب نهر السنغال بالقرب من سان لوي، و نشروا زراعة الأرز المغمور في الماء و استخدموا المجارف اليدوية وبرعوا في صناعة الفخار، و اعتنوا بتربية الماشية، و بذلك انتعشت الحياة الحضرية في المنطقة وتطورت عما كانت عليه.

و كان الديولا يفضلون السفر على شكل جماعات حيث يحرصون دائما على حمل أسلحتهم الخاصة و خدمهم معهم. و كانوا يميلون إلى تشكيل مستوطنات خاصة بهم حول أطراف الغابات جعلوا منها مخازن لسلعهم التجارية، و مع مرور الوقت كوّنوا أسرا خاصة بهم بعدما اتخذوا من النساء المحليات زوجات لهم و انجبوا منهم أطفالا في تلك الغابات عكفوا على تعليمهم وتلقينهم العلوم الدينية عن طريق العلماء والفقهاء المسلمين.

كما انه ابتداء من القرن السادس عشر الميلادي ظهر عامل جديد في خليج غينيا ألا و هو تجارة الرقيق و الأسلحة النارية، و كان هذا الحدث عاملا مهما لتوغل الديولا باتجاه الجنوب في منطقة السافانا سواء كتجار أو كجنود أو كدعاة للإسلام، حيث كانت المنطقة تسوق فيها السلع التي يكثر عليها الطلب وبالتالي تمكن الديولا من إنشاء مراكز تجارية كبيرة على غرار مركز بيغو (Bégou).

و بهذه الطريقة تمكنوا من تأسيس مدن إسلامية وسط تلك الشعوب الوثنية والبدائية، فلقد تأسست بهذه الطريقة كل من مدينة كانكان في جمهورية غينيا الحديثة، و مدينة بوبو ديالاسو بجمهورية كوت ديفوار الحالية، بالإضافة إلى مدينة بيغو بجمهورية غانا الحديث. كما تمكن التجار الديولا من فتح تجارة الذهب بعد الوصول إلى مناجم وبي في بوركينا فاسو الحديثة، و في غابة الآكان في غانا الحديثة، بل وصلوا إلى غاية منطقة كانو بشمال نيجيريا أين استطاعوا تحويل

حكامها إلى الإسلام، و بالتالي يكون دور الديولا في نقل الإسلام إلى نيجيريا حتى قبل درب القوافل التجارية السالكة للطريق الشرقي الممتد من غاو الى أغديس.

ثالثا: الإسلام في منطقي سنسان مونغو[1] و كونجا[2]

حسب ما ذكره الرحالة بنغر(Binger) فإن انتشار الإسلام في هذه المناطق المتواجدة في أدغال السافانا الإفريقية بدأ في النصف الأول من القرن18م حيث يذكر بأنه في حوالي عام 1730 قام زعيم مامبروسي[3] الذي يدعى ناي يري (Nay yiri) بمحاولة إخضاع منطقة ناليريغو (Nalerigu)[4] ودعا(بونو) أي زعماء كل من منطقة بوندوكو (bondoukou) كرومانيا (Groumania) وكذا زعيم نهر كوموي وهو ملك مملكة كونجا ليقدموا له الدعم العسكري في حربه ضد منطقة ناليريغو، وقد كافأ مندي منطقة غرومانيا بمنحهم الأرض التي سميت بسانسان مانغو على اسم موطنهم الأصلي وهو مانغو تورا (Mango-Toura)[5]. وهناك مخطوطات تاريخية خاصة بهجرات الديولا كتبها بعض الأئمة ونقلت من طرف بعض الباحثين الألمان تروي بأن الطريق من مانغو تورا إلى سانسان مانغو تبين بأن انطلاقة الملك بيما بونصافو(Bema Bonsafo)[6] من مانغو تورا كانت يوم جمعة 12من الشهر و وصل إلى المنطقة التي يسكنها شعب

(**1**)**Sansanne-Mango**: مدينة في جمهورية الكونغو الحالية من منطقة السافانا و هي مركز دائرة أوتي(oté) و يمر عليها نهر الكونغو الشهير.

(**2**) Gonja : هي مملكة تقع في شمال جمهورية غانة الحالية كما تطلق على الشعب الذي يسكن هذه المملكة، ولقد اثر الكونجا بشعبي الاكان و شعب المندي.

(**3**) تقع مامبروسو أو مامبورسي(Mampursi) في الضفة اليسرى لنهر الفولتا الأبيض و يحتوي على مدينتين مركزيتين هما (وال-والي) و (كامباخا) كانت في عهد بنغر (أواخر القرن19) عبارة عن دولة صغيرة يحدها من الشمال الموسي، و محاطة من جهة الشمال الشرقي بشعب الغورمانشي(و هم فرع من الموسي أيضا) من الشرق يحدها البوسنكسي و من الغرب يحدها شعب الغورونتسي.(Binger,du Niger au golf du Guinéen : Op. Cit, Pp37,38.

(**4**) مدينة صغيرة تفع شرق مامبروسي شمال جمهورية غانة الحالية.

(**5**)Binger,du Niger au golf du Guinéen : Op. Cit, p912.

(**6**) هو أول ملك لمملكة مونغو و مؤسس عائلة سوما الطوغولية 1898م و تقول الروايات المحلية بأنه خاض حربا ضد مملكة كونجا في منطقة غورما(gourma) سنة1751م و انتصر عليهم و أسس أول مملكة في منطقة اوتي(oté

البادارا بعد أسبوع من ذلك، وقد انتصر في اليوم التاسع و العشرين من نفس ذلك الشهر، حيث غزا نغورومي(او غورما) وقتل زعيمها و بقي فيها لمدة 13 شهرا، و بعد قتله لزعيم نغورما جلس إليهم ملك مملكة جابو(jabo) و أرسل ابنه إلى الإمام مع ثلاثة و سبعين(73) من العبيد ليطلب منهم القدوم إلى مجلسه في كانديا(Kandia) بعدها قاموا بقتل زعيم إمارة كنديا ثم استقروا بها لمدة 13 شهرا. أما مانويل(Meanwhile) ملك مامبوروغو (Mampurugu) فقد أرسل رسالة إلى ملك جابو عن طريق إمام منطقة كوسواغو (Kusawgu) الذي أرسل ابنه إدريسا إلى ملك جابو ثم أرسل بعد ذلك ابنه بريما و إمام شنسينا إلى كنديا و أخبرهم بالرسالة التي أرسلها ملك مامبروغو و قدم لهم ابنه على أساس مرشد و موجه لهم.

وعن طريق هؤلاء الأئمة الديولا بدأت طائفة الديولا تتوغل داخل منطقة الغابات و تتقرب من ملوك إماراتها وخاصة مع ملوك كونجا الذين ارتبطوا بهم ارتباطا وثيقا. و كان هؤلاء الأئمة ينتمون إلى منطقة كمبايا(Kambaya) التي يعود أصل سكانها من جهة الأب إلى أخوين هما كازاما (Gazama) و أمادو بنداويو(Amadu Bandawiu) وهما أبنا رجل يدعى يوسف كان قد استقر في كوت ديفوار وهو ينتمي إلى عشيرة كبيرة من الديولا التي احتلت منطقة كونغ.

و كانت أول عائلة مندية من التجار الديولا استقرت في حقل غومبو(Champ de Gombos) في منطقة بيغو(Biegho) بالكنغو[1] هي عائلة كاراماتي (Karamaté) و التي أصبح أفرادها زعماء القبيلة التي يمثل الديولا فيها ثلاثة أرباع السكان فيها.

أما المنغو أو المانو فيمثلون طبقة المولدين من تزاوج النغان(N'gan) بالمندي، كما أن الأنو أو الانوفوي(Anonofoué) جاؤوا إلى منغو عن طريق غزوات متتالية إلى أن أصبحت البلاد تحت سيطرة زعيم مندي من الديولا هو ديان واتارا(Dyan ouattara)، و بالتالي فقد كان هؤلاء المندي الديولا الذين يمثلون الزعماء السياسيين لهذه البلاد هم كلهم من آل واتارا و قد قدموا سواء من

(1)يعد نبات الغومبو و هو فاكهة الباميا من اشهر الفواكه التي تستهلك بكثرة في الكونغو.

سانسان مانغو بالطوغو أو من أنو(Anno) أو داغومبا ومنهم اتخذت البلاد اسم منغو، وكانوا كلهم وثنيين قبل اعتناقهم الإسلام.

رابعا: دور الديولا في منطقة فوهوبيلي في كوت ديفوار:

1.من هم الفوبيلي(Fohobélé)؟:

الفوهوبيلي هم سكان ما يعرف اليوم بجمهورية كوت ديفوار و الذين يسكن معظمهم اليوم دائرة فرونان(fronan) في مقاطعة كاتيولا(katiola)، ويعد اسم فوهوبيلي غير معروف اليوم بالنسبة لسكان المنطقة و جيرانهم و حتى بالنسبة للمؤرخين، بحيث لا يستعمل إلا من طرف الفوهوبيلي أنفسهم، ولكنهم يعرفون بكونهم سونوفو باعتبارهم ينتمون إلى هذا الفرع المندي.

و لقد اشتقت كلمة فوهوبيلي من كلمتين هما فرو(fro) وتعني لزج أو تزحلق و بيلي(bélé) وتعني الذين، و بالتالي فإن تركيب الكلمتين يعني (الذين يتزحلقون). و هناك من يقول بأن الكلمة تعني أولئك الذين يجعلون غيرهم يتزحلقون أو يسقطون. أي يطيحون بغيرهم.

و فيما يخص سبب إطلاق هذا الإسم عليهم فهناك عدة روايات منها من يذهب إلى أن الفوهوبيلي هم الشعب الذي يتميز بموهبة و قدرة على جعل محدثيه من غير الفوبيلي على النطق بكلام عكس ما يريد قوله و بالتالي يتحول محدثهم إلى إنسان مغاير لما يريد أن يكون. وهناك فريق آخر يذهب إلى أن الفوبيلي هم شعب قادر على جعل محدثيهم يعتقدون بأنهم على خطأ حتى وإن كانوا على حق، فهم شهب ذكي و ماكر. أما المجموعة الثالثة فهي تقول بأن الفوبيلي هم شعب يحكمون على الناس بأقوالهم و اعمالهم لان الاقوال وحدها قد تخدع أصحابها. اما المجموعة الرابعة فتقول بان هذا الاسم اعطي لهم لانهم يقولون دائما الصدق.

2 . أصل الفوبيلي:

هناك روايات تقول بأنه كانت هناك عائلة مكونة من ستة أفراد لديهم آم واحدة كانت تسكن مكانا ضيفا و في إحدى الأيام أرادت الانتقال إلى مكان أوسع و قد كلفت الأم أبناءها الستة بالبحث عن مكان أوسع، و أن العائلات الستة هي التي كونت ما يعرف اليوم بتاغبانا (Tagbana) أي الفوهوبيلي، و تذهب روايات أخرى إلى أن الفوهوبيلي قدموا من منطقة كوتيالا الواقعة في بلاد المنينكا بمالي، ولقد دفعت الحروب و نقص الأراضي الخصبة والفقر بهؤلاء الفوهوبيلي إلى الهجرة باتجاه الجنوب ووصلوا إلى غاية تيبيسو (Teibéssou) و تومودي(Toumodi) في بلاد الباولي الحالية التي وجدوها غير مسكونة. وكانت أول قرية أسسها الفوهوبيلي هي كانانغونون (Kanangonon).

3. وصول الديولا الى منطقة الفوهوبيلي:

لا يوجد تاريخ محدد لوصول الديولا إلى منطقة جنوب منعطف النيجر، لكن المعروف أن هناك عدة موجات كبيرة من الهجرة إلى المنطقة حدثت خلال القرون 13،11 ، 14، 16 و18 الميلادية جلبت معها هجرات فردية من التجار المدفوعين بحب المغامرة التجارية، وكانت مجموعات من التجار الديولا قد توغلت في المناطق الغابية و في بلاد السينوفو وارض الفوبيلي قبل انهيار إمبراطورية مالي لكنها ازدهرت بعد سقوطها خاصة خلال القرنين 16و17م. وبعض هؤلاء الديولا سلكوا طريق القوافل الذي يربط سيكاسو ـ بوبو ـ بنفورا ـ وانغولو دوغو ـ تافيري ـ كاناغونون. و رغم أنهم لم يؤسسوا قرى أو أحياء خاصة بهم في طريقهم لكنهم تركوا ممثلين تجاريين لهم على طول الطريق لذي سلكوه.

و لقد تأثر الفوبيلي بالتجار الديولا حيث اخذوا عنهم النظام الأسبوعي المكون من سبعة أيام عوض النظام المكون من ستة أيام الذي كان الفوبيلي يتبعونه، كما دفع الديولا السكان الأصليين من الفوبيلي إلى تغيير أسمائهم بأسماء أعيان الديولا، حيث تحولت أسماء زعماء الفوبيلي مثل هي، ثيو، هورو هيلي، هالا وغيرها إلى أسماء عائلات الديولا المسلمين مثل واتارا، توريت، كوليبالي،

كوني، تراوري و كامارا. كما دفعت تأثيرات الديولا بالفوبيلي إلى تغيير الألقاب التي كانوا يضيفونها لأسمائهم مثل لقب دوغو(Dougou) عوض كاها(Kaha) التي كان يتخذها الفوبيلي) .

4. المنغورو و دورهم:

كما قدم من بلاد المندي(مالي) و خاصة من كنغابا إلى منطقة الفوبيلي فرع من الديولا يعرفون بالمانغورو (Mangoro)، و كان المنغورو كبقية الديولا قد اعتنقوا الإسلام قبل هجرتهم إلي الجنوب، بعدها هاجروا إلى منطقة سيغيري (Siguiri) ومنها الى اوديني(Odienné) و منكونو (Mankono) حيث أسسوا قرى مثل تنكاسو (Tankaso) نياكالي (Niakali) ونانكارا (Nankara)، وهنا ظهرت منهم ثلاث فروع كبرى وهي عائلة كوني (les koné)، عائلة واتارا أو عائلة ساكبي (Sakpé) بالإضافة إلى عائلة كوليبالي Coulibaly) .

و مع بداية القرن 18م قرروا الهجرة إلى منطقة كاتيولا(katiola) التي كانت تربتها شديدة الخصوبة، و منها بدأ المانغورو ينتشرون في المنطقة في حين أن احد فروع واتارا اتجه نحو الشرق فعبروا نهر نزي(Nzi) وتوغلوا في منطقتي جيميني (Djimini) وجامالا (Djamala) بشرق البلاد، كما أن بعض العناصر من عائلة كوليبالي اتجهت نحو الشمال واستقرت في منطقة داراكولوندوغو(Daracolondougou) في قلب الفوهوبيلي ثم شيئا فشيئا توغلوا في باقي بلاد الفوبيلي. بعد استقرارهم في المنطقة شرعوا في صناعة النسيج و الألبسة، كما اهتموا بالزراعة والصيد، اما نساؤهم فقد اهتموا بصناعة الفخار حيث كانوا يحتكرون سر تقنية هذه الصناعة وأبقوها سرية. حيث كانوا يصنعون بالطين البط و المزهريات و عدة إشكال أخرى من الأواني المنزلية ذات جودة عالية و يبيعونها في أسواق القرى المجاورة.

و لقد تسبب استقرار الديولا من المانغورو في منطقة الفوبيلي في بعض المشاكل، حيث أنهم كانوا يرفضون إقامة أي علاقة مصاهرة مع الفوبيلي أو العناصر الأخرى وهذا مخافة أن ينتقل سر صناعة الفخار و تقنيات الزراعة و غيرها من العلوم و الفنون التي يحتكرونها إلى غيرهم، كما أنهم

كانوا يملكون أراضي لا يملكها الفوبيلي. لذلك كان لزاما على الطرفين إيجاد نمط اجتماعي يكفل الانسجام و التناغم بينهما، حيث تم تقسيم المهام و الحرف على حسب الطوائف، فاحتفظ المانغورو بصناعة الفخار في حين أصبحت الزراعة من اختصاص الفوبيلي وغيرهم من سكان المنطقة.

خامسا: ثورة الديولا في كونغ:

قبل وصول الديولا إلى منطقة كونغ كانت هذه الأخيرة موجودة لكنها لم تكن سوى مجرد مكان بدون أهمية، فالديولا لم يكن يسمح لهم بالاستقرار في هذه المنطقة من طرف الأهالي لذا سكنوا مناطق مجاورة لكونغ مثل تيننغيرا (Ténenguéra) بالإضافة إلى قرية صغيرة اندثرت الآن(تبعد باثنين أو ثلاثة كيلومترات عن كونغ) كانت تسمى ليمبالا(Limbala)[1].

و لقد جاء الديولا إلى كونغ من إتجاهين مختلفين، فبينما قدمت عائلات واتارا، داو، بارو، وتوريكونوا من منطقتي سيغو و جني الماليتين، تكون عائلات كل من سيسي، ساخا، كامارا، دانيوخو، كوروباري، تيميتي، تراوري و فرع من عائلة واتارا قد قدمت من منطقة تنغريلا- نكوخو (Tengréla- Ngokho) التي كانت تعد أنذاك أكبر مركز تجاري بكوت ديفوار، كما ان هذه الهجرات لم تكن هجرات جماعية و إنما كانت هجرات متقطعة وعلى مراحل، و بفضل تفوقهم عن السكان الاهالي من حيث الذكاء و النشاط، و بفضل إسلامهم فقد تمكن الديولا من كسب مكانة مميزة في هذه البلاد ومن التاثير في سكانها.

ولقد عرف شمال شرق كوت ديفوار مع بداية القرن18 حالة من الاضطرابات أثرت على الحياة الاقتصادية لمدة طويلة حيث حدث ما يشبه الارستقراطية الحربية سيطرت على البلاد، بالإضافة إلى فشل السلطة في كونغ في السيطرة على مشكل الهجرة المتزايدة والنمو الكبير للسكان، فاستغل هذا الوضع الشباب الديولا ذوي التربية و ثقافة إسلاميتين والمتذمرين من انتشار

التقاليد الوثنية السائدة في ظل حكم لازيري غبومبيلي(lasiri gbombelé) لذلك بدأوا ينادون بتغيير تلك الأوضاع.

فكانت إذن مرحلة الانتقال من حضارة ريفية قائمة على خدمة الأرض، الصيد، والحرف إلى حضارة مدنية صاعدة وقائمة على التجارة و الثقافة الإسلامية. لهذا بدأت ثورة الديولا بالتعرض للجنود و أتباع النظام الحاكم في المدن الرئيسية كما أن المحاربين الديولا التابعين لآل تراوري بدأوا يشنون هجمات على القوافل العابرة للبلاد.

وفي سنة 1705 تفاقمت الأزمة عندما قام أحد الديولا وهو الشيخ عمر عبد القادر و(المشهور باسم الشيخ أو الشريف) بتزعم ثورة أخرى، و كان الشيخ عمر هذا قد كون ثروة طائلة من التجارة، فكانت مقاومته تقوم على توجيهه ضربات متقطعة ضد التجار بهدف شل الحركة التجارية لمملكة كونغ، ثم قرر بناء رباط في جبل غرووي(Gorowi) منحه اسم باتوني (Patoni) و كان رباط باتوني هذا متمركز فوق قمة جبل غوروي و محصن من جهاته الثلاث عن طريق حصن أو دياسا(Dyasa) ولديه ثلاث فتحات تسمح بتصويب العدو في حالة محاولة تسلق الحصن(. بينما قام صاحبه المعروف بالشيخ ديدي كراموكو (Didi karamoko) ببناء معسكر آخر في الرباط الذي اتخذ إسم داغا (Daga). و كان أهل الرباط يلقبون بووج ووج (woj woj) والتي تعني الشهادة ولا شيء غير الشهادة أي أنهم قرروا الاستشهاد في سبيل الله، وبذلك بدأ التحضير الجدي للجهاد ضد نظام(لازيري غبومبيلي.

وحسب الروايات الشفوية الخاصة بالقصر الملكي لمملكة كونغ فإن الديولا المرابطين بحصن باتوني كانوا يتلقون الأسلحة النارية عن طريق موانئ خليج غينيا مثل باسام(Bassam) كاب كوست (Cap Coast) المينا(Mina) و غيرها، و كانوا يحصلون على الخيول لفرسانهم من دافينغن. كما استفاد الشيخ ديدي كاراموكو من خدمات أحد المغامرين يدعى البارو بشارو (Albaru-Basharu) و هو محارب من فلاته منطقة مسينا.

و تتفق كل الروايات على أن البارو هذا يعتبر شخصية فذة و عبقرية عسكرية و فقيه على المذهب المالكي، فلقد استغرق أربع سنوات من(1705الى 1709) ليكوّن جيشا نظاميا منسجما يضم من 500الى700 فارس مجهزين بالبنادق بالإضافة إلى كتيبة من المشاة تتكون من 1000 الى 1500 جندي متخصصين في الرمي بالرماح و السهام. و كان معظم جنوده ليسوا من الديولا بل من النوبي(Nobé) و من الزازيري (Zazéré) و كذا التييفو(Tyéfo) المتعودون على حرب العصابات و النهب و السطو على القوافل الذين يستولي عليهم جنود البارو. و كان يستفيد أيضا من المساعدات التي تأتي من مسلمي كونغ الذين كانوا يزودون القوار بالسلاح و الخيول والمؤونة، فيذكر بأن هناك رجل يدعى بارو بانيكو(Baro baniko) الذي جهز بماله الخاص120 فارس، و كذا بادياكو تراوري (Badiako Traoré) الذي سلح 380جندي من ماله الخاص.

وفي بدايات سنة 1705 م جهز الشيخ عمر قواته ضد ملك كونغ، وكان جيشه يضم ثلاث كتائب نظامية أوكل قيادة الكتيبة الأولى إلى أخيه فاماغان، بينما قاد الثانية البارو، أما الثالثة فقد قادها هو بنفسه، كما انضم إليه ملوك المقاطعات من الوثنيين. و لقد بدأت المعارك على بعد حوالي عشر كيلومترات من مدينة كونغ تفوّق فيها جيش الشيخ عمر ودخل كونغ منتصرا أين استقبل بهتافات كانت تناديه بشيخ الإسلام أو شيخ واتارا والتي تعني (الشيخ المنتصر) أو(وريث الشيخ).

و بهذا بدأ الشيخ عمر يتصرف كزعيم وحيد لمملكة كونغ دون أن يستشير بقية أمراء المقاطعات من الوثنيين، كما قام بتقطيع جثمان الملك لاسيري و نكل بجثامين أبنائه و جميع معاونيه، و قام بدفن رأس الملك لاسيري جنوب الساحة الكبرى للسوق و أقام عند مدخل حي كيريو(Keréu) و هو حي زعماء كونغ بابا كبيرا وذلك حتى يضطر التجار المتجولون في كونغ إلى التجمهر فوق المكان الذي دفن فيه ملك كونغ الوثني. لكن هذا الوضع بالإضافة إلى اعتدائه على الزعماء الوثنيين وتدميره لمعابدهم ورموزهم الدينية تسبب في ثورة الوثنيين وبعض ملوك المقاطعات

عليه، حيث رفضوا انفراده بالقرار و قرروا حمل السلاح من اجل الإطاحة به و إخراجه من مدينة كونغ.

و هكذا اندلعت حرب أخرى لكن هذه المرة بين أنصار الشيخ عمر و الماسايا(أي الملوك المحليين) الذين كانوا في البداية حلفاء له خلال ثورته ضد الملك لاسيري. وقد عرفت هذه الحرب باسم بان كيلي(Ban-kélé) أو بالاكا(Palaka) و تعني الثورة بلغتهم، ودامت هذه الثورة إلى من شهر مارس إلى شهر نوفمبر من 1710م و تسببت في مقتل الآلاف من الأشخاص وقتل فيها جميع قادة الماسايا، و بالتالي تخلص الشيخ عمر الذي تحول اسمه إلى سيكو واتارا(Séko Wattara) ثم توجه لمحاربة الكومونو(Komono) وهم حلفاء الملك السابق لاسيري غبومبيلي، وكان ملكهم الذي ينتمي إلى أصول مندية ويدعى بونغو (Bango) أو(Bungo) قد حصن حدوده مع كونغ جيدا، لكن سيكو واتارا انتصر عليه وألحق مملكة الكومونو بمملكة كونغ.

1. ظهور سيكو واتارا و دوره:

إن تاريخ سيكو واتارا وصل إلينا بفضل ما نقلته لنا الروايات الشفوية المحلية، و لقد ولد الشيخ عمر حسب هذه الروايات سنة 1670م، و يكون قد تولى الحكم في سن الأربعين عمره حسب هذه الروايات. كما تذكر المخطوطات التي ما تزال تحتفظ بها مدينة كونغ بأن الشيخ عمر ولد قبل أخيه فاماغان بخمس سنوات، و أطلق على سيكو واتارا لقب الشيخ لعلمه ونسبه الشريف، حيث تروي بعض روايات (البوبو- ديولاسو) انتسابه من حيث الأم إلى إلى الصحابي الجليل و فاتح مصر عمرو بن العاص،كما أنها تضيف بأن إحدى حفيدات الشيخ عمر تزوجت من احد الأشراف من عائلة تنتسب إلى نسل الرسول. لكننا لا يجب أن نعوّل كثيرا على هذا الادعاء لأنه جرت العادة بالنسبة لجميع الممالك الإفريقية وعشائرها الكبرى ادعاء الانتساب إلى نسل الرسول صلى الله عليه وسلم أو الى أشراف مكة أو قريش من بني أمية و بني العباس أو إلى الصحابة، وهذا من أجل إضفاء الشرعية لحكمهم.

وتشير نفس هذه الروايات إلى أن الشيخ عمر قد تأثر كثيرا برجلين وأثرا في حياته واحد يدعى دو دابيلا(Dau Dabila) والآخر يدعى كراموكو ديبي (Karamogo Dibi)، الأول رباه مثل ابنه حيث علمه زراعة الأرض والنسيج الذي برع فيه الشيخ، و الثاني علمه فنون القتال حتى أصبح قائدا عسكريا محنكا و مخطط استراتيجي ماهر حيث اعترف له الأعداء بأنه كان يعرف كيف يجبرهم على القتال في ظروف ليست في صالحهم.كما كان رجلا مقداما و صادقا مما اكسبه حب الناس الذين يقاتلون الى جنبه.

و لقد كانت فترة وجوده بالجيش قصيرة، ففي نهاية سنة1700 و بعد انقلاب عسكري فاشل ضد الملك غبوميلي لاسيري اضطر إلى الهروب إلى الغابة هو أتباعه، لكن هذا الانقلاب الفاشل أحرج ماغان واتارا (Maghan wattara) ملك إمارة تنيجيرا(Ténégéra) التابعة لملك كونغ و الذي تكفل بحمايته، فقرر هذا الأخير معاقبة الشيخ بدفع 600عبد. بعدها بدأ الشيخ بممارسة مهنة التجارة التي اكتشف صعوباتها و كذا مخاطرها الجمة فاتجه الشيخ الى استدعاء رفقائه في الجيش وكون منهم مليشية مسلحة مكونة من العشرات من الفرسان المزودين بالبنادق و600 من حاملي الذخيرة وكلفهم بحماية قوافله التجارية من الاعتداءات.و بهذه الطريقة ازدهرت تجارته و تجارة متبنيه دابيلا، وكانت تجارتهما تقوم على بيع الزرابي، ألواح الملح، نواة الكولا، الذهب، العبيد والقماش) .

بين سنتي 1700و 1710 أصبحت قوافل سيكو واتارا تؤم أسواق ورودوغو (Wordugu)، مانغو(Mango)، آنو(Anno) و بيتوغو(Bittugu) بندوغو(Bendugu)، لوبي(Lobi)، داغومبا(Dagomba) و كونجا(Conja) وخاصة سوق سالاغا(Salaga) بعدما مُنع عنهم سوق مدينة كونغ بطلب من ملكها، واستطاع سيكو واتارا قبيل تنظيمه للإنقلاب الثاني جمع ثروة طائلة جعلت سمعته تتجاوز الحدود الشمالية لكوت ديفوار، وكان بالإضافة إلى غناه رجلا عالما تقيا ورعا، وترك بعد وفاته اثنتا عشرة ولدا خلفه منهم كومبي واتارا الذي تصفه الروايات الشفوية بالأمير النشيط و الحيوي المقدام والشجاع والصارم، و لقد توصل هذا الأمير إلى أن قوة مملكة كونغ

الإسلامية الناشئة لا بد أن تقوم على ثلاث عوامل رئيسية وهي التجار، الجيش و الإسلام، وبذلك اتخذ لقب فاما(Fama) و تعني الملك عند الديولا ثم بدأ إصلاحاته التي بدأها بالجيش.

إن الفاما الجديدا(وهو ملك الديولا الجديد) كان ملكا مسلما لكن الجيش الذي أسسه ضم عدد كبير من الوثنيين لذلك فلم يكن مسموح له بإغضابهم، لهذا كان يحاول ايجاد التوازن وحفظ مصالح التجار المسلمين و الوثنيين على حد سواء.كما حاول الحفاظ على وحدة الوطن الذي أرهقته الحروب، فكان عليه كسب ود العائلات الكبيرة مثل عائلات فالافالا (Falafala)، ميورو(Myoro)، غبن (Gben) و واتارا(Wattara). فعمل على تنظيمهم و جعلهم في خدمة التجارة، الزراعة والإسلام. كما أهمل المصطلحات الوثنية وعوضها بالمصطلحات الإسلامية، و منع استعمال الكلمات المشينة التي كانت تطلق من طرف المسلمين على الوثنيين، و اصدر عقوبات مالية و السجن و الجلد لكل من يصف الواتارا بالوثنيين.

كما اعتنى الشيخ بالجيش الذي اعتبره عمود الدولة، فأسس جيش مكون من جنود شباب وأقوياء مسلحين جيدا و مؤطرين من طرف الكونجا(Conja)، كما انشأ قاعدة عسكرية سماها (داغارا) أو (داخارا) أو (داغا)على بعد30كلم شمال غرب كونغ في الموقع الذي يسمى اليوم دامباريا(Dambaria) و قد لقب المتخرجون من هذه القاعدة بسونانجي(Sunanji) اما المؤسسة فسميت بالسونانجية(Sunanjia) و هي كلمة مستمدة من المصطلح الإسلامي وهو السنة وبالتالي فهو يعني أصحاب السنة. و كان السوننجية يؤدون اليمين بعدم الهروب أثناء الهزيمة في الحروب و يفضلون الموت.

وهناك شيء آخر كان يشغل بال الشيخ واتارا وهو أولئك الديولا و المندي المسلمين الذين بدأوا يتخلون عن الإسلام و تحولوا إلى الوثنية مثلما حدث مع عائلتي تراوري و كوليبالي، لهذا فلقد كان عليه الاعتماد على التسامح الديني في حكمه و الاستناد إلى المؤسسات الوثنية التقليدية السائدة لكسب الشرعية لحكمه، صحيح انه حطم دور عبادة الأوثان الموجودة في الحواضر والمدن،

ذلك لإرضاء المسلمين لكنه في المقابل اعترف بأهمية معتقد الأشجار المقدسة [1] في التربية وتكوين الإطارات العسكرية الجديدة.

قام داغارا (Daghara) بتكوين ثلاث أنواع من الجند وهم، السوننجي المعروفون، الديولاديون والبامباديون. الفريق الأول كان في البداية مكون من رؤساء الأراضي والقرى، وجنوده مؤهلين ليكونوا ضباطا و قادة للجيش، أما الثاني فهو مكون من العبيد حيث أن تسميتهم بديولاديون يعني (عبيد الديولا) وهذا النوع يمثل الجزء الأكبر من الجيش. أما المجموعة الثالثة من المحاربين فقد كان يتكفل بها بامبا (Bamba) وهو الخادم الوفي للملك سيكو واتارا و كانت مهمتهم هي الدفاع عن مؤسسات الدولة و ضمان امن الملك. و لقد كان سيكو واتارا يضمن للجيش المبيت و المأكل والملبس بالإضافة إلى المكافآت المالية التي كان يقدمها له.

عند وفاته ترك سيكو واتارا اثنتي عشرة (12) ولدا تقاسموا السلطة فيما بينهم، و فرضوا النظام في كل البلاد و خاصة على الطرق التجارية المؤدية إلى كونغ، و كان واحد منهم وهو أكبرهم ويدعى كاراموكو أولي واتارا يستحوذ على أن لسلطة العليا وحكم لمدة أربعين سنة و كان مقره بكونغ. بينما كان يسير المقاطعات و القرى أشخاص من الديولا لكنهم ليسوا من عائلة واتارا، حيث كانوا يستعينون بمجلس القبيلة و يستشيرونهم في القضايا الشائكة التي لم يتمكنوا من البت فيها بمفردهم. و بالتالي حرس هذا الملك على إقامة نظام شبه برلماني قائم على الشورى كان يهدف من خلاله إلى منع أفراد أسرة واتارا من الاستبداد بالحكم والرأي.

وعموما فإن أحفاد سيكو واتارا استمروا في حكم مملكة كونغ خلال القرن الثامن عشر رافعين راية الإسلام في تلك الأدغال قبل أن تدخل الدولة في صراع مع فرع أخر من الديولا و هم بوبو ديولاسو (أي ديولا منطقة البوبو) بين 1753 و1770م قبل أن يقوم ابن كومبي وهو ديانجينا

(1) إن الخشب المقدس هو غابة أو أشجار يمنع الصيد أو السكن فيها، و ذلك لأسباب دينية أو عقدية، إن الأشجار المقدسة هي في العموم أماكن مخصصة لإقامة طقوس و مراسيم دينية. و تعتبر من طرف السكان الذين يحرسونها بمثابة ملجأ للأرواح والآلهة. و ما زالت هذه الغابات المقدسة تحظى باهتمام الأفارقة إلى اليوم رغم ضمن المجتمعات المسلمة.

موري ماغاري(Dyangena Mori Maghari) والذي خلف أباه على عرش مملكة كونغ من توحيد مملكتي كونغ و بوبو ديولاسو، وأعاد لكونغ و لآل واتارا دورهما في نشرالإسلام و تثبيته في أراضي الغابات الاستوائية الإفريقية إلى غاية ظهور حركة ساموري توري الإسلامية خلال القرن 19م التي وضعت حدا لهذه المملكة العظيمة.

إن طائفة الديولا لا تمثل في الحقيقة إلا نموذجا لقدرة الإسلام على التلون بألوان المناطق التي يحل بها في إطار البعد الكوني والإنساني لعقيدته، كما أن الديناميكية التي تميزت بها عائلة واتارا في تمكينها لنظامها السياسي و حفاظها على دورها الاقتصادي في ظل إيجاد مناخ من العلاقات مع العشائر المجاورة لها وسط منطقة تبدو للوهلة الأولى غير مهيأة للتجاوب و التعايش مع الآخر إنما يبرز لنا بدون شك تلك القيم الإنسانية والاجتماعية وحتى الذهنية التي كسبتها هذه العائلة السودانية من الدين الإسلامي وهو ما يؤكد بالفعل نظرية الإسلام الأسود التي أقرها الكثير من المؤرخين الأوربيين خلال فترة الستينات من القرن الماض(.

ثانيا: الإسلام في ممالك الفولتا ودور طائفة الياسي

لقد عرفت منطقة غرب إفريقيا عدة ممالك اشتهرت من خلال المصادر العربية ، لكنها لم تتحدث عن بقية الممالك الوثنية التي تقع في منطقة الغابات أو الأدغال، إلا بوصفها بأنها شعوب بدائية و متخلفة، فتارة يذكرونها باسم بلاد الهمج، وتارة بلاد الدمدم، دون أن تذكر تفاصيل عن شعوبها و ممالكها وحضارتها، و من هذه الشعوب التي بقيت مجهولة نذكر شعوب منطقة نهر الفولتا، وهي شعوب وثنية بقيت منعزلة، لم تربطها علاقات بدول الشمال، فكان أول ذكر لها من طرف المصادر العربية ما ذكره محمود كعت في كتابه تاريخ الفتاش، بعد ذلك بدأنا نجد ذكرا لها عند الرحالة البرتغاليون.

ورغم قلة المصادر التي تحدثت عن هذه الممالك، فلقد حاولنا من خلال هذه الدراسة توضيح الدور الحضاري الذي قامت به ومدى مساهمتها في بناء الصرح الحضاري العالمي من خلال بناء

نموذج حضاري إفريقي خالص، كما سنحاول من خلال هذه الدراسة توضيح ذلك التأثير الذي أدخلته طائفة اليارسي في ممالكها وحضارتها، من خلال إدخال عقيدة الإسلام والكثير من القيم الإسلامية و حتى التقنيات التكنولوجية التي كانت مجهولة عندهم، وهو ما أنتج لنا نموذج لممالك افريقية ذات مواصفات افريقية خالصة بتأثير إسلامي واضح.

أولا: أوضاع منطقة الفولتا و شعوبها قبل الإسلام:

1. الموقع الامتداد الجغرافي:

ارتبط اسم هذه المنطقة باسم النهر العظيم الذي يعبرها، و هو نهر افولتا الذي يعد من أهم انهار غرب افريقيا ينبع من دولة بوركينا فاسو الحالية ويصب في خليج غينيا اين توجد جمهورية غانة الحالية(ساحل الذهب سابق)، و يمر عبر مجراه الأسفل بعدة دول مثل جمهورية البنين،كوت ديفوار، مالي غانة و طوغو، كما خلال مساره ومجراه يمر بمراحل و في كل جزء من هذا المسار يتخذ اسما معينا، ففي الجزء الأوسط من إفريقيا الغربية يتخذ اسم فولتا الأحمر ثم فولتا الأسود ثم فولتا الأبيض.

و تمتد المنطقة محل الدراسة على مساحة تتجاوز حدود نهر الفولتا، وتمتد من منعطف نهر النيجر في الشمال الشرقي، و تصل في الجنوب إلى غاية كوت ديفوار في الجنوب الغربي، وإلى غاية مشارف منطقة الغابات الاستوائية في الجنوب) .

2. شعوب منطقة نهر الفولتا:

يطلق اسم شعوب الفولتا على تلك الشعوب التي سكنت منطقة الفولتا و التي تنحدر من نفس السلالة، لكنها ليست بالضرورة استقرت في نفس المكان، حيث حدثت هناك هجرات دفعت ببعض هذه الشعوب إلى تغيير أماكن استقرارها ودفعت أخرى إلى الاختلاط ببعضها البعض و هو ما جعلنا نصنفها إلى مجموعات رغم أنها تنتمي إلى نفس العائلة البشرية.

أ. مجموعة التومبو(Les tombo)

و تضم هذه المجموعة التومبو و الدوغوم، ولقد حافظوا على نقاوة سلالتهم و خصائصهم الفزيولوجية بسبب مهارتهم القتالية ومقاومتهم لكل محاولة الغزو الأجنبية القادمة إلى أرضهم من طرف الأجانب مثل الفلاتة وملوك مالي و سنغاي و الياتنغا وحتى باشوات تنبكتو خلال القرن 16م، كما يشترك التومبو في الكثير من الخصائص مع الماندينغ، وخاصة فيما يتعلق بنزوعهم إلى الاستقلال. ربما بسبب أوجه التشابه هذه دفعت بعض الروايات إلى ربط التومبو بأصول مندية أو على الأقل قسم منهم جاؤوا من بلاد المندي.

ب. الغورونسي(Les gourounsi)

كان هذا الشعب من الأوائل الذين سكنوا وسط منطقة الفولتا، و هم شعب مسالم لكن تنظيمه السياسي بسيط يقتصر على رئيس القرية و بدون سلطة مركزية، لهذا كان من السهل أن يتعرضوا في تاريخهم إلى الكثير من الهجمات المصحوبة بالنهب و السلب، و هذا ما أدي إلى امتصاص العديد من الغورونسي و ضمهم إلى هؤلاء المعتدين من الموسي او الداغومبا وتمتد مجالات الغورنسي إلى غاية جمهورية غانة الحالية. و ينقسم الغورونسي إلى مجموعات صغيرة مستقلة عن بعضها البعض، وهي: مجموعة ليلا(Léla) في الشمال، نابوا(Nabwa) وكو(ko) في الغرب، سيسيلا(Sissila) وكاسينا(Kasséna) في الجنوب، وفافارا (Fafara) و نانكانا (Nankana) في اقصى الجنوب الشرقي.

و يعد الغورونسي مربو ماشية و رعاة بالدرجة الأولى و خاصة الخنازير والأبقار، لهذا تجدهم يتعرضون للغزو من طرف جيرانهم الغزاة، كما يمتهن بعضهم البستنة و التجارة ، ويتميز الغورونسي باحترامهم الشديد للتقاليد فلا يوجد لديهم زعيم لكنهم يحترمون صاحب الأرض أي مالك الأرض، الذي يعد حارسا و حاميا للتقاليد، فالذي لا يحترم التقاليد عندهم يجبر على ترك القرية والذهاب للعيش بعيدا عنهم، و يندرج ضمن شعب الغورونسي مجموعات أخرى هي: نيونيوزي، نونوما(Les Nounouma)، سيسالا(Les Sissala).

ج. الموسي:

يطلق عادة على الموشي او الموسي أولئك السودان القادمون من الجنوب من بلاد داغومبا الموجودة عند خط عرض 10 شمال خط الاستواء، حيث يتمركزون شمال شرق ساحل الذهب (غانا الحالية) ، او ما نسميها منطقة نهر الفولتا الذي يقطعها. ويبدو أن هذه التسمية اشتقت من كلمة موشي التي ذكرت في تاريخ الفتاش و تاريخ السودان، و استعملها الأوربيون بدورهم، ذلك لان كلمة موسي لا توجد في لغة شعب الموسي و انما يطلقون على بلدهم اسم موغو(Mogho) أما لغة الموسي فيطلقون عليها اسم موغي (Moghé)، والرجل الذي ينتمي إلى الموسي يطلق عليه اسم مواغا (Moaga)[1] .

وتعد هذه لمملكة من ممالك منعطف النيجر ومنطقة الفولتا، والتي رغم الإشارات المهمة التي أفادتنا بها الحوليات السودانية كتاريخ السودان، وتاريخ الفتاش لمحمود كعت، إلا أنها لم تحدد لنا إطارا تاريخيا دقيقا لبداية تشكل هذه المملكة أو تسلسلها الزمني، لكن الملاحظ على هذه المملكة انه اقتصر ذكرها على المصادر السودانية فقط.

ثانيا: ممالك الموسي في المصادر العربية:

لو حاولنا تحليل النصوص التاريخية السودانية المكتوبة التي زودتنا بالمعلومات المتعلقة بهذه المملكة، فإننا نجد بأنها اتسمت بخاصيتين هامتين هما، الأولى أن هذه المملكة كانت موجودة وتمتعت بقوتها خلال منتصف القرن السابع للهجرة 13 /للميلاد، اما السمة الثانية فهي أنها كانت مملكة وثنية تكن الكثير من العداوة و الكراهية للممالك الإسلامية.

يذكر محمود كعت قيام الموشيين بغارات على مملكة سنغاي[1] في الفترة التي كانت لا تزال فيهام ملكة مالي تتمتع بقوتها ومجدها، كما يخبرنا السعدي بأنه خلال عهد حكم منسا مغا خليفة الملك منسا موسى، قدم ملك الموشي بجيش عظيم، وقام بغزو مدينة تمبكتو التي كانت في حظيرة الماليين، فخاف أهلها وتركوها هاربين، فدخلها الموشيين وأحرقوها وخربوها وقتلوا من قتلوا ونهبوا ما فيها من أموال[1]. فكان هذا الحدث يصادف فترة حكم ملك سنغاي" زاباري" أو(زابير) كما

(1) **السعدي (عبد الرحمان)**، مصدر سابق ، ص8.

يسميه السعدي، وصادف حتى فترة حكم خليفته من بعده زا أسيباي، وهذا كله يفيد بأن مملكة الموشي عاصرت إمبراطورية مالي خلال أوج قوتها وعظمتها، بل نافستها وهددت أمنها.

لكن لو حاولنا الرجوع إلى الدراسات الحديثة المعتمدة على الروايات الشفوية و بعض الرحالة الغربيين بخصوص هذه المملكة، لوجدنا بأن هذه الصورة القاتمة لمملكة الموشي لم تكن بهذا السوء، فمملكة الموشي لم تكن في الحقيقة مجرد جماعة من المحاربين الذين لا يفقهون إلا الغزو والنهب والسلب كما يتوهم الكثيرون، بل كانت تمثل شعبا منظما سياسيا وعسكريا في إطار ممالك انتشرت في إقليم الموسي الذي تعد مركزه مدينة واغادوغو.

ثالثا: نشأة ممالك الموسي و حضارتها قبل الإسلام:

1. التأسيس و النَّشْأَة:

و تعد ممالك الموسي من بين مجموعة الممالك معروفة باسم (مول ـ دوغبان)، بل وهي من أشهر ممالك هذه المجموعة، بالخصوص وجدت هناك دولتان في تاريخ الموسي، الأولى كان زعيمها يسكن في عاصمته واغادوغو، و التي تأسست حوالي سنة 1050م من طرف مغامر اسمه اوبري، أما الثانية والتي عرفت عدة عواصم من بينها واهيغوي (Ouahigouya)، فهي لم تظهر إلا حوالي سنة 1170م من طرف رجل يدعى يا(ya)، ثم أصبح يدعى ياتنغا و التي تعني في لغتهم (ارض يا)، و كان ملوك كلتا المملكتين يحملون لقب (مورو ـ نابا) والتي تعني رئيس ارض الموسي، حيث أن الشعب الذي يسيطر على تلك المملكتين هو الشعب الموسي، كما أن هاتين المملكتين كانتا دائما مستقلتين عن بعضهما البعض،و كل مملكة كانت تضم بداخلها عدة ممالك صغيرة.

فبداية من القرن 11م بدأت هذه الشعوب تزحف باتجاه الشمال الشرقي نحو نهر النيجر، و بدأوا بتأسيس أول ممالكهم، و هي مملكتا الداغومبا و المامبروسي' لكن شهرة ممالك الموسي لم تتم إلى غاية القرن 15م عندما تحدثت عنها المصادر السوداقبل أن يتم التصدي لهم من طرف سني علي الذي سير إليهم جيشا و هزمهم و سباهم سنة 1488كما أعلن ضدهم الجهاد في سنة 1497م، هزمهم شر هزيمة، و دفعهم نحو الجنوب و لقد وصل إلى غاية منطقة الغورما او الغورنسي و هي إحدى ممالك الموشي الواقعة في شرق نهر الفولتا، وعاصمتهم فادا نغورما.

و يعود تأسيس أول ممالك الموسي حسب الروايات المحلية في المنطقة ،عندما قام احد زعماء الداغومبا و هو نيديغا بتجميع كل من داغومبا و ممبورسي تحت سيطرته، ولم يكن لديه ابن ذكر يرث ملكه من بعده، ولكن كانت لديه بنت محاربة تسمى ينينغا(Yeninga)، و كانت تشبه الرجال في تصرفاتها تغزو و تنهب و تسلب، وكان والدها يرفض تزويجها مخافة ان تتحول إلى آم وتفقد قوتها و لن تستطيع قيادة الجيوش. و في إحدى الأيام بينما كانت في إحدى غزواتها فزع حصانها بسبب ا لم في أسنانه و انطلق بها بعيدا عن جيشها و لم يتوقف، وأخذها إلى داخل غابة حيث توقف قرب كوخ لأحد الصيادين يسمى ريالي أو (رياري)، و هو ابن احد الزعماء المالنكي.

تعلقت ياننغا بالصياد المالنكي و استقرت للعيش معه، و أنجبا طفلا أطلقا عليه اسم ويديراوغو (Ouidiraogo)، و التي تعني بلغة الداغومبا و الموسي الحصان الذكر، و عندما أصبح هذا الأخير شابا أرسلت والدته ينينغا رسالة لوالدها نيديغا تخبره بأنه أصبح جدا، فرحب بهم في مملكته لكنهما رفضا العيش معه وعادا للعيش في الغابة، كما منحهم نيديغا جيشا من الداغومبا لحماية حفيده، وبعد وفاة والدته ياننغا أصبح ويديراغو قائدا و محاربا كبيرا فقام بتأسيس مملكته الخاصة به.

لما سمع الموسي و الداغومبا بهذه المملكة الصغيرة ، بدؤوا يلتحقون بها و ينظمون تحت لوائه وطاعته، خاصة لما يكتسيه ويديراغو من شهرة عند تلك الشعوب، و المكانة التي كانت تحتلها والدته عندهم. فتوحد الموسي تحت سلطته، و كان له عدة أبناء منهم ثلاث ذكرتهم الروايات الشفوية و هم زونغورانا، راوا و ديابا، حيث منح لكل واحد منهم قيادة مقاطعة من مملكته، و بعد وفاة ويديراغو ترك أبناء كثيرون و منهم تشكل زعماء الممالك الو المقاطعات الموشية ، لكن واحد منهم يسمى زونغورانا الذي خلفه على عرش المملكة وعين ابنه اوبري قيادة مقاطعة الغرب، و لما أصبح رجلا قام اوبري بالهجوم على جميع الأراضي الغربية ووحدها تحت سيطرته و كون منها مملكة واحدة، و ذلك سنة 1050م حسب، و نفس الشيء فعله ابن ويديراغو راوا باتجاه الشمال الغربي و نفس الشيء بالنسبة لديابا، و بذلك تأسست ممالك الموسي الثلاث التي تفرعت كلها من سلالة ويديراغو، وهذه الممالك الموشية حتى و ان لم تكن بنفس شهرة و حضارة الممالك الإسلامية مثل غانا ومالي و سنغاي لكنها كانت منظمة و قوية

رابعا: حضارة ممالك الموسي:

1. التنظيم السياسي:

عندما نتحدث عن السلطة و الحكم عند الموسي نسجل دائما دلالتين مختلفتين للزعامة، الاولى هي تلك التي تدور حول فكرة ناما (Naama)، والتي تعني السلطة، اما الثانية فتدور حول فكرة بانغا(Panga)، و التي تعني القوة. فمصطلح نام (Naam)، يجمع بين دلالتين عادة وهي السلطة و معها الشرعية الالهية، فالنام عند الياتنغا هي القيادة والزعامة في نفس الوقت، ولقد وجدت لديهم ثلاث انواع من الزعامات هي: زعامة ملكية ولديها وظيفة السيادة، زعامة محلية وهي ذات وظيفة قيادية، وزعامات القصر ولديها وظيفة رئاسة المصالح الاداري

فالزعيم عند الموشي يسمى نابا(Naaba)، و هي محرفة عن كلمة نام، حيث أن جمع كلمة نام تتحول إلى نانامبا(Nanamba)، و بهذا كل من لديه زعامة معينة يلقب بنابا، فزعيم مملكة ياتنغا يطلق عليه اسم ياتنغا نابا، أي الملك، و زعيم وحدة عسكرية مثلا يسمة نابا غورسي (Naba gursi)، أما داخل القصر فنابا تعني رئيس مصلحة او وظيفة، حيث أن زعيم الرواة والمنشدين يسمى توغو نابا (Togo Naaba) أي زعيم الكلمة، و مستشار الملك يسمى بالوم نابا، و رئيس مصلحة التشريفات والمسؤول عن الحياة داخل القصر يسمى وارينغا نابا (le weranga naaba)، وهكذا. كما أن الملك نابا كان محاطا بأربعة رجال منى الثقاة، هم نيسومبا(les Nesomba)، ثلاثة منهم لابد ان يكونوا منحدرين من سلالة الزعيم الأسطوري المؤسس لممالك الوشي و هو ويدراوغا

و يعد نظام الحكم عند الموشي نظاما ملكيا وراثيا، حيث أن الزعيم وهو ياتنغا نابا يعتبر ناكومبوغا(Nakomboga)، أي ابن ريما، و معناه أنه قد اجتاز رحلة التتويج و التي تعرف بالرينغو(Ringu)، وهي طقوس تؤهله لان يتمتع بالسلطة الدينية و السياسية مع بعض. وتقوم هذه الطقوس بزيارة الملك المترشح لهذا المنصب إلى منطقة غورسي(Gorsi)، و هي اول عاصمة للموشي، و تسمة قرية الاجداد، أين يقدم نفسه للرعية و يبدأ عهده كملك، و عندما يتوفى االملك يخلفه ابنه البكر.

و يبدو أن نظام الحكم عندى الموسي يتمتع بلامركزية ، حيث نجد هناك نظام كنفدرالي، فمثلا مملكة واغادوغو الموشية كانت مقسمة إلى اربع ممالك مستقلة و لكنها تابعة للامبراطور، و كل مقاطعة او مملكة مقسمة إلى قرى يسيرها رئيس يلقب بتونغانابا (Tenganaba) ويكون من الطافة ناكومي(Nakomé) ، و يساعده مجموعة من الشيوخ ينحدرون من نفس عائلة الرئيس، بالاضافة إلى النبلاء المحليين.

وكانت القرى الكبرى مقسمة الى وحدات، و الوحدة مقسمة الى أحياء، و كل حي يضم مجموعة اثنية معينة، فهناك حي الموسي، و حي خاص باليارسي، و حي خاص بالفولسي ... وهكذا، وهناك ايضا احياء خاصة بالطوائف مثل حي عبيد القصر، و حي خاص بالحدادين و كل حي يحكمه رئيس تلك المجموعة الاثنية او الطائفة، حيث كان الحي يسمى بالموسي صاكا(Saka)، ورئيس الحي يلقب ب صاكاكا صامبا (Sakakasamba) وعندما يتوفى رئيس الحي يخلفه اخوه أو العنصر الاكبر من العائلة، ولكن مجموعة الاحياء لابد ان تخضع لرئيس القبيلة الذي يكون من الموسي و تدفع الضريبة و تخضع لاملاك الدولة، و يحرس موظف المملكة على امنها.

2.الحياة الاجتماعية في حضارة الموشي:

أ. العائلة :

أن العائلة عند الموشي متماسكة جد، لكن تدخل النابا او الملك في الشؤون الداخلية الخاصة للمجتمعات كان يقلص داوما سلطة رؤساء العشائر، فالاطفال في قانون الموشي ينسبون لوالدهم، فهذا الاخير يتوجب عليه رعاية ابنائه باطعامهم و حمايتهم، كما الاب هو من يختار الزوج لابنته، وهو من يتكفل بزواج اولاده الذكور، ولكن من خلال امور الزواج هذه اين يتدخل النابا (الملك) لاجبار رب العائلة على التصرف عكس ارادته و وفق ارادة ومصلحة الملك.

إن أهم ما يميز تنظيم المجتمع الموسي هو خضوع الفرد خضوعا كاملا للجماعة التي تعتبر العشيرة ابسط أشكالها، و العشيرة بدوها تخضع هي أيضا إلى تجمع اكبر متمثل في القرية او الدولة، و لكن تبقى الرابطة الاسرية اقوي رابطة في المجتمع الموشي حيث تعيش العائلة في كنف تجمع

يسمى زاكا(Zaka)، و يرأس هذا التجمع نابا زاكا (Naba Zaka)، وهو اكبر أفراد العائلة سنا. و اذا توفي هذا الرئيس فان زعامة العائلة تنتقل إلى اكبر أفراد العائلة سنا و يكون من نفس جيل الزعيم المتوفى، بحيث أن كل أفراد زاكا يقبلون هذا القرار و لا احد يمكنه أن يعارضه. و تكون مسؤوليات او واجبات الزعيم الأساسية هو الحصول على الطعام و الحفاظ عليه و الإشراف على استهلاكه، كما يشرف هو شخصيا على توزيع الأعمال على أفراد العائلة، أما بخصوص تنظيم الأعمال المنزلية الخاصة بالنساء، مثل طهي الطعام و جمع الحطب من الغابة، و طحن الذرة ، وجلب الماء فكانت تشرف عايها زوجته المفضلة.

في كل عائلة موشية فان الاحفاد المباشرين و المنحدر من سلالة مؤسس العائلة، وإخوته اذا كانوا يسكنون معه تحت سقف واحد فلابد من أن يطيعوه، و بالمقابل فان رئيس العائلة يكون مسؤول عن كل من يعيش معه تحت سقف واحد و خاصة فيما يخص الديون.و عند وفاة رئيس العشيرة فان ابنه الاكبر هو من يرث منصبه لكن هذا اذا كان قد بلغ الرشد، أما إذا كان الإبن الأكبر قاصرا فإن أكبر أعمامه هو الذي سيرث منصب والده، و يصبح رئيس العائلة. لكن عند وفاة العم تعود اليه، و في حالة عدم وجود ورثة ذكور يلجا الموشي إلى تبني ذكر لأنه لا يجوز عند الموشي أن يكون رئيس العائلة من النساء.

3. الزواج:

لقد كان النساء في مجتمع الموشي في درجة دنيا و لا يمكنهن العيش دون زواج، فلقد كن يتزوجن في سن مبكرة عادة لا يتجاوز العشر سنوات، و يتم هذا الزواج بتقديم الزوج مهرا لعائلة زوجته، حيث بمجرد تقديم المهر يمكنه اخذ زوجته إلى بيته، و اذا كانت صغيرة جدا يتركها عند والدتها إلى غاية أن تبلغ سن 12 عاما فتلتحق ببيت زوجها.كما أن الخال في المجتمع الموشي هو بمثابة الام عند الرجل ، لهذا فعندما تتوفى الوالدة يتزوج الرجل من ابنة خاله فيناديها امي) .

كما أن الزواج عند الموشي لا يتطلب اقامة حفل زفاف، و اذا رفضت الفتاة الزواج كأن تهرب من بيت زوجها للعودة إلى بيت اهلها او إلى بيت احد اصدقها الذين اختارتهم، (وهو ما كان يتكرر كثيرا) فما على اهلها الا اعادة المهر فقط. ويعرف الموشي بتعدد زوجاتهم فتجد الرجل منهم

يتخذ حتى اثنتي عشرة زوجة، بينما المورونابا أي الملك فيملك الالاف من الزوجات، و لكن الزوجات لا يمكنهن البقاء ارامل فعند وفاة الزوج توزع زوجاته على اخوة الراحل، لكن الإبن لا يمكنه أن يتزوج زوجة أبيه.

إن الحياة الاجتماعية للموشي يغلب عليها الطابع الفلاحي، لأن المجتمع الموشي هو مجتمع زراعي، فرئيس العائلة يقوم بتسيير عمال الحقل، و يسهر على التوزيع اليومي للدخن على أفراد العائلة، ويوزع أيضا نصيب كل واحد من الخبز اليومي الذي يعرف عندهم باسم (صارابو sarabou)، اما النساء فيقمن بطحن الدخن و طهيه، كما يتكفلن بجلب الماء، ويقوم البنات بمساعدة امهاتهن بمختلف الاشغال في حين يقوم الولاد بالاعتناء بالخيول، ولما يبلغ الذكور سن 12 سنة يقوم الموسي بختانهم ، حيث تعد الختان عملية بالغة الاهمية عندهم و تقام لها حفلة عظيمة.

ت.الديانة و الطقوس الجنائزية:

تعد الوثنية الديانة المنتشرة في ممالك الموشي، بحيث أن المنطقة ظلت معزولة عن التاثيرات الدينية السماوية في بعض الاحيان و في احيان اخرى حاربتها و رفضتها، و كانت الارض عندهم هي بمثابة الوسيط بين العباد و الالهة، و بالتالي هي من تحفظ لهم الرزق و الصحة و أيضا تضمن لهم التواصل مع الاموات. فالاموات او الاجداد و ارواحهم يمثلون بالنسبة للموشي الخط الموازي بين الحياة الدنيوية المرئية و الحياة الاخرى الغيبية، كما أن ارواح الاجداد عندهم هي من ترزقهم بالخصوبة وانجاب الاطفال، كما انها تزور الاحفاد وتراقبهم.

أما بالنسبة للطقوس الجنائزية فهي معقدة و سرية، و في كل قرية توجد عائلة تقوم هذه الطقوس، و تقوم هذه الطقوس اولا بكسر عظام ساق الميت و يلفونه في حصير ثم يدفن في حفرة بعمق متر و نصف،و كانت تتخلل طقوس الدفن عندهم بعض الرقصات و الاغاني يقوم بها اشخاص مكلفين بهذا الامر، حيث كانوا يلبسون لباسا عريضا مصنوعا من جلود الزواحف، ويضعون قناعا خشبيا، و يقومون بتقديم القرابين اما القبر و تتمثل قرابينهم في الدواجن و البشر أيضا ، أما اذا توفيت زوجة الامبراطورفانهم يضحون بخيله في العاصمة التاريخية غامباغا، أين يذبح عند قبر الزعيم الاسطوري للموشي ويديراوغو[1].

(1) زمور حفيظة، مرجع سابق، ص39.

خامسا: طائفة الياراسي و دورها في حضارة الموسي

1.التعريف بطائفة الياراسي:

إن الروايات تنسب الياراسي إلى ثلاث مجموعات غير متشابهة، و معظمها تعتبرهم من فئة الفقهاء المسلمين والدعاة، كانوا يمتهنون التجارة المتنقلة، وفي بعض الأحيان يعيشون على صناعة النسيج، أو بممارسة الزراعة. و هناك روايات تقول أنهم كانوا محاربين في خدمة الملوك وثنيين، لكن الشيء الأكيد هو أن اسمهم اقترن شيئا فشيئا بالتجارة والإسلام ، حيث كانوا أول شعوب الفولتا الذين اعتنقوا الإسلام) .

فاليارسي يدعون بأن أصولهم الأولى تنحدر من مكة، لكن يبدو أن هذا الإدعاء هدفه كسب مكانة بين العشائر المسلمة، وهناك من ينسبهم إلى المندي و يقول بأنهم فرع من الديولا أو السوننكي(أي الونغارا)، حيث بدؤوا بالإستقرار بشكل بطيء على شكل تجار و فقهاء مسلمين في مختلف بلاد الموسي، و أول مجموعة تم رصدها في واغادوغو في بداية القرن 16م، و بدأ تأثير هذه الجماعة المندية المسلمة في المنطقة إلى غاية القرن 17م.

2. قدوم الياراسي الى نهر الفولتا:

فلقد كان الطريق الذي سلكوه بترحالهم يمر عبر بلاد شنقيط (موريتانيا) والسنغال وأعالي النيجر، ومالي وتحديدا مدينة تمبكتو، وعن طريقها وصلوا الى منطقة نهر الفولتا (بوركينا فاسو)، وذلك منذ حوالي القرن الحادي عشر ميلادي تقريباً. وكانت قبيلة مواغا(Moaga)[1] في الوسط ومنطقة لبتاكو(liptako)[2] في الشمال، والتي يقطنها الفلانيون بأسبقية اعتناق الإسلام.

و لقد بدأ عدد الياراسي سزداد حتى كونوا جاليات حول الاسواق و القرى المهمة مثل كايا(Kaya) كومبيسيري (Kombissiri) راكاي (Rakaye) رويتينغا (Rouytenga)، وشيئا

(1) مواغا هو مفرد موسي و هو الشعب الذي يكون اغلبية مملكة الموشي او الموسي.

(2) وفى ليبتاكو غورماهى منطقة تاريخية الواقعة فى الجزء الجنوبى الغربى من النيجر,'تمتد من بوركينا فاسو ومالي.

فشيا تخلُّوا عن لغةهم المندية و تبنُّوا لالغة المندي. و حسب الروايات فإن تجار الياسي استقروا على شكل أئمة بالقرب من زعماء القبائل و الامراء، واستطاعواان يدخلوا الاسلام ملك الموسي نابا دولوغو(Naaba dulugu).

3. الياسي و حركة نشر الإسلام في واغادوغو:

لما استقرت العائلات الياسية الثلاثة بواغادوغو، قررت بداية الدعوة في صفوف العائلة الحاكمة، فبد زعيم الياسي المدعو مور بتعليم القرآن و لكنه في نفس الوقت بدأ بممارسة مهنة حياكة الأقمشة و صناعة السراويل الملونة التي لم يكن يعرفها الموسي. و لكنه فيما بعد تخلى عن مهنة الحياكة و بدأ يسخر كل جهده من اجل تعليم القرآن، و الدعوة الملك و أحفاده إلى الإسلام.

اتبع الياسي إستراتيجية محكمة للتقرب من ملك الياتنغا نابا دولوغو(Naaba Dulugu) حتى ينفذوا مشروعهم الإصلاحي، ألا و هي التزاوج مع العائلة الحاكمة الوثنية، فالياسي لم يقوموا بالتزاوج مع العشائر المسلمة كليا، ولا مصاهرة العائلات الوثنية الغنية، وإنما مصاهرة الملك فقط، وفي ظروف استثنائية، وهي خلال إجراء مراسيم الرينغو(Ringu)[1]، حيث استقبل الملك جماعة من الياسي، و طلبوا منه ان يزوجهم احدى بناته، و كان هدف ملك الياتنغا من هذا الزواج هو تقريب الياسي منه حتى يساهموا في تطوير المملكة اقتصاديا خاصة انهم معروفون بتحكمهم في التجارة و الطرق و المسالك و هو ما يساهم في حماية قوافل التجارية للمملكة، بالإضافة الى تحكمهم في صناعة القطن والنسيج و الزراعة، و هو ما ستستفيد منه المملكة.

و لقد استفاد الياسي من هذه الصفقة حيث اصبحوا يحتلون مكانا مميزا في المملكة بحيث اعطيت لهم السيطرة على تجارة الملح في الشمال و تجارة الكولا و الذهب باتجاه الجنوب، و بذلك تطورت التجارة و انتعشت الزراعة و تربية الحيوانات في ربوع المملكة، ولكن النتيجة الأهم بالنسبة

---

(1) وهي مراسيم يتم فيها تنصيب ملك الموشي بصفته ريما(Rima)، أي إعطائه السلطة الملكية كملك شرعي للبلاد، بعدما يكون قد تم تنصيبه نابا(Naaba)، و تعني القائد أو الحاكم، حيث في هذه المراسيم يتم تحويله من مجرد قاد وحاكم إلى صفة سلطان شرعي للبلاد، و إعطائه صفة تانغازوكو (Tangazugu) أي مؤسس العشيرة الحاكمة.

Michel Izard, « De quelques paramètres de la souveraineté », Op.Cit

لليارسي هو نيلهم لمكانة تمكنهم من نشر الإسلام و تطبيق مشروعهم الإصلاحي الذي سوف ينطلق من نقطة قوة ألا و هي القصر الملكي.

و بسبب تحكم اليارسي في الوسائل التي سهلت لهم التجارة فلقد تبوؤوا مكانة مميزة وأصبحوا يشعرون بتفوق مقارنة بالموشي العاديين، الذين كانوا يتدحرجون في نفق الفقر، والخاضعين كلية لتقاليد ملوكهم، فالموشي كانوا ينتظرون من اليارسي أن علموهم الإسلام والتجارة، النظافة ويمدوهم بالكولا، و الملابس، و يختنون أبناءهم. فلقد ساهم شباب اليارسي في تطوير عقلية الموشيين.

وبهذا كسب اليارسي ثقة الملك و تبوؤوا مكانة في السلطة القضائية حيث منحهم الملك نابا دولوغو امتياز حق الشفاعة بحيث يمكنهم أن يتدخلوا لتبرئة أي شخص يتم الحكم عليه بالإعدام او السجن، كما حظوا بشعبية في صفوف الشعب بسبب مهارتهم في الحياكة والزراعة، و كذا صناعة الملابس و توزيعها على المعوزين .و بذلك فقد تمكنوا من إدخال الملك نابا دولوغو إلى الإسلام، و بالتالي انتشر الإسلام في صفوف الأسرة الحاكمة لكن بقية الرعية بقيت وثنية.

كان نابا دولوغو ملكا مسلما تقيا ، بنا المساجد في واغادو و في بعض القرى، كما عين بنفسه إماما خاصا بالعاصمة ، لكنه لم يفرض الإسلام بالقوة على الرعية، و قد أزاح ابنه ساوادوغو من ولاية العهد بسبب تحمسه لنشر الإسلام بالقوة، لكن هذا الأخير تمكن من الإطاحة بأبيه وتولى هو العرش. من 1828 الى غاية 1842م.

و في عهد ساوادوغو انتشر الإسلام و عرف مجده في بلاد الموسي ، كما تلقى ابنه حاليلو تعليما إسلاميا جيدا، و أصبح أول زعيم مسلم للموسي يصلي بانتظام و يصوم رمضان، وبنى المساجد بالقرب من قصره، كما تخلى عن وزرائه الذين كان إسلامهم سطحيا وعوضهم بوزراء أتقياء و متدينين. كما أرسل جميع أبنائه إلى المدارس القرآنية، ما عدا ابنه الأكبر الذي سيكون ملكا باسم موغ نابا سانم، والذي سيستقبل الرحالة الألماني بنغر (Binger).

أما في عهد الملك نابا كوم فقد تم إدخال سنة الختان للذكور و الإناث، و حتى زوجته يارغا قام بختانها، كما فرض الختان على كل النبلاء. و فسح المجال أكثر لليارسي بالاستقرار أكثر في مملكته، كما أرسل احدهم في بعثة للتعمق في شرائع الإسلام بمنطقة ساحل الذهب، وفي عهد أخيه

نابا زومبري أسس مدينة كومبي سيري التي اتخذها اليارسي كنقطة انطلاق لنشر الإسلام في صفوف الموسي الوثنيين.

بعدما اهتموا بالتجارة فإن الدعوة إلى الإسلام وإصلاح الإسلام كانت أهم ميزة لليارسي، فكل الروايات الشفوية لموسي تصور اليارسي على أنهم أول من أدخل الإسلام إلى بلادهم، كما أن مصادر التاريخ تذكر بأن اليارسي دخلوا إلى بلاد الموسي عن طريق مالي و تنبكتو التي كانت تشكل أكبر مركز ثقافي و حضاري في السودان الغربي، وكانت تعرف حركة إصلاحية إسلامية. حيث حمل اليارسي رسالة مفادها أن الإسلام هو علم و هو حسن التصرف و حسن تدبير شؤون الحياة على شريعة الإسلام، الذي يتم اكتسابه بعد طول احتكاك بالمعلم او الفقيه في الأماكن المختارة.لهذا كان اليارسي يقومون بمهمة تعليم القرآن في أماكن محددة بعضهم يدرسون في أماكن تسمى بكارن ـ بوكو (Karen-boko) وتعني ثقب الدراسة[1]، و عادة تكون في اماكن معزولة، أو يطلق عليها اسم «كارن ـ دوغو (Karen-Doogo) و تعني الدراسة في البيت، و يقصد بها المدرسة.كما علم اليارسي الموسي الطهاة و الوضوء، و نهوهم عن تناول الجعة المصنوعة من الدخن، و التي محببة كثيرا لديهم و خاصة النساء.

و بمقابل تلك الامتيازات التي تحصل عليها اليارسي من الموشي فقد كان لديهم واجبات اتجاه ملكهم و مملكتهم، حيث قاموا بحماية (موغ ـ نابا) أو الملك و كل إمبراطوريته ضد الأعداء و القوى الخفية و السحرية ، لهذا كانوا كل جمعة يتقومون بمعالجته عن طريق تلاوة القرآن و الرقية الشرعية،المعروفة عندهم بمباركة الدوزي(Dossé).

و هكذا تغير الجو العام للقصر و احتفالاته و طقوسه، فبعدما كن الملك يحيط نفسه بالكهنة الوثنيين، الذين تغلب على مظاهرهم مناظر دماء القرابين و ريش الطيور، وشعر النساء، و أوبار الحيوانات، أصبحت طقوس و الاحتفالات تتخللها صفوف المصلين اليارسي المنتظمة، و النظيفة، حيث اختفت مظاهر ذبح الحيوانات القرابين في ساحة الملكى المقدسة.

سادسا. نتائج الحركة الإسلامية لليارسي في بلاد الفولتا:

من خلال هذا العرض يمكننا أن نخلص إلى مجموعة من النتائج أهمها:

(1) يقصد بها تلك الحفر و الثقوب التي يتم حفرها لانشاء مناجم الذهب، و هي مناجم قديمة تستغل لهذه الاغراض التعليمية من طرف اليارسي.

إن الإسلام تأخر كثير في منطقة نهر الفولتا، و ذلك بسبب وجود ممالك و حضارة عريقة هناك و هي حضارة الممالك الوثنية التي في اعتقادي و من خلال ما توصلنا إليه من نصوص كان رجال الدين و الكهنة يلعبون دورا أساسيا في الحياة السياسية و حتى في اتخاذ القرارات المصيرية للدولة، و هو ما جعل الإسلام يتأخر في الولوج إلى تلك المنطقة إلى غاية مجيء طائفة اليارسي و الديولا عموما.

فرغم أن إمبراطورية سنغاي الإسلامية كانت خلال أواخر القرن15و بداية القرن16 الميلاديين كانت تتمتع بقوة مكنتها من فتح جل غرب إفريقيا ونشرت الإسلام فيها إلا أنها واجهت مقاومة شرسة من طرف ممالك الموشي التي انصاعت لقرارات كهنتها الرافضين لاعتناق الإسلام. فممالك نهر الفولتا رغم إنها كانت معزولة عن الديانات السماوية إلا إنها صنعت حضارة أساسها ديني قائمة على أصول دينية وثنية.

أما النتيجة الثانية فتبرز لنا خاصية انتشار الإسلام في أدغال إفريقيا الغربية، فلقد رأينا من خلال هذا البحث كيف تسربت طائفة اليارسي المسلمة إلى منطقة نهر الفولتا قادمة من منطقة الساحل انطلاقا متن موريتانيا والسنغال وصولا إلى نهر الفولتا، حيث تمكنت من الاستقرار هناك بين الشعوب الوثنية، مستفيدة من مهارات أفرادها التجارية و الصناعية و حتى تفوقها في شتى العلوم و شؤون الحياة، فتوغلت بهدوء إلى داخل القصر والأسرة الحاكمة الوثنية من خلال المصاهرة إلى أن تمكنت من إقناع ملك واغادوغو و هو نابا باعتناق مشروعهم الاصلاحي و تبني الديانة الإسلامية التي تحولت إلى الديانة الرسمية للعائلة الحاكمة فغي واغادوغو. و هذه الطريقة تبقى الطريقة الأكثر نجاعة بالنسبة لانتشار الإسلام في غرب إفريقيا و خاصة من طرف طائفة التجار المتنقلين المعروفين بالديولا، و الذين تمكنوا بنفس هذه الطريقة نشر الإسلام في كوت ديفوار والكامرون و إفريقيا الوسطى.

كما تبين لنا من خلال هذا البحث بان حضارة ممالك النهر الفولتا أو ما يعرف بممالك الموشي أنها حضارات اصيلة و قديمة في المنطقة، وجدت قبل الإسلام على شكل حضارات وثنية بعيدة عن كل تأثير اجنبي الا أن هذه الحضارة كانت غنية بالقيم الروحية و الاخلاقية الراقية بعيدة عن الصورة المزيفة والاحكام المسبقة و الصور النمطية التي أطلقها الاوربيون على تاريخ هذه

الشعوب، فلقد رأينا كيف كان الموشي يقدسون الاسرة و الحياة الاسرية، كما يحافظون على شرف المراة و يحرصون على تزويج بناتهم في سين مبكر، و كان الاوالد هو من يختار لابنته الرجل المناسب،كما حفظوا للزوجة حقوقها و مهرها، و نسبوا الطفل لوالده عكس الشعوب الافريقية الأخرى التي كانت تنسب الابن لامه، و هي قيم نبيلة تكذب كل تلك الصور التي أعطاها الاوربيون لهذه الشعوب على انها شعوب تعيش في حالة فوضى و انحلال و إباحية. لهذا نجد هذه الممالك سرعان ما اعتنقت المشروع الاصلاحي لليارسي الذي وجدوا فيه قواسم مشتركة مع قيمهم. لكن رغم ذلك بقيت بعض القيم الوثنية متجذرة فيهم و هذا يعود بالدرجة الاولى إلى مرحلة الاستعمار التي تعرضت اليها دولة فولتا العليا او ما يعرف اليوم ببوركينا فاسو، و النقص الدعوة والإرشاد في صفوف هذه الشعوب التي بقيت تحتفظ بالاسلام اسميا في غالب الأحيان.

خلاصة القول أن ممالك منطقة نهر الفولتا عموما و ممالك الموشي خاصة، قد تمكنت منذ تأسيسها من بناء حضارة أصيلة خاصة بها، بعيدة كل البعد عن أي تأثير خارجي، و ضلت تقاوم أي تاثير اجنبي و خاصة التاثير الإسلامي الذي بسط إشعاعه الحضاري على معظم السودان الغربي، لكن وصول جماعة التجارة المتنقلين من اليارسي، الذي حملوا معهم دين جديد ، و حملوا معهم تقنيات جديدة تمكنوا من كسب ثقة ملك الموشي و تبوؤوا مكانة في السلطة الموشية، كما حظوا بشعبية في صفوف الشعب بسبب مهارتهم في الحياكة والزراعة، و كذا صناعة الملابس و توزيعها على المعوزين، هو ما جعلهم ينفذون بالدين الإسلامي إلى داخل قصر النابا أولا ثم إلى بقية الأسر الموشية، و رغم تخوف الكهنة الوثنيين في ممالك الموشي من نفوذ اليارسي، حيث أخذوا يحرضون شعوبهم عليهم، كما أن ترحيب ملوك الموسي باليارسي خلف استياء عدة عائلات موشية، التي أخذت تناصبهم العداء، لكنهم لما اكتشفوا بأنهم لا يستطيعون محاربتهم بالقوة و العنف، أو تصفيتهم جسديا، فإنهم اقتنعوا بأنهم لا بد من التعايش معهم، و أيضا مصاهرتهم و تناسي خلافاتهم و بناء أواصر اجتماعية و هذا في إطار ما أطلق عليه اسم (داكورDakur) وهو التحالف عن طريق المزاح[1] .

لقد بقي السحرة و الكهنة يشعرون بحقد خفي على اليارسي لكنهم بقوا يخفونه،لأن اليارسي أبطلوا جميع حيلهم و خدعهم السحرية، و أفقدوهم قوتهم التي تمتعوا بها منذ قرون طويلة، و بهذا تمكن اليارسي من استكمال مشروعهم الإصلاحي في عمق المجتمع الموشي، و فامتزجت التقاليد

الموشية، بالمبادئ الإسلامية، و خلفوا للعالم حضارة متميزة، فالأوربيين لم يعرفوا هذه الحضارة إلا في منتصف القرن19 ميلادي، فكان أول أوربي عرف مملكة واغادوغو كان في سنة 1985م، حيث وجد حضارة تختلف تماما عن تلك التي تحدث عنها محمود كعت والسعدي منذ أربعة قرون.

الفصل الخامس

انتشار الإسلام في السودان الشرقي و الحبشة

المبحث الأوَّل: اوضاع السودان الشرقي قبل دخول الاسلام:

أولا: انتشار المسيحية في الحبشة و بلاد النوبة:

إن أهم ما يميز الكنيسة القبطية هو انها تقوم المبشرين، و الحبشة كانت أول مسرح لنشاط هؤلاء المبشرين، فبعد سقوط **مملكة دمت**[1] بين القرنين الخامس و السادس قبل الميلاد، خلفتها عدة دويلات صغيرة، في هضبة شمال إثيوبيا. و لقد ساهم إنعاش التجارة في البحر الأحمر في عهد البطالمة على ازدهار المنطقة و ربطها بالبحر الابيض المتوسط، وذلك من خلال الدور الذي كان

(**1**) تأسست مملكة دمت في المنطقة التي تغطي ايريتيريا و شمال وأثيوبيا وعاصمتها ييها yeha أعقبتها مملكة أكسوم خلال القرن 1 ق.م، و لقد ظهرت هذه المملكة حوالي 800ق م، و لقد عاصر ملوكها ملوك مملكة سبأ اليمنية.

Nas E. **Boutammina**,Le Kaabaéen, prototype des systèmes d'écriture, BoD – Books on Demand, 2 mai 2016, P105.

يلعبه ميناؤها الأساسي وهو ميناء أدوليس (Adoulis) [1] المشهور بتجارة العاج، و عن طريق أحد التجار الشباب المسيحيين و هو فريمونتيوس (Frumentius) الذي القي عليه القبض خلال سفره ،أدخلت المسيحية الى اكسوم، حيث تحول فريمونتيوس هذا إلى مدرّس ملك اكسوم إيزانا (Ezana) الذي اعتنق المسيحية و جعلها الديانة الرسمية حوالي سنة 333م، و بعدها عين فريمونتيوس أسقف من طرف كنيسة الإسكندرية[2].

أما بلاد النوبة التي تمتد من مدينة اسوان في جنوب مصر إلى غاية الشلال السادس شمال مدينة الخرطوم، و هي تنقسم إلى قسمبن النوبة السفلى (واوات)، و التي تقع معظمها في جمهورية مصر الحالية، و النوبة العليا (كوش)، التي تمتد إلى داخل الاراضي السودانية الحالية [3]. و لقد عرفت النوبة بعد انهيار مملكة مروى فى عام 350 م على يد ملك الحبشة (مملكة اكسوم) عيزانا تأسست ممالك نوبية مسيحية هى ،مملكة نوباتيا التي تقع أسفل الشلال الرابع، عاصمتها فرس ومملكة المقرة عاصمتها دنقلا ، ومملكة علوة عاصمتها سوبا، ولقد قامت هذه الممالك في منطقة النوبة السفلى بين الشلال الأول والثاني ، ثم صارت لاحقًا جزءًا من مملكة نوبية أكبر هي مملكة مقرة. تسمى هذه المملكة في الكتابات التاريخية العربية بمملكة المريس،كانت عاصمتها (فراس) في اواخر القرن السادس فى عهد الإمبراطورة تيودورا وصل الكاهن جوليان إلي مملكة نوباتيا، واستطاع إقناع ملك نوباتيا واسرته بالدخول فى المسيحية عام 545م ، وهو بداية تحول النوبة للمسيحية [4].

بينما جذور المسيحية في بلاد كانت النوبة مختلفة لأن هذه الأخيرة كانت على علاقة مباشرة بمصر المسيحية . فبعد سقوط مملكة مروى في القرن الرابع للميلاد قام ثلاث زعماء يتكلمون اللغة

(**1**) ميناء ادوليس الآن هو موقع أثري في إيريتريا يقع على بعد حوالي 40 كيلومتر جنوب ميناء مسوع على ضفاف البحر الاحمر. و كان أهم ميناء في مملكة اكسوم.

(**2**) **John Iliffe**,Les Africains Op.Cit, p86.

(**3**) **عبد الحليم نور الدين**، تاريخ و آثار النوبة، مكتبة الاسكندرية، دون تاريخ، ص7.

(**4**) **Jean Jolly**, Histoire du continent Africain, Editions L'harmattan, Paris, 1996, tome1, Pp 111,112.

النوبية بتأسيس ثلاث ممالك على ضفاف النيل، في الشمال مملكة نوياتيا وعاصمتها فاراس، في الوسط مملكة مقره و عاصمتها دنقلة، و في الجنوب مملكة علوة وعاصمتها سوبا (قرب مدينة الخرطوم اليوم)[1].

و لما فتح المسلمون مصر على يد عمرو بن العاص سنة 21هـ/642م، بقيت بلاد النوبة مستعصية على الفاتحين العرب بسبب تمسك ممالكها بالمسيحية. و رغم محاولة الجيش الإسلامي دخول بلاد النوبة سنة21هـ/ 641م،و توغلهم إلى غاية دنقلة عاصمة مملكة مقرة، إلا أنهم اجبروا على التراجع امام استماتة النوبيين في الدفاع عن عاصمتهم، بفضل مهارتهم في الرمي بالنبال، فقد اصيب 300مسلم كلهم في حدقة العين، و منهم إصابة معاوية بن الحديج، و أبي شمرة بن أبرهة، و حيويل بن ناشرة، فسموا منذ ذلك الوقت برماة الحدق[2]. و بعد عشر سنوات اعاد المسلمون الكرة في ولاية عبد الله بن سعد بن ابي سرح وذلك سنة31هـ/651-652م، مستعملين المنجنيق فتقدموا إلى غاية دنقلة أيضا محققين انتصارا محققا على مقرة، لكن ملكها كالديرون طلب بأن يتم إمضاء هدنة مع المسلمين عرفت بمعاهدة البقط[3]، و تعد معاهدة البقط بمثابة أطول معاهدة عدم اعتداء و حسن الجوار في التاريخ، اذا دامت لمدة ستة قرون كاملة، بحيث تعترف هذه المعادة بمملكة مقرة النوبية المسيحية باستقلالها، كما تضمن لرعايا كلا الطرفين بالتنقل و التجارة في أرجاء الدولتين الإسلامية في مصر و المسيحية في مقرة بكل حرية، بالإضافة إلى حماية أرواح المسلمين في بلاد النوبة[4]، و أن يتعهد النوبيين بتقديم ثلاثمائة و ستين رأسا من العبيد كل سنة من حر عبيدهم، وأن

---

(1) Ibid, p87.

(2)**ابن عبد الحكم (عبد الرحمن القرشي)**، فتوح مصر و أخبارها، مصدر سابق، ص177.

(3) **Jean Jolly**, Histoire du continent Africain, Op.Cit, p112.

(4) **ايفان هربك**، انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء، ضمن كتاب: *تاريخ إفريقيا العام*، مج الثالث، ص103.

لا يقيم النوبيين في بلاد المسلمين خلال اجتيازهم لها، و أنه إذا أوى النوبيون أي عبد من المسلمين أو أي فار آبق إليهم من أهل الذمة، أو قتلوا مسلما فإن الهدنة ستصبح ملغاة[1].

بعد هذه الاتفاقية انطلقت العلاقات الودية لبين المسلمين في مصر و مسيبحيي النوبة، و بدا تدفق التجار المسلمين على مملة مقرة و بدؤوا يستقرون في بعض المدن النوبية، و رغم أن التجار المسلمين لم يكونوا دعاة متحمسين لدينهم لكنهم تمكنوا من ادخال بعض المبادئ الاولية للاسلام إلى االنوبة التي كانت قبل ذلك مسبيحية تماما. كما عرفت النوبة المسيحية انتقال الإسلام اليها من جهة البحر الاحمر عن طريق التجار العرب المقيمين في الساحل مثل مينا عيذاب و مصوع و ذلك بحثا عن الزمرد و الماس و الزمرد الموجودة في الصحراء الشرقية لبلاد النوبة و المعروفة بارض المعدن او ارض الكنز[2]. و في نفس الوقت تدعمت هذه الحركة بوصول البدو العرب من الجزيرة الذين استقروا ببلاد البجة مستفيدين من مصاهرتهم لرؤسا القوم و الاسر الحاكمة من البجة و بذلك بدا نفوذ المسلمين يتعاظم و معه يتهاضم نفوذ الإسلام إلى المنطقة، و بدأت معها عملية التعريب تلازم انتشار الإسلام [3].

أمام هذا الوضع بدأت العلاقات بين ملوك النوبة المسيحية و ملوك مصر تتوتر حيث، توحدت مملكتا النوبة و هما نوبات و مقرة في مملكة واحدة عُرفت باسم مملكة دنقلة بينما في الجنوب بقيت مملكة علوة المسيحية التي عاصمتها سوبا مستقلة عنهما. و في سنة 707م حاول ملك دنقلة الجديد وهو مركور (Mercure)، بتوحيد مسيحيي ضفاف نهر النيل في خطوة لتقوية صفوف المسيحيين، من خلال بناء كنيسة مسيحية في فاراس وذلك بالتنسيق مع بطارقة

(1) **ابن عبد الحكم**، مصدر سابق، ص178.

(2) **يوسف فضل حسن**، مقدمات في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي(1450 ـ 1821م)، قسم البحوث والدراسات التاريخية و الجغرافية، الخرطوم 1971م، ص16.

(3) **ايفان هربك**، مرجع سابق، ص104.

الاسكندرية، واستغل ملك دنقلة سجن المسلمين لأحد البطارقة القبط في مصر سنة 748م، ليشن هجوما على مصر وحاصر الفسطاط، ولم يحل المشكل إلاَّ بعدما اطلق سراح البطريق القبطي[1].

كما استغل ملك دنقلة زاشاري في سنة 831م ثورة الاقباط في مصر ليمتنع عن دفع الاتوات للمسلمين المتفق عليها في معاهدة البقط، لكن الخليفة العباسي قضى على المعارضة المسيحية في الاسكندرية و قتل عدد كبير من الاقباط الثائرين، مما جعل ملك اكسوم في الحبشة تنتقم فيما بعد من الاساطيل التجارية الإسلامية في البحر الاحمر، و قام القراصنة المسيحيين بمهاجمة ميناء جدة أيضا، و توترت العلاقة بين المسلمين و المسيحيين النوبيين إلى درجة مهاجمة المسلمين لميناء ادوليس و احتلوا جزر دهلك [2].

و لكن مع استمرار الهجرات العربية و خاصة جهينة و ربيعة إلى أرض البجة و مصاهرتهم بالأسر البجية فقويت شوكتهم و قضت على حالة التعنت و الهجمات المسيحية على مصر [3].

وفي عام 1317م، في عهد المماليك، قام الظاهر بيبرس بالقضاء على مملكة المقرة المسيحية التي كانت مدينة دنقلا عاصمتها، وتم تحويل الكنائس إلى جوامع ومعها انتهت المسيحية، ثمّ تدفق العرب إلى مملكة علوة التي فتحت أبوابها للقبائل العربية التي كان يقودها القائد عبد الله جماع الذي اتحد مع الفونج بقيادة الحاكم عمارة، وكان نتيجة هذا التحالف القضاء على مملكة علوة، وبهذا وفي عام 1504م ظهرت في السودان قوة إسلامية عربية جديدة وهي مملكة الفونج تحت حكم السلطان عمارة دوقنس، ووزيره عبد الله جماع، وشملت مملكة الفونج في تلك الفترة السودان ووادي النيل، ويذكر أنّ كلمة الفونج أو الفُنج تشير إلى السكان السود الذين كانوا يقطنون في النيل الأزرق جنوب السودان.

المبحث الثاني: الإسلام في الحبشة:

---

(1)**Jean Jolly**, Histoire du continent Africain, Op.Cit, p112.

(2) Ibid,p113.

(3) **عطية القوصي**، تاريخ دولة الكنوز الاسلامية، طبعة ثانية، دار المعارف بمصر ، القاهرة،1981، ص33.

إن رسالة الاسلام التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم كانت لم تكن تقتصر على قريش او جزيرة العرب و انما كانت رسالة عالمية و ذلك مصداقا لقوله تعالى :﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾[1]، بالإضافة الى قوله تعالى مخاطبا رسوله الكريم: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ**﴾ أي إلى جميع الخلق من المكلفين، وقوله أيضا:﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾[2].

لهذا فإن مهمة الرسول صلى الله عليه و سلم و اصحابة بعدما انتشر الاسلام في القريش ثم الجزيرة العربية هو نشره في كافة ربوع المعمورة حتى يقيم الله الحجة على الناس بعد ذلك، باعتبار أن الرسول محمد هو آخر الانبياء و الرسل، و رسالته هي آخر رسالة سماوية.

و لقد كانت افريقيا جنوب الصحراء من اهم المناطق التي اهتم بها المسلمين في نشر عقيدة التوحيد، حيث كان للتجار دور بارز في نقل الاسلام الى الشعوب و الممالك الوثنية في غرب افريقيا، أما بالنسبة لشرق افريقيا او الحبشة فقد كان الدور الابرز في الدعوة يعود الى الهجرات العربية التي كانت تتدفق على السواحل الشرقية لافريقيا قادمة عبر موانىء مصوع و عيذاب وغيرها، و بدات تتركز بين المجتمعات الحبشية هناك مقيمة جاليات اسلامية منذ القرون الاولى لصدر الاسلام.

لهذا سنحاول في هذه الدراسة توضيح عوامل انتشار الإسلام في الحبشة و اوضاع المسلمين هناك و علاقتهم بالممالك المسيحية المتجذرة في المنطقة، و الصراع الاسلامي المسيحي الذي يشكل السمة الغالبة للمنطقة.

أولا: الحبشة في العصور الإسلامية الأولى:

(**1**) سورة سبأ، الآيات من 28 الى 30.

(**2**) سورة الأعراف، الاية 158

الحبشة هو الإسم التاريخي لما يعرف اليوم باثيوبيا، ولقد عرفت إثيوبيا الإسلام عندما أمر الرسول الكريم صلى الله عليه و سلم المسلمين الضعفاء الأوائل بالهجرة للحبشة هرباً من اضطهاد قريش لهم. و لقد هبط المسلمون في ميناء مصوع و أحسن النجاشي استقبالهم[1]

اشتق اسم الحبشة من اسم قبيلة (حبشت) اليمنية، وقد هاجرت هذه القبيلة من الجزيرة العربية قبل الميلاد بعدة قرون واستقرت بهذه البلاد وأعطتها اسمها[2]. كانت الحبشة تمثل البلد الآمن بالنسبة للمسلمين نظراً لكونهم يدينون بالديانة المسيحية وأيضا لما عرف عن ملكهم بالعدل وسماحة خلقه وحسن معاملته مع باقي الديانات الأخرى التي كانت موجودة في تلك الفترة ,كما أن موقع الحبشة الجغرافي وقربها من شبه الجزيرة العربية ساعدت على اختيارها للهجرة إليها. فهي تعتبر بمثابة الجسر الذي يربط بين القارتين الأفريقية والآسيوية فلا يفصلها عن الساحل الآسيوي إلا مسافة ضيقة تقل عن عشرين ميلاً.

و عموما فقد أسلم النجاشي[3] يومذاك، و اختلف مع بطارقته الذين حقدوا على المسلمين حسدا عليهم و استمر حقد الكنيسة بعدها يزداد حيث غذته الصراعات بين المسلمين و الروم النصارى، إذ كان الأحباش يناصرون النصارى الرومان أبناء ملتهم و يعادون المسلمين[1].

---

(1) **يوسف أحمد**، الاسلام في الحبشة، طبعة اولى، مطبعة حجازي، القاهرة، 1935م، ص12. و يذكر صاحب الكتاب ، بأن المسلمين في الحبشة رغم الترحيب الذي تلقوه من طرف النجاشي إلا أنهم تلقوا إيذاءا كبير من طرف البطارقة الذين كانوا يحقدون على المسلمين ، و أن ما جعل الصحابة يذكرون ما نالهم من كرم من النجاشي و حسن الجوار و يكتمون ما لحقهم من البطارقة من أذى و تهديد و تخويف هو حسن اخلاقهم ز و يروي عدة احاديث و مصادر و سير تؤكد هذه الايذاءات التي لحقت بهم.(نفسه، ص ص19،20).

(2) **محمود شاكر**، التاريخ الاسلامي،ج 16 التاريخ المعاصر شرقي افريقية، طبعة ثانية، المكتبة الاسلامية، 1997م، ص 19.

(3) **النجاشي**: هو حاكم الحبشة وملك ملوكها أي إمبراطورها، فكلمة النجاشي لفظة حبشية، وهي لقب لمن ملك الحبشة، عربها العرب إلى نجاشي، وهو لقب لمن ولي على مملكة أكسوم شرق الحبشة وإرتريا الآن، كقيصر لمن ملك الروم، وكسرى لمن ملك الفرس، وخاقان لمن ملك الترك، وفرعون لمن ملك مصر. وكان اسم النجاشي **أصحمة بن أبجر**، وكان أحد ملوك الحبشة .

لهذا فإنه وبالرغم من تلك الصلات الطيبة التي ربطت الأحباش والمسلمين في عهد الرسول صلى الله عليه و سلم، إلا أنه بدأت بعض الاحتكاكات بين الطرفين بعد ذلك منذ عهد عمر بن الخطاب.

حيث أنه و بتحريض من الروم قام القراصنة الاحباش بشن غارات على ميناء جدة و السطو عليه و دمروا سفنه و قتلوا عددا من المسلمين و لاذوا بالفرار، لذلك وجه عمر بن الخطاب سرية من المسلمين سنة 20هـ، بقيادة (**علقمة بن مجزز المدلجي**) لوضع حد لاعتداءات الاحباش لكنها فشلت لذلك قرر عمر بن الخطاب أن لا يفد بعد ذلك أحدا للحرب في البحر[2].

وفي عهد الخلافة الاموية و خاصة في عهد عبد الملك بن مروان ارسل حملة استولت على جزر (**دهلك**) **و** جعلها قاعدة للمسلمين اقام فيها حامية لرد أي عدوان حبشي[3]، و هنا بدأ يتدفق على بلاد الحبشة التجار المسلمين، و أخذوا يستوطنون سواحلها فاحتلوا مناطق دهلك و مصوع و زيلع لكن هذه المرة بالطرق السلمية عن طريق التجارة و الهجرة و الاستيطان، و بدؤوا ينشرون الاسلام بين القبائل الوثنية[4]، و امتد الى غاية اريتيريا و و شرق الحبشة وجنوبا[5]. وقد وجدت بهذه الجزر نقوش عربية وشواهد قبور ترجع إلى منتصف القرن الثالث الهجري مما يدل على أن العرب المسلمين كان لهم بهذه الجزر حتى هذا التاريخ.

ثانيا: ظهور ممالك الطراز الإسلامي:

استقبل الصحابة المهاجرين إليه، واجتمعوا به في الفترة ما بين 610 . 629 م ويسمي) **أرمها** .(وهو الوحيد الذي صلى عليه رسول الإسلام صلاة الغائب لما علم بوفاته.

(**1**) **محمود شاكر**، المرجع السابق، ص20.

(**2**)**محمود شاكر**، المرجع السابق ،ص 20.

(**3**) نفسه، ص 20.

(**4**)**يوسف أحمد**، الاسلام في الحبشة، المرجع السابق،ص 21.

(**5**) **محمود شاكر**، مرجع سابق،ص 20.

لقد تألقت بعض القبائل المهاجرة الى الحبشة و بدأت تترقى الى مراكز اسلامية و مع مرور الوقت تحولت هذه المراكز الإسلامية إلى إمارات أو ممالك إسلامية أطلق عليها البعض اسم إمارات أو سلطنات الزيلع الإسلامية، وأطلق عليها المقريزي ممالك اسم الطراز الإسلامي ، وإن لم تتوحد هذه الممالك الإسلامية تحت سلطنة إسلامية واحدة ، ولكن ظهرت واحدة من هذه الممالك كقوة كبيرة، فمثلاً ظهرت مملكة "شوا" الإسلامية التي بلغت أوج عظمتها في القرن السادس الهجري[1] .

مملكة شوا و التي تأسست في قلب الهضبة الحبشية في اقليم شوا المشهور ، و لقد كان ملوك هذه المملكة من العرب وبالتحديد من عائلة بني مخزوم[2] المهاجرين الى المنطقة. و دام حكم هذه الاسرة حوالي اربعة قرون الى غاية سنة1225م حيث تم اغتصاب حكم المملكة من هذه الاسرة عن طريق شخص يدعى (**بَالرزَه**)، الذي سجن عبد الله المخزومي و استولى على عرش المملكة الى غاية سنة 1252م. لكن بعد ذلك دخلت المملكة في صراعات حول العرش الى ان احتلتها مملكة اسلامية اخرى هي مملكة ايفات التي تمكن ملكها صبر الدين من ضمها الى مملكته التي تحولت الى اقوى ممالك الطراز [3].

و بفضل سيطرت ايفات على ممالك الطراز الاسلامي سمح للإسلام بان يمتد الى غاية الهضبة الحبشية، و الى غاية اماكن تواجد قبائل الاجاويد الاحباش في النيل الازرق[4]. وكانت الاسرة التي حكمت ايفات تزعم انها تنتمي الى العرب التجار القادمين من اليمن و هم عرب من قريش من

(**1**) **عطية مخزوم الفيتوري**، دراسات في تاريخ شرق افريقيا و جنوب الصحراء (مرحلة انتشار الاسلام)، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، الطبعة الاولى ، 1998م، ص 153.

(**2**) بني مخزوم هي قبيلة قرشية ينتمي اغلى اليها خالد ابن الوليد و عمر بن هشام(ابو جهل)

(**3**) **عطية مخزوم الفيتوري**، دراسات في تاريخ شرق افريقيا، مرجع سابق، ص 155.

(**4**) نفسه،ص155.

ولد غقيل بن ابي طالب ، و سكنوا ناحية تسمى جبرت من أراضي زيلع و سموا بعد ذلك الجبرتية و هم شعب كبير من المسلمين يسكنون الحبشة الى غاية اليوم[1].

و كان لنجاح هذه المملكة في نشر الاسلام في قلب الحبشة دور في ظهور ممالك اسلامية اخرى في الحبشة و القرن الافريقي خلال القرن الرابع عشر للميلاد، عرفت بدول الطراز لانها كانت تحيط بمملكة الحبشة من الجهة الشرقية مثل الطراز و تسمى ايضا بلاد الزيلع[2]، و قد بلغ عددها سبع امارات هي: أوفات، داورو، أرابيني، هديا، شرحا، بالي، و دارة .

و كانت هذه الممالك تمثل نماذج حقيقية للدول الاسلامية في الحبشة حيث كانت لها مساجد و جوامع تقام فيها الجمعة وصلاة الجماعة، و فيها الزهاد و الابرار، و كانت بلدانهم على جانب عظيم من الخير و الرخاء و جميعها متجاورة ما عدا داره التي كانت ارضها داخلة في اراضي امحرة عاصمة مملكة الحبشة انذاك، و كانت مملكة اوفات اوسع هذه الممالك و ملكها يتبع المذهب الشافعي، لديه جيش مكون من 15الف فارس و اكثر من 20 الف من المشاة ، لهذا كانت لأوفات السيادة على بقية الممالك[3].

ثالثا: ظهور الدولة السليمانية و محاربة الممالك الإسلامية:

و يبدو أن هذه الممالك مرت بمرحالة الضعف ابتداء من القرن 13 ميلادي، حيث بلغت خلال القرن الرابع عشر ميلادي على قدر كبير من الضعف و التفكك، أذ يصفها ابن فضل الله

---

(1) **يوسف أحمد**، المرجع السابق، ص 23. انظر ايضا: **محمد بن علي الشوكاني**، البدر الطالع بمحاسن القرن السابع، دار الكتاب الاسلامي للنشر، القاهرة، د ت ، ج2، ص142.

(2) الزيلع هو اسم قرية صغيرة تنتمي الى احدى هذه الممالك فاشتهرت بهذا الاسم كل ممالك الطزار.

(3)**العمري (ابن فضل الله)**، مسالك الابصار في ممالك المصار، مصدر سابق، ص ص 69. 70. ــ انظر ايضا: القلقشندي(ابو العباس)، صبح الأعشى مصدر سابق، ص 334.

العمري بانها كانت ضعيفة و البنيان و العمران و قليلة الغنى و محصول بلادها قليل، كما أن أحد ملوك الحبشة كان يتسلط عليها، بالاضافة الى تفرق كلمتهم و انتشار العداوة بينهم[1].

فلقد كان ملوك الطراز يحملون كل سنة لملك أمحرة (عاصمة مملكة الحبشة المسيحية) الذي يسمى (**الحطّي**) الاقمشة والحرير و الكتان التي كانوا ياتون بها اليه من مصر و اليمن و العراق ، لكن في المقابل كانت هذه الممالك تضم الجوامع و المساجد وتقام بها الخطب و الجمعات و عند اهلها يحافظون على الدين لكن لم تكن منتشرة عندهم المدارس و لا رباطات و لا زوايا لتعليم القرآن[2].

فعلاقة ممالك الطراز الاسلامية بممالك الحبشة المسيحية اذا كانت علاقة ولاء، فملوك الحبشة هم من يعينون امراء المسلمين، و كان هؤلاء الامراء يدفعون الاتاوات و ضرائب الولاء، و يساعدون الاحباش في حروبهم مع اعدائهم[3].

و استفحل الامر عندما تولت حكم مملكة الحبشة اسرة مسيحية متطرفة تدعى الاسرة السليمانية نسبة الى النبي سليمان و زوجته بلقيس، فلقد تاسست هذه الاسرة على يد ملك متطرف يدعى يكونو املاك الذي كان حاقدا على المسلمين و العرب و مدعوما من طرف الكنيسة الارثودكسية بالإسكندرية، حيث استغل تنازع ملوك ممالك الطراز الاسلامي على السلطة ليخضعهم الواحدة تلو الاخرى بمساعدة بعض ملوكها[4].

و كان ملوك الحبشة ينظرون الى هذه الممالك الاسلامية بعين الحسد والحقد فاخذوا يتحينون الفرصة للفتك بهم و احتلال ممالكهم، لذلك لما دخل القرن التاسع الهجري/15م، ظهر ملك حبشي اسمه **اسحاق بن داوود** الذي تولى ملك الحبشة سنة 812هـ/1409م الذي أحدث

(**1**) نفسه، ص61 .

(**2**) نفسه ،ص 63.

(**3**) عطية مخزوم الفيتوري، المرجع السابق، ص165.

(**4**) نفسه، ص161.

إصلاحات كبيرة جعلت مملكة الحبشة تتقوى و ذلك باعتماده على الجراكسة الاتراك في إنشاء مصانع الاسلحة كالسيوف و الرماح و الخناجر التي عوضت النشاب و الحراب التي كانت في الحبشة، و اعتمد على رجل قبطي خبير في تنظيم المسائل المالية حيث ولاه ادارة الشؤون المالية لمملكته، فانتعشت الدولة و عم الرخاء و طغى النجاشي وتجبر، و بدأ يعمل على انتزاع ملك المسلمين في دول الطراز و طردهم من بلاد الحبشة وإبادتهم واسترقاقهم و اعلن حربا على المسلمين كما دعا ملوك الفرنج على التحالف لإزالة دولة الاسلام في بلاده [1].

استمرت اعتداءات ملوك الحبشة المسيحيين على الممالك الاسلامية في عهد خلفاء يكونوا املاك، ففرضوا التوات و خربوا المدن و استولوا على تجارتهم، و ظهرت هناك ثورات اسلامية مثل الثورة التي قادها احد تجار مملكة عدل و هو صبر الدين، كما راسل التجار العرب بالزيلع سلطان مصر يستنجدون و يطلبون ايقاف اعتداءات ملوك الحبشة[2].كما لجات الممالك الاسالعثماني، فيما طالب الاحباش نجدة الاسطول لمساعدة الأسطول البرتغالي الذي أحرز انتصارات حاسمة على الأساطيل الإسلامية في المحيط الهندي. حيث استجابت البرتغال لهذا الطلب الحبشي وأرسلت قوة على رأسها أحد أبناء فاسكو دي جاما، لكن القوات البرتغالية منيت بخسائر فادحة وقتل قائدها، دونان تتمكن القوارب الإسلامية من أن تحقق نصراً على الحبشة والقوات المؤازرة لها . وقد أرسلت ملكة الحبشة هيلانة" في عام/ 1510م رسولاً إلى الملك "عمانويل" ملك البرتغال بهدف الاتفاق على عمل مشترك ضد القوى الإسلامية , لكنها أيضاً كانت تنوي مهاجمة.

كما أن اعتداءات سلاطين الاسرة السليمانية استمرت، وتم القضاء على التمردات و الثورات الاسلامية التي قدها أحفاد صبر الدين كان آخرهم سعد الدين و إبناه الذان قُضِي عليهما عام

(1) يوسف أحمد، الإسلام في الحبشة، مرجع سابق، ص ص 32. 33

(2) عطية مخزوم الفيتوري، المرجع السابق، ص 170.

1430م[1]. وكادت أن تسقط الممالك الاسلامية و نهاية الإسلام في هذه الديار لولا أن الله قيظ لهذا الدين من ينصره في هذه الديار.

رابعا: ظهور أحمد بن إبراهيم و استعادة مجد المسلمين في الحبشة:

بعد سقوط الاسرة السليمانية عام 1468م ، ظهر ملوك احباش متعصبين للمسيحية خلال القرن 16م مثل النجاشي (لبنا دنجل) الملقب بذاود الثالث، و ابنه كلاوديوس حيث عانى المسلمون في عهدهم أياما عصيبة و تقلصت مملكتهم إلى أن اصبحت تضم هرر فقط، و التي كادت ان تسقط نهايا لولا ظهور أحمد بن ابراهيم[2] الذي تولى امر المسلمين و جمع كلمتهم و لقبوه بالإمام ، وبالغازي وبصاحب الفتح، و لقبه الأحباش بالغراني (Gragn) أي الأعسر، و لقد عمل على التوغل إلى داخل الأراضي الحبشية فوصل إلى الأقاليم الشمالية و انتصر عليهم في عدة مواقع حتى كاد أن يفنيهم ، و قد جاهد الامام احمد الاحباش لمدة 12 سنة من سنة 1531 الى 1543م، وكان يحارب بجيش قدر عدده بعشرة آلاف مقاتل الى أن استشهد في احدى المعارك[3].

و لقد كان الأمير أحمد قبل ان يتزعم الجهاد فارسا في جيش (**الجراد أبون**)[4] أمير مقاطعة عدل، الذي كان رجلا صالحا أقام الحق و امر بالمعروف و نهي عن المنكر و قتل قطاع الطرق وأبطل الخمور واللَّعب و الرقص و الطبول و عمرت البلاد و احب الاشراف و الفقهاء و المشايخ وسيطر على مملكته[5]. وقد تم ذلك بعد أن نقل عاصمة دولة عدل في عام 1521 إلى مدينة هرر

(**1**) نفسه، ص 173.

(**2**) كان ابنا لأحد القساوسة المسيحيين في ايجو ثم ترك موطنه و استقر في سلطنة عدل حيث اعتنق الإسلام .

(**3**) **يوسف أحمد**، مرجع سابق، ص 38.

(**4**) الجراد هي وظيفة ادارية انشأها الملك الحبشي (زرء يعقوب) آخر ملوك الاسرة السليمانية ، تتمثل في حيث أنالجراد هو حاكم مقاطعة تابعة لامبراطورية الحبشة يخض للامبراطور و ينفذ سياستها و يحارب اعدائها داخل الامبراطورية و خاصة المسلمين، و كان الجراد ينتمي الى طبقة العسكر وله الحق في مصادرة الاراضي و فرض الاتواتداخل مقاطعته. (عطية مخزوم الفيتوري، مرجع سابق، ص172).

(5) **شهاب الدين** أحمد بن عبد القادر (الملقب بعرب فقيه)، فتوح الحبشة، ص 7.

.وكانت الحبشة في ذلك الوقت تحت حكم الملك "لبني دنجل" وكانت أمه الملكة هيلانه وصية عليه تتحكم في امور الدولة وكان الملك الشاب يستهين بقوة المسلمين.

و لما توفي الجراد ابون من طرف قطاع الطرق خلفه على امارة عدل السلطان أبو بكر من ذرية المجاهد سعد الدين ، الذي ظهر في عهده قطاع الطرق و شرب الخمور و كثر الظلم، فاشتكى من أمره الفقهاء و شيوخ الدين بسبب تركه للأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و انتشار المحرمات، ولم يجد الناس من ينصفهم، وفلما علم الامام احمد بخروجه عن منهج الكتاب و السنة هرب من البلاد هو و جماعة من عساكره الى منطقة (**هوبت**) **أو** (**آبت**) و كان عدد خيولهم اكثر من مائة فنصبوا الجراد عمر الدين و اعلنو تمرده على ابي بكر، واعلن الجهاد، و كانت أول غارة قام بها على الاحباش كانت هجومه على أحد البطارقة الذي قام بسبي نساء المسلمين و أخذ أموالهم ومواشيهم في مكان قريب من هوبت، فقتل من البطارقة عددا كثيرا ومن الجنود المسيحيين الآلاف، و غنم المسلمين ستين فرسا و عدد من البغال والعربات وحرروا اسرى المسلمين و استردوا مواشيهم المغتصبة و كان اول انتصار يحققه أحمد بن إبراهيم على الأحباش[1].

و بعدها استشهد الأمير عمر الدين في إحدى المعارك، و كان الامام احمد يحارب جبهتين الإمبراطور الحبشي المسيحي من جهة وسلطان عدل أبي بكر الذي غدر بهم و أعلن ولاءه للامبراطور الحبشي، بعدها تمكن من قتل السلطان ابي بكر و تفرغ لمحاربة الامبراطور، فمنع موظفيه من جمع الأتوات من أراضي المسلمين، أو من أن يدخلو عاصمة عدل هرر، و اتخذ راية له، ونظم اموره بتقسيم البلاد الى خمسة اقسام و عين على كل منها اميرا و كان ذلك سنة 1527م[2].

حقق الامام احمد انتصارات عظيمة و فتح سلطنة دوارو،و قتل قائدها و سيطر على جنوبي شرق الجبشة، و سيطر على ايفات في سنة سنة 935 هـ / 1529 في موقعة (**شنبر كوري**) أو

---

(1)**شهاب الدين أحمد بن عبد القادر** ، فتوح الحبشة ، مصدر سابق، ص ص 7،8،9.

(2) **عطية مخزوم الفيتوري**، مرجع سابق، ص197.

(**صمبر كوري**)[1] و أسر عدد كثير من المسيحيين بما فيهم بنت خالة الامبراطور الحبشي و افتديت بخمسين الف اوقية من الذهب[2]. ثم انتقل الى محاربة بلاد الحبشة داخل اراضي المسيحيين، فلجأ الاحباش الى التحالف مع البرتغاليين سنة1526م. فلجأ الاتراك الى مساعدة احمد بن ابراهيم وأمدوه بالجنود و بالأسلحة النارية والمدفعية، و بالتالي أحرز الأمير أحمد نصراً على الأحباش وأعقب ذلك في 1531 بدخوله "دوارو وشوه ومهره ولاسا"، واستعاد إمارات" بالي وهدية وسدامة " وهكذا لم يأت عام 1535 حتى كان المسلمين يسيطرون على جنوب الحبشة ووسطها مما اضطر الملك الحبشي للهروب من وجه الإمام[3] .وهكذا اتخذت المعارك بين الطرفين صورة حرب دينية.

وكان نجاح الإمام في اقتحام أبواب عاصمة الملك الحبشي(أمهرا) أثراً كبيراً. وأصبح الإمبراطور مطاردا حيث لجأ إلى قمم الجبال، كما ادت انتصاراته الى اعتناق عدد كبير من الاحباش للاسلام، وتمكن أحمد من احتلال أكسوم نفسها. و بذلك سيطرت الجيوش الاسلامية على بلاد الحبشة بزعامة أحمد بن إبراهيم، و اخذت النصرانية في الانهيار تحت ضغط المسلمين، ولكن وصول القوات البرتغالية لمساعدة المسيحيين ادت الى استشهاداحمد بن إبراهيم سنة 1542م[4].

بعدما استشهد أحمد بن إبراهيم في احدى المعارك سنة 1543م، خلفه على قيادة المسلمين ابن أُخته الأمير نور الدين بن مجاهد إماماً ليخلف خاله في الجهاد واستطاع أن يتصدى للجيوش الحبشية و الذي استطاع قتل الملك كلاديوس.

خامسا:.الإسلام في الحبشة بعد أحمد بن إبراهيم:

(**1**) **شهاب الدين احمد بن عبد القادر**، مرجع سابق، ص9.

(**2**) **عطية مخزوم الفيتوري**، مرجع سابق، ص198

(**3**) **نفسه**، ص 199.

(**4**) **نفسه**، ص201.

بموت الامير نور الدين انتهى مجد مملكة عدل فعادت الحبشة إلى إلحاق الأذى بالمسلمين الذين أصبحوا عاجزين عن مقاومة تعدي الأحباش، و بدأت أوضاع المسلمين تنهار شيئا فشيئا وبدا الأحباش يخترقون ارض المسلمين من الجنوب و كادوا ان يقضوا على الاسلام في الحبشة [1].

و قد انتزع الاحباش من ايدي المسلمين مملكتي بالي و هديا و استقروا ما بين هرر عاصمة عدل وشوا، اما المسلمين فقد تمركزوا في (**أوسه**) و اتخذوها مقرا لهم. لكن المجهودات التي قام بها احمد بن ابراهيم لم تذهب سدى، حيث ان الاسلام كان قد انتشر في عهده بين صفوف المسيحيين والوثنيين في هضبة الحبشة، حتى انه اسلم سكان منطقة جالا و الايجو الوثنيين، و في 1780م تمكنت قبائل الايجو من السيطرة على العاصمة القديمة للحبشة أمحرة و أصبح رئيس قبيلة إيجو المسلم يتحكم في النجاشي، بعدها أصبح ابن عمه(**علي**) المسلم نجاشيا و ملكا على الحبشة كلها، فكان هذا فاتحة عهد جديد للمسلمين في الحبشة[2].

سادسا. النهضة الاسلامية في الحبشة:

خلال منتصف القرن19م حدثت نهضة علمية اسلامية في شرق الحبشة بفضل اتصالها باليمن و الحجاز، وتأثرت حتى المناطق الغربية بسبب الغزو المصري للسودان في عهد محمد علي باشا 1821م، و انتشر علماء المسلمين حتى في منطقة جالا في الداخل، حيث يقول الكاتب النمساوي **بولتشكي**(Paulitshke)لما زار جالا: «**ما أدهشني في بلاد جالا كثرة الدعاية الاسلامية الغيورة فيها ، قد لاحظت الشافعية في هرر على اتصال دائم بالحرمين و أن مئات الشباب ياتون لزيلع و بربرة كل سنة للتبشير (يقصد لنشر الدين الاسلامي) و يتسع نطاق**

(**1**) **يوسف أحمد**، الإسلام في الحبشة، مرجع سابق، ص39.

(**2**) **نفسه**، ص 41.

اعمالهم الدينية ، و يتقدم الاسلام بين قبائل الصومال، و إن لم توجد فيهم روح الاسلام الصحيح كثيرا(أي الاسلام السطحي)»[1].

و من أأحداث التي عرفتها الصومال الجنوبي قيام حركة جهاد المعروفة **بالباديرا** و هي حركة اسلامية اصلاحية انطلقت من منطقة باديرا الواقعة على نهر جوبا و كان هدفها نشر الاسلام وإقامة دولة اسلامية في الصومال الجنوبي، وقد تمكنوا من إخضاع مدينة برافا الساحلية سنة 1840م لكن هذه الحركة أخمدت كما بدأت خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر انتشار الطرق الصوفية خاصة القادرية و الأحمدية و الصالحية و التي بدأت تتغلغل داخل الصومال و تنشئ مستوطنات اسلامية في مختلف انحاء البلاد[2].

كما وزعت الحكومة المصرية لما غزت السودان المصاحف على اهل هرر و شوا حتى أصبحوا من أشد الناس حفاظا على الإسلام و ازدادت قوافل الحج المنطلقة من زيلع و تغرة، كما عمل رؤوف باشا وهو حاكم مصر على هرر على إصلاح اعمال الصوماليين والقضاء على المفاسد، واستمالهم إلى اعتناق الإسلام و نشر العدل و النظام[3].

سابعا: سلطنة جما الاسلامية آخر معاقل المسلمين في الحبشة:

بخروج الحكومة المصرية من الحبشة بعد انهزامها في معركة قراع 1871م، عادت عمليات اضطهاد المسلمين من طرف المسيحيين حيث تم تنصير 50 الف مسلم بالقوة عام 1880م،مما ادى الى هجرة عدد من المسلمين للأراضي الحبشية هروبا بدينهم، و قام النجاشي مانلك بتوحيد الحبشة من جديد تحت سلكته و ضم الممالك الاسلامية و الوثنية و المسيحية لسلطته سنة1892م، و لم تبق إلا سلطنة (**جما**) مملكة اسلامية مستقل، التي اسلمت خلال النصف الأول

(**1**) **يوسف أحمد**، الإسلام في الحبشة، مرجع سابق،ص44.

(**2**) **بانكهيرست(ر) و ل.ف.كاسانيللي**، اثيوبيا و الصومال، ضمن كتاب، تاريخ افريقيا العام، مجلد 6، خاص بالقرن التاسع عشر في افريقيا، صادر عن اليونسكو، مطبعة حسيب درغام و ابولاده، لبنان، 1996م، ص 443.

(**3**) **يوسف أحمد**، مرجع سابق، ص67.

من القرن 19م عن طريق تاجر مسلم مشهور باسم نقادي شوى (و معناها بلغتهم قائد القافلة) و أصبحت مملكة اسلامية ملكها محمود بن داود المشهور باسم **(ابَّا جفار)** أي صاحب الحصان الكميت[1].

تولى هذا الملك حكم سلطنة جما في سنة 1887م، و كانت تربطه علاقة طيبة مع الإمبراطور الحبشي مانليك، وكان يساعده في إدارة المناطق الداخلية للبلاد، وكان يشرف على جميع المحاكمات، ويشرف على حماية الأجانب في الأسواق، و رغم ذلك فقط قام النجاشي مانليك في يوم من الأيام بإخضاعها لسلطته، ولكنه أبرم معها معاهدة ليبقى الملك فيها لأسرة أبا جفار وراثيا، بالإضافة الى تأديتها جزية سنوية لملك الحبشة في اديسا بابا، و ظلت هذه الجزية تزدادا كل سنة بغرض اضعاف آخر مملكة اسلامية و لا تستطيع الاستقلال[2].

و عموما فاننا ممكن ان نعتبر بأن الفترة الزاهية للاسلام في الحبشة التي بلغت اوجها بين القرنين الرابع عشر و السادس عشر انتهت بهزيمة المسلمين سنة 1887م بتدخل دولي ممثل في دولة البرتغال والكنيسة الكاثوليكية العالمية وظهور الاستعمار الأوروبي وهيمنته على القرن الإفريقي.

كما تفاقم الوضع أكثر بعد الاستقلال و ذلك منذ وصول النظام الشيوعي الى الحكم بقيادة منجستو هيلا مريام، حيث ازداد وضع المسلمين في إثيوبيا سوءًا لأسباب سياسية عدَّة، منها: الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي السابق، وظهور جبهات إسلامية وقومية مسلَّحة مختلفة المرامي والمقاصد في المنطقة، والصراع الإثيوبي الإريتري من جهة، بالاضافة الى الصراع الإثيوبي الصومالي من جهة أخرى. وقد حارب منجستو جميع المظاهر الدينية المسيحية والإسلامية على حدٍّ سواء.

(**1**) الحصان **الكميت** هو الحصان الذي يكون لونه بين الاسود و الاحمر.

(**2**) يوسف أحمد، مرجع سابق، ص 51.

لكن مع بداية الانفراج السياسي للمسلمين في إثيوبيا و تحولها إلى مرحلة الديمقراطية والتعددية الحزبية والنظام الفيدرالي في الحكم بقيادة رئيس الوزراء الراحل مليس زناوي[1]، وفي عهده تنفَّس المسلمون الصَّعداء ورأوا أنهم جزء أساسي من الوطن وأبدوا الثقة بالحكومة بعد إعطائهم نوعًا من الحرية السياسية والمشاركة في الحكم، حيث ضمت حكومة مليس 12 وزيرًا مسلمًا، إضافة إلى إنشاء برامج تعليمية وتدريبية للمسلمين في كافة المناطق المسلمة المهمَّشةّ ، كما تم فتح أول كلية إسلامية في أديس أبابا، وتزامن مع هذا أيضًا إنعاش الاقتصاد في المناطق المسلمة.

ورغم أن إثيوبيا تعتبر دولة حبيسة ليس لها منفذ بحري ودولة تعاقبت فيها أنظمة مَلَكية وديكتاتورية لعدة قرون تمنع الحرية السياسية والاقتصاد الحر إلا أن هذا الكبت السياسي والاقتصادي زال تدريجيًّا بوصول مليس زناوي إلى سُدَّة الحكم، وبدأ صوت المسلمين يُسمَع في أروقة الحكومة والدوائر الحكومية المختلفة لأول مرة في التاريخ الإثيوبي السياسي .

المبحث الثالث

الإسلام في ممالك السودان الشرقي

بعد زوال الممالك الاسلامية ظهرت ممالك اخرى اسلامية على انقاضها في شرق افريقيا وبلاد النوبة، حيث كان ظهورها نتيجة للتأثير العربي الاسلالمي في المنطقة من خلال نشاط التجار العرب المسلمين القادمين من اليمن و الحجاز، و تمركزهم في موانئ سواحل النوبة مثل مصوع و دهلك

---

(1) **مليس زيناوي** : رئيس وزراء إثيوبيا منذ 22 أغسطس 1995 حتى وفاته في 20 اوت 2012 م،شغل قبل ذلك منصب رئيس الدولة من 28 مايو 1991 إلى 21 أوت1995 ، وصل الي الحكم بعد الإطاحة بنظام منغستو هيلا مريام الشيوعي في مطلع التسعينات. تقدمت إثيوبيا في حكمه نوعيًا في الاقتصاد والانفتاح الخارجي. كان عضواً في الجبهة الديمقراطية الثورية لشعب أثيوبيا .توفي زيناوي مساء الاثنين 20 أغسطس) آب 2012 بسبب "عدوى مفاجئة عن عمر يناهز 57 عاماً بينما كان يتعافى من مرض ألم به في مستشفى خارج إثيوبيا.

وعيذاب، و اختلطوا بالشعوب النوبية و تصاهروا معهم و اشتركوا مهم في التجارة ونقلوا اليهم الإسلام و اللغة العربية، ولعل أهم هذه المملك مملكة الفونج التي اتخذت من مدينة سنار الواقعة شرقي الخرطوم مركزا تجاريا لها،و التي استطاعت أن تمد نفوذها إلى جميع الاراضي السودانية الحالية تقريبا.

أولا: مملكة الفونج:

عرفت هذه المملكة أيضا بالمملكة السنارية، و ذلك نسبة إلى المكان الذي قدمت منه، والفونج نسبة إلى عائلة الفونج الحاكمة في المملكة. و لقد شكل موضوع اصل هذه المملكة الكثير من الجدل، فهناك اراء تنسبهم إلى الشلك الذين ينحدرون من منطقة بحيرة فكتوريا نيانزا قبل هجرتهم إلى السودان، حيث يذهب هذا الراي إلى أن الشلك هجموا على النيل الابيض بقورابهم اين كانت تسكن هناك قبائل عربية التي كانت تعيش على شكل مشيخات تعرف بالعبد اللاب نسبة إلىزعيمها عبد الله جماع، فأخضعوهم و أسسوا دولتهم التي تسمى سنار[1].

و هناك روايت ترنسبهم إلى اصل اموي، أي إلى مهاجرين امويين هاجروا خلال النكبة الاموية إلى الحبشة و بالضبط من منطقة لمؤول في شمال الحبشة بغرب اريتيريا[2]. و هناك رأي يقول أنها جاءت من الغرب من منطقة دارفور و بورنو، وأن هذه المملكة أسسها الملك عثمان أكاد الذي طُرد من دارفو سنة 1486م ، حيث توجه عثمان إلى السودان الشرقي و استعان بقبائل الشلك الذين ساعدوا حفيده على هزيمة العبدلاب و اقامة دولته بسنار[3].

عموما فإن تأسيس مملكة الفونج يعود إلى سنة910هـ/ 1504م، عن طريق عمارة دونقس الذي استغل سقوط مملكة علوة المسيحية ليتحالف مع مملكة العبدلاب العربية و زعيمها عبد الله

---

(1) **الشاطر بصيلي عبد الجليل**، معالم تاريخ سودان وادي النيل(من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر ميلادي) ، الطبعة الاولى، مطبعة ابو فاضل، القاهرة، 1955م، ص15.

(2) **يوسف فضل حسن**، مقدمات في ممالك السودان الشرقي، مرجع سابق، ص 60.

(3) **الشاطر بصيلي عبد الجليل**، مرجع سابق، ص28.

جماع من أجل القضاء عليها فهزموها في معركة أربجي[1] الواقعة على ضفاف نهر النيل الأزرق، وكان نتيجة هذا النصر اتفاق بين المملكتين على تقسيم النفوذ، حيث يكون عمارة دونقس ملكا عليه وعلى كل المملكة متخذا سنار عاصمة له، بينما يكون عبد الله جماع نائبا له على الجزء الشمالي من المملكة، و اتخذ من مدينة قرى عاصمة له [2].

كان السناريون قبل حلفهم مع العبدلاب وثنيين لكنهم بعد تاسيسهم للمملكة و تحالفهم معهم اعتنق عمارة دنقس الإسلام و أصبحت مملكته إسلامية رغم بقاء الكثير من مظاهر الوثنية سائدة في صفوف الهمج الذين كانوا يشكلون العمود الفقري للجيش و الموظفين و الحراس في المملكة [3].

حكم مملكة الفونج خمسة و عشرون ملكا في مدة تفوق ثلاثة قرون من الزمن، من 1504م إلى سنة 1821م، عرف فيه الإسلام الثقافة الإسلامية انتشارا كبير في بلاد السودان. و تحولت «سنار» إلى مركز إشعاع حضاري بفضل موقعها الجغرافي في قلب السودان، وبتركيبتها السكانية التي استوعبت جل الأعراق العربية والإفريقية، وتجلت فيها روح التسامح الإسلامي والتصالح مع الثقافات المحلية الموروثة مما قبل الإسلام. واهتم سلاطين «سنار» بمختلف فروع العلم والمعرفة، وسجل السناريون حضورهم في الأزهر الشريف بـ «رواق السنارية»، وفي بلاد الحرمين الشريفين بعدد من الأوقاف الخيرية لخدمة الحجيج القادمين من القارة السمراء [4].

ثانيا: الإسلام في مملكة الفونج:

---

(1) تقع اربجي على الضفة اليسرى للنهر الازرق على بعد 150كم جنوب الخرطوم، و قد أسسها حجازي بن معين في عام 1470م أي قبل سنار.

(2) **سحر يحي عبد الرضي محمد**، تأسيس مملكة الفونج الاسلامية، بحث تكميلي لنيل درجة البكالوريوس، كلية الاداب، قسم التاريخ ، جامعة الخرطوم، السنة الجامعية 2012م، ص10.

(3) **الشاطر بصيلي عبد الجليل**، مرجع سابق، ص20.

(4) **إبراهيم البيومي غانم**، عندما أصبحت «سِنَّارُ» عاصمةَ الثقافة الإسلامية، في موقع الكتروني:
https://www.ida2at.com/when-sennar-became-the-capital-of-islamic-culture

كان لظهور مملكة الفونج دور فعَّال في نشر الإسلام في السودان الشرقي، فرغم أنه في بداية الأمر كان الإسلام في البداية سطحيا، حيث أنه لم تشهد العاصمة سنار في البداية أي مسجد على ترابها، و كان الرجال فيها بعيدون أشد البعد عن تعاليم الإسلام رغم نظقهم بالشهادتين ،إذ كان الرجل يطلق زوجته و يتزوجها رجل آخر في نفس اليوم دون عدة، و هذا نظرا لغياب نشاط الفقها و العلماء، و امتزاج الإسلام بالعقائد المحلية[1]، كما أن الملك الذي كان يطلق عليه إسم سيد القوم، لم يكن في البداية مشدودا للعلماء و الفقهاء بل أنه كان يعتني بالكهنة الوثنيين ويجالسهم رغم إسلامه[2]، لكن مع مرور الوقت بدأت هذه المملكة تعمل على الدعوة و نشر الوازع الديني، و عمدت إلى ارسال بعثات علمية إلى الحواضر العلمية في العالم الإسلامي و خاصة الازهر الشريف من اجل تكوين نوعي للفقهاء و الدعاة السناريين، إذ تذكر المصادر بأن ملوك سنار اهتموا بالعلم ولذلك أقاموا رواق السنارية في الأزهر بالقاهرة من اجل طلاب مملكة سنار هناك[3]، وشجعوا علماء الدين الإسلامي للهجرة إلي السودان للدعوة ونشر العلم. وأنشأ أحد سلاطين مملكة سنار و يدعي بادي الأحمر وقفاً بالمدينة المنورة لاستقبال الزوار من مملكته للإقامة هناك عند زيارتهم للأراضي المقدسة، ولا يزال جزء من أوقاف السودان هناك، فبدأ سلاطين سنار يقربون العلما و شيوخ الصوفية اليهم و إلى مجالسهم [4].

فملوك الفونج لم ينشروا الإسلام بالقوة ، فاذا استثنينا بعض الحالات التي استعمل فيها العنف لنشر الإسلام بين الجماعات الوثنية و القضاء على العادات القديمة، فان اساليب الدعوة

---

(1) **مصطفى محمد سعد**، الإسلام و النوبة، في العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الاولى، 2011، مصر، ص196

(2) **Eva Evers Rosander**, **David Westerlund**, African Islam and Islam in Africa: **Encounters** Between Sufis and Islamists, C. Hurst & Co. Publishers, 1997, P163.

(3) **شوقي عطاء الله الجمل**، الأزهر و دوره السياسي و الحضاري في افريقيا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر،1988، ص44.

(4) **يوسف فضل حسن**، مقدمات في ممالك السودان الشرقي، مرجع سابق، ص141.

الاسلامية زمن الفونج كانت سلمية خالصة. و تميزت هذه المرحلة من تاريخ الدعوة بظهور طبقة الفقهاء و رجال الصوفية الذين جلبوا اساليب جديدة للدعوة الاسلامية[1].

ونتيجة لذلك انتشرت العلوم الإسلامية و اللغة العربية بصورة نظامية خاصة مع انتشار الخلاوي التي تعرف بالكتاتيب في السودان لتحفيظ القرآن الكريم و علوم العربية و الحساب. و كان لهذه الأماكن أثر بالغ الأهمية حيث تلاقت الجماعات السودانية من مختلف مناطق البلاد وتمازجت و اختلطت بدرجة كبيرة، وقامت على إثر ذلك مدن وقرى أدت إلى تحول كبير في حياة الناس من البداوة إلى المدنية و التحضر. و في عهد دولة سنار دخل التصوف إلى السودان على يد الشيخ تاج الدين البهاري القادري قادماً من الحجاز عام 1571م، و أقام في وادي شعير بالجزيرة و أخذ عنه اليعقوباب و محمد ود رحمة الحلاوي و شاع الدين ود التويم الشكري و عجيب المانجلك ملك العبدلاب ومحمد الهميم ود عبد الصادق الركابي ثم العركيون من بعد [2].

و لقد ترك التصوف بصمات واضحة في انتشار الاسلام في االسودان الشرقي من خلال التعليم الاسلامي و الكتاتيب و الخلاوي، و كذا نشر العقيدة االسنية، و أسهمت بقدر كبير في نشر علوم الدين و اللغة العربية .

كما عمل ملوك سنار على ربط مملكتهم بالعالم الاسلامي، و خاصة مع الحواضر و المراكز العلمية الاسلامبية،و في مقدمتها الازهر الشريف و الحجاز، القيروان و فاس و مراكش، و كان هذا التواصل عن طريق قوافل الحجاج المتوجهين نحو مكة أو القادمة من المغرب الإسلامي و غرب إفريقيا و التي كانت تمر بسنار التي صارت قبلة للناس من كل حدب وصوب.

لقد جلب القادمون من الغرب مذهب الإمام مالك و رواية ورش عن نافع ونظراً لوقوعها في طريق الحج أصبحت سنار مستقراً لكثير من الناس القادمين من ممالك الحزام السوداني مثل

---

(1) **مصطفى محمد سعد**، الإسلام و النوبة، مرجع سابق، ص197.

(2) **يوسف فضل حسن**، مرجع سابق، ص141.

واداي و كانم وبرنو و باجرمي و مالي و السنغاي و صوكتو على أيام عثمان دان فوديو، و من مملكة الفوته تورو التي قامت تحت حكم عمر بن سعيد الفوتي، و فيما بعد قدم الحاج عمر بنفسه من مالي لتستقر أسرته في منطقة سنار ويظل أحفاده هناك حتى يومنا هذا. و نستطيع القول أن سلطنة سنار قد أمدت السودان الحديث بأهم خصائصه القومية المتواصلة بين الأجيال بسبب التمازج العرقي و الثقافي الذي تم برعاية تلك الدولة الفتية[1].

لم يظهر التصوف في بدايات دولة سنار الإسلامية، لكنه ظهر بعد تشجيعه من بعض سلاطين سنار المتأخرين، بعد ظهور نزعات قبلية عميقة، فأراد هؤلاء السلاطين أن ينتشر التصوف، حتى يصرف الناس عن التعصب القبلي والعنصري.

وفدت الطرق الصوفية للسودان من عدة مصادر هي الحجاز ومصر وشمال وغرب أفريقيا. وقد سبقت مرحلة دخول الطرق كمؤسسات منظمة ذات تعاليم وأذكار وأوراد جماعية ومشتركة، مرحلة اتجاه فردي في التصوف ساد قبل مجيء الشيخ تاج الدين البهاري، أول داعية للطريقة القادرية، التي تشير معظم المصادر إلى أنها أقدم الطرق دخولاً إلى السودان.

قام شيوخ الطرق بوصفهم فقهاء ومتصوّفة بالعديد من الأدوار والوظائف في مجتمعاتهم ومن أمثلة ذلك دور: المرشد، والمعلم، والإمام، والمأذون، والطبيب، والوسيط المتشفع في فض النزاعات والصراعات والحروب ونصرة المستضعفين لدى الحكام والسلاطين. كما كان الناس يستشيرونهم ويستفتونهم في أمورهم وشئونهم الحياتية المختلفة ويلجأون إليهم لإطعامهم عند الحاجة. وكان لشيوخ وزعماء الطرق الصوفية علاقة بالسياسة اتخذت أشكالاً وصوراً متباينة خلال فترات الحكم المختلفة التي شهدها السودان بدءاً بفترة سلطنة سنار، والتي كانت في نصفها الثاني "العصر الذهبي" للطرق الصوفية ومشايخها في السودان، نظراً لما كان لها ولهم من منزلة علمية ودينية ومكانة اجتماعية ونفوذ سياسي[2].

---

(1) **يوسف فضل حسن**، مرجع سابق، ص145.

(2) **محمد خليفة صديق**، الصوفية والتصوف في السودان، قراءة آنية، مجلة الراصد الاكترونية، العدد135، رمضان 1435هـ، موقع الكتروني: *http://www.alrased.net/main/articles.aspx?selected_article_no=6681*
اطلع عليه يوم: 19 ديسمبر2019.

و في ذكر الطرق الصوفية نشير إلى عدد من العائلات الصوفية التي كان لها دور بارز في نشر الاسلام في بلاد الفونج، و منها عائلة العركي ، حيث كان الشيخ محمود العركي قد رحل الى مصر و تلقى العلم على مشايخ ذلك العصر مثل ناصر و شمس الدين اللقاني، و لما عاد إلى السودان عمل بما تعلمه، فكان أول من أمر النساء بالعدة بعد الطلاق أو الترمل بعدما كانت المرأة تتزوج في نفس اليوم الذي طُلّقت فيه أو رُمّلَت[1]. بالإضافة الى عائلة جابر، حيث كان الشيخ ابراهيم البولاد بن جابر بن غلام الله بن عائد الذي ولد بمنطقة الشايقية ثم ارتحل الى مصر و تَفَقَّه على يد الشيخ محمد البنوفري إمام المذهب المالكي بالقاهرة، و لما عاد الى وطنه أدخل إلى مملكة الفونج دراسة كتابي رسالة أبي زيد القيرواني و مختصر خليل بن إسحاق، فالتف طلبة العلم حوله وحول أخويه من بعده إسماعيل و عبد الرحمان [2].

فلقد كان للشيخ جابر أربعة أولاد، حيث ساهموا هم و أحفادهم من بعدهم بدور كبير في نشر التعليم الديني الفقه في كامل السودان الشرقي، كما عرفت أختهم فاطمة بنبوغها في العلم والصلاح، خَلَّفَت وراءها بيتا علميا لا يقل عن بيت آل جابر في العلم و الصلاح، منهم الصغيروناب أحفاد ابنها سيدي محمد بن سرحان الملقب بصغيرون ،الذي تعلم على أيدي أخواله ثم درس على البنوفري، الذي اصبحت لديه مدرسة خاصة به و شُدَّت إليه الرّحال و أخذ عنه الأبناء و الأحفاد[3].كما أنشأ آخرون من أحفاد أولاد جابر مدارس خاصة بهم كما قام ابناء عمومتهم بدور مماثل في نشر الاسلام و عقيدة التوحيد من خلال مدارسهم بكردفان و جبل الحرازة التي سكنوها قبل قيام مملكة الفونج [4].

---

(1) **الشيخ الامين الحاج محمد احمد**، وقفات مع كتاب الطبقات، طبقات ود ضيف الله، مركز الصف الالكتروني للطباعة و النشر و التوزيع و الاعلان، بيروت، لبنان، الطبعة الاولى، 1421هـ/2000م، ص132.

(2) **يوسف فضل حسن**، مرجع سابق، ص 140.

(3) **محمد ضيف الله**، كتاب طبقات في خصوص الاولياء و الصالحين و العلماء و الشعراء في السودان، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان، د.ت، حرف الألف، ص7.

(4) **يوسف فضل حسن**، مرجع سابق، ص141.

و كان الشيخ الصوفي العالم الفقيه إدريس بن الأرباب (توفي سنة1060هـ/1650م) مُتَبحّر في جل العلوم حتى إذا ما حدثته في أي موضوع إلاَّ و حدَّثك عنه حتى يظن السامع أنه لا يحسن إلا هذا العلم، وقد كان أول من أدخل إلى سنار الفتوى التي افتاها مفتي اسطمبول بتحريم الدخان[1].

داخلياً كان لسلطنة سنار علاقات مع الممالك الإسلامية التي كانت قائمة في منطقة جبال النوبة مثل تقلي و العباسية أما عن طريق التواصل السلمي أو عبر الهيمنة العسكرية مما مهد الطريق لتدفق هجرات عربية كبيرة إلى كردفان ممثلة في الحلف الذي تكون بقيادة الغديات الذين كانوا يعتبرون أنفسهم فرعاً من الفونج في كردفان.

لقد زار سنار كثير من الشخصيات التي كان لها أثر بعيد في نشر الثقافة العربية الاسلامية في االسودان الشرقي، و من هؤلاء السيد محمد عثمان الختم صاحب الطريقة الختمية وهو وليد مكة المكرمة عام 1208هـ/1838م، حيث أرسله سيده الشيخ أحمد بن إدريس لنشر الطريقة الادريسية الشاذلية إلى بلاد السودان فلقيت دعوته نجاحا محدودا في شمال السودان و شرقه، وبعد وفاة شيخه إدريس أسس طريقته الختمية [2]، وأنشأ لها عدة زوايا في مكة المكرمة والطائف وجدّة والمدينة المنورة، ومنها بعث بأبنائه إلى عدة جهات من جنوب الجزيرة و مصر و بلاد السودان من أجل الدعوة للطريقة الختمية و نشرها، ومعه انتشر الإسلام في جبال النوبة على يد تلاميذه من أمثال السيد إسماعيل الولي و غيره ، وأمتد تأثير السيد الختم إلى شرق السودان و إريتريا و الحبشة؛ و من هؤلاء السيد محمد بن عمر التونسي المؤلف و المؤرخ المشهور الذي وضع كتاب (تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان). وأقام بجوار سنار الشيخ علي ود بقادي الكاهلي الذي كان

---

(1) **محمد ضيف الله**، كتاب الطبقات، ص9.

(2) سميت بالطريقة الختمية نسة إلى محمد الختم الذي ادعى انه خاتم الاوليا الصالحين، و تعرف أيضا باسم الطريقة المرغنية نسبة إلى مولد الشيخ نسب الشيخ الختم المرغني. و تلتقي الطريقة الختمية مع الكثير من الطرق الصوفية الاخرى في المعتقدات =المنحرفة مثل الغلو في شخص الرسول صلى الله عليه و سلم، و القول بالحلول و وحدة الوجود، كما ترتبط في العصر الحديث مع الشيعية في جدالهم حول الامامة. و بنتشر اتباع هذه الطريقة اليوم في مصر و في السودان و خاصة في الشمال و الشرق من السودان و اطراف إيريتيريا المتاخمة للسودان.

يعتبر أعلم أهل السودان في ذلك الحين، و قبل هؤلاء جميعا الشيخ فرح ود تكتوك الذي تعتبر قبته أحد أبرز المعالم في منطقة سنار [1].

كما زارها الشيخ تاج الدين البهاري البغدادي القادري الذي قدم إلى سنار في عام 1577م، من بغداد عن طريق الحجاز حيث استقبله داؤد بن عبد الجليل التاجر السوداني و دعاه إلى زيارة السودان، و خلال إقامته في سنار التي دامت سبعة أعوام قام تاج الدين بتسليك عدة مريدين في الطريقة القادرية من سنار منهم الشيخ عجيب الكبير، ملك العبدلاب، وشلع الدين ولد التويم جد قبيلة الشكرية العربية، و اتبعه أيضا الشيخ حجازي بن معين، و الشيخ بان النقا الضرير و غيرهم، و قد كسب اتباع الشيخ تاج الدين مكانة مرموقة في بلاد الفونج و نالوا مكاسب وامتيازات كبيرة عند ملوك الفونج الذين قربوهم إليهم، و اشتهروا بالكرامات و و أصبحت كلمتهم مسموعة لديهم، فلق كان السلطان عمارة دونقس يقرب الفقهاء و العلماء المسلمين إلى مجلسه، فحتى الجاسوس اليهودي يوسف روبيني كان قد تنكر في زي فقيه مسلم ليَتمكَّن من التَّسلل إلى قصره، و رغم أنه انكشف أمره بعد ذلك لكن عمارة دونقس عفا عنه [2].

ثالثا: مملكة دارفور (سلطنة الفور):

تنسب هذه المملكة إلى اقليم دارفور في شرق افريقيا، والتي يحدها من الشمال الصحراء الليبية ومن الجنوب بحر العرب و من الفغرب ممالك وداي و بغرمي و تشاد، و يعد الفور هم السكان الاصليون للملكة يستقرون في المنطقة الجبلية الوسطى التي تضم جبل مرة، كما سكنتها قبائل نوبية سودانية و ليبية من الزغاوة منذ القرن السابع للميلاد، بالاضافة إلى عناصر عربية من جهينة و غير

(1) **الحسيني الحسيني معدي**، موسوعة الصوفية، دار المنهل للنشر، 2013م، ص701.

(2) **يوسف فضل حسن**، مرجع سابق، ص ص 144 ـ 145.

جهينة هاجرت اليها عبر مراحل تاريخية مختلفة، ولما كانت هذه القبائل العربية تمتهن رعي الأبقار والإبل فقد عُرفت بالبقارة و الأبالة [1].

و تذكر المصادر أن قبائل الداجو هم أول من أسس مملكة في دارفور ثم تلاهم التنجور ثم اسرة كيرا[2] من الفور، و ينقسم أصول شعب الفور إلى ثلاثة أقسام هي: كونجارا ، تومركا وكراكيت.

ـ **الكونجارا** : هم شُعبة من الفور امتزجت بدماء عربية من بني هلال و التنجور. و هم عرب لم يعرفوا في تاريخهم أي لغة غير اللُّغة العربية.

تومركا: مشتقة من كلمة تومور و التي تعني المتخلف حضاريا، أو المتوحّش أو الأعاجم في بعض الأحيان.

ـ **الكيراكيت:** و هم سكان جبل مرَّة ، و هم يتكلمون لغة البطون الدارفورية لكن بمخارج حروف مختلفة،و تمتاز وجوههم بسمرة واضحة [3].

الجدير بالتنويه أن تاريخ بداية دارفور لا يزال غامضا و مضطربا نظرا لندرة النصوص التاريخية التي تتحدث عن الفترة التي سبقت فترة حكم الداجو والتنجور، و التي عرفت هجرة القبائل العربية سالفة الذكر إلى دارفور. فالمعلوم لدينا هو أن الداجو أسسوا دولة الفور وحكموها خلال القرنين الثالث عشر و الرابع عشر، إلى غاية فقدانهم السيطرة على تجارة القوافل لصالح التنجور الذين فرضوا سيطرتهم على المنطقة الوسطة من المملكة خلال القرن الخامس عشر للميلاد و تفرق الداجوا الذين انحسروا شرق و جنوب شرق جبل مرة، و خلال القرن السادس عشر و هي الفترة التي

---

(1) **مصطفى محمد مسعد**، سلطنة دارفور . تااريخها و بعض مظاهر حضارتها، دار المصوّرات للنشر و الطباعة و التوزيع ، الخرطوم، طبعة ثانية، 2016م، ص9.

(2) كلمة كيرا مشتقة من خيرة و هو اسم الاميرة خيرة ابنة ملك دارفور من الداجو التي تزوجها احمد المعقور العربي المسلم الذي اسس اسرة كيرا على اعتبار أن نسبة الاسر في ذلك الوقت كانت تنسب للام عند الدارفور قبل الإسلام.

(3) **سبيل آدم يعقوب**، قبائل دارفور، دار عزَّة للنشر و التوزيع، الخرطوم، السودان، 2005، ص ص64 ـ 65.

تشكل أوجّ عظمة حكم التنجور أخذ الإسلام في الانتشار ببطء، و ذلك بفضل وصول هجرات العرب البقارة من جهينة إلى سهول دارفور الجنوبية الذين اختلطوا مع السكان الاصليين لدارفور[1].

رابعا: حركة انتشار الإسلام في سلطنة دارفور:

دخل الإسلام دارفور منذ عصور، وربما يرجع للقرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، أي منذ سلطنة الداجو وسلطنة التنجور، ثم ازدهر في عهد سلطنة الفور الكيرا والسلطان شاو دورشيد آخر سلاطين التنجر، وقد كان هذا السلطان –كما ذكر الثقات– مسلمًا وقد زوج ابنته خيرة لأحمد سفيان المشهور بأحمد المعقور، ولم يأخذ السلطان شاو دورشيد الإسلام من يد أحمد المعقور كما جاء في كتب بعض المؤرخين، لكن الإسلام وفد لهذه السلطنة من شمال إفريقيا وشمال غرب إفريقيا، بالاضافة إلى المهاجرين من علماء سودان وادي النيل الذين نزحوا إليها عللى مراحل من التاريخ [2].

ومن أبلغ الدلائل على وجود الإسلام بدارفور منذ القدم وجود أوقاف التنجر بالمدينة المنورة منذ عهد السلطان أحمد رفاعة التنجراوي، دلالة على أسلمة سلطنة التنجر كما تم العثور على آثار لأنقاض جوامع بمدينة أورى حاضرة سلطنة التنجر بشمال دارفور أي بالقرب من مدينة عين فرح الأثرية، والتي تعتبر إقليما جغرافيا متميزا يعد سجلا لتاريخ الحضارة الإسلامية في دارفور.

كانت انتشار الإسلام في دارفور يسير بوتيرة بطيئة أكثر مما تم في مملكة الفونج، و يرجع المؤرخون الفضل في انتشار الإسلام إلى القصر الملكي في مملكة دارفور وتشجيع الممارسة الشعائر الإسلامية إلى سليمان سولونغ ،فبفضل هذا الملك اصبح الإسلام دين رسميا لمملكة الفور، فقد بنا

---

(1) **يوسف فضل حسن**، مرجع سابق، ص ص91 ـ 92.

(2) **م.أحمد عبد القادر أرباب**، تاريخ الإسلام في دارفور، في موقع الكتروني:*https://ar.islamway.net/article/2081*

سولونغ المساجد و أقام أول صلاة الجمعة في دارفور لكن بقيت ممارسة الطقوس الوثنية التقليدية مستمرة إلى جانب الإسلام حتى بين صفوف عائلة كيرة الحاكمة لفترة طويلة من الزمن [1] .

ولقد تعددت العوامل التي ساهمت في انتشار الإسلام في دارفور قبل منتصف القرن الخامس عشر الميلادي بزمن طويل، هذه العوامل كانت تؤتي ثمارها منذ أن انتشر الإسلام في بلدان غرب إفريقيا و وسط إفريقيا المعروفة جغرافيا باسم بلاد السودان الغربي والأوسط، منذ القرن الحادي عشر، حيث كان يمر حجاج هذه البلاد في طريقهم إلى بيت الله المقدس بإقليم دارفور، إضافة إلى الاتساع في حركة التجار العرب وغير العرب من المسلمين في هذا الإقليم ،والتي لاقت ترحيبا من سكان الإقليم، وهو ما ساعد على انتشار مسيرة الإسلام وتوطيد العربية لغة القرآن الكريم، والتخاطب في شتى المجالات الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وعندما أسس السلطان سليمان سلونق سلطنة الفور الإسلامية عام (848هـ- 1445م) اهتم ببناء المساجد وفتح المدارس وتعمير الخلاوى بالمدن والقرى، كما واصل حفيده السلطان أحمد بكر (1726م-1746م) نهج أسلافه في هذا المضمار بتشجيع انتشار الإسلام، من خلال بنائه للمساجد والمدارس القرآنية و شجع هجرة العلماء للعمل بدارفور لنشر دين الإسلام بطريقة علمية مؤسسة، فأرسل رسله للدول المجاورة، فوفد نفر كريم من العلماء الأجلاء من تمبكتو غرب أفريقيا ، ومن دار شنقيط ، ومن سلطنة البرنو، وسلطنة باقرمي والمغرب العربي، ومصر وتونس وفزان والحجاز وسودان وادي النيل بناء على دعوته، دخل هؤلاء العلماء سلطنة دارفور في فترات متعاقبة ، واستقروا بها لأداء مهمتهم الجليلة، فوجدوا من السلاطين الرعاية والاحترام والتقدير والتكريم، فمنحوهم الأراضي والمال الوفير والخدم لراحتهم واستقرارهم، اعترافًا برسالتهم المقدمة، واستقروا بوطنهم الجديد دارفور، ونشطت مدارسهم، وازدهر العلم في ربوع البلاد، وقوي الإسلام، وتبحر الناس في علوم الدين[2].

---

(1) **يوسف فضل حسن و ب. اوغوت** ، االسودان من 1500 إلى 1800، مرجع سابق، ص229.

(2) **أحمد عبد القادر أرباب**، نفس المرجع السابق.

بالإضافة إلى دور محمد تيراب بجلبه للكتب الدينية من مصر و تونس ، أما عبد الرحمان الرشيد الذي كان عالما و فقيها في الدين فقد شجع الصوفية للقدوم إلى بلده و منهم الشيخ عمر التونسي صاحب تشحيذ الأذهان. و زار المملكة في عهده فقهاء من مصر و الحجاز والسودان النيلي و حتى السودان الغربي على شكل مالك الفيتاوي من فوتا ـ تورو السنغالية، الذي كان معلما لعبد الرحمان قبل أن يصير سلطانا، ثم ولاه ابنه محمد الفاضل الوزارة بعد ذلك و لقد شجع السلطان عبد الرحمان الفقهاء على الاستقرار في أرضه بمنحهم الحواكير (نظام الحاكورة هو منحهم أراض يستغلونها دون أن يدفعوا عليها ضرائب) [1].

كما استقطب محمد تيراب الكتب الدينية من مصر و تونس، أما الملك عبد الرحمان الرشيد (1786 ـ 1800م)فقد كان رجلا متفقها و زاهدا[2]، كان حافظا للقرآن الكريم عفيف النفس عمل على تشجيع الفقهاء و الصوفيين من بلدان اخرى للاستقرار في دارفور و منهم ابن عمر التونسي و ابنه محمد الذي ألف كتابا بعد اهم المصادر التي تؤرخ لمملكة دارفور و موسوم بـ«تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب و السودان»[3]. كما جلب إلى بلاده فقهاء آخرون من مصر و الحجاز و السودان النيلي و غرب بلاد السودان، منهم الشيخ مالك الفوتاوي و هو من عائلة مشهورة بالعلم و الدين وكان معلما لعبد الرحمان قبل أن يتولى السلطنة، ثم أصبح وزيرا للسلطان محمد الفاضل[4]، كما شجع الفقهاء و علماء الشرع على الاستقرار في بلاده من خلال إقطاعهم أراض وفق نظام الحاكورة[5] الذي يعفيهم من الضرائب، و الذي كان يتمتع به نظراؤهم في مملكة

---

(1) **يوسف فضل حسن و ب. اوغوت** ، االسودان من 1500 إلى 1800، مرجع سابق، ص230.

(2) **Ira M. Lapidus**, A History of Islamic Societies, Cambridge University Press, 2002, P232

(3) **محمد بن عمر التونسي**، تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب و السودان، حققه: خليل محمود عساكر ومصطفى محمدمسعد، الدار المصرية للتاليف و الترجمة، القاهرة، 1965، ص99.

(4) **نفسه**، ص100.

(5) **الحاكورة** : كلمة حاكورة مأخوذة من الحكر ونطلق على الأرض الخاصة بقبيلة صغيرة داخل الدار أول عشيرة من عشائر أي قبلية بمعني آخر أن كلمة (الدار) تعني عدة حواكير والحاكورة تتكون من عدة فيسا والحاكورة عادة تكون تحت حراسة دملج أو سكك أو شيخ مشايخ إذا كانت ملكاً لقبيلة صغيرة أو لعشيرة، أما إذا كانت خاصة بأسرة فإن كبيرها هو المسؤول

الفونج[1]. وقد ساهمت الحركة التجارية مع العالم العربي الاسلامي و هجرة المسلمين إلى دارفور بقسط كبير في انتشار الاسلام، بالإضافة إلى دور قوافل الحجاج التي كانت تمر عبر أراضيهم كل سنة.

و لقد لعبت قبائل الزغاوة التي تقع أرضهم في الجزء الشمالي الغربي من المملكة دورا عظيما في نشر الاسلام باعتبارها كانت تنمثل حلقة وصل مع الكانم التي تحولت خلال القرنين السادس عشر و السابع عشر و الثامن عشر إلى مركز للحضارة العربية الاسلامية، حيث كانت قد سبقت دارفور إلى الإسلام بعدة قرون. كما شكلت ارض زغاوة نقطة التقاء مهمة للقوافل القادمة من المغرب والتشاد و مصر و غيرها. حيث كانت دارفور محاطة بممالك إسلامية من كل جهة ما عدا من جهة الجنوب حيث كانت هناك امم همجية[2].

و لقد ساهمت قوافل الحجاج المارة بدارفور بنصيب كبير في انتشار الإسلام، فلقد كانت هذه القوافل القادمة من وسط افريقيا و غربها و المتجهة إلى موانئ عيذاب و سواكن ابتداء من القرن 12م تمر بارض دارفور لتفادي الحروب الصليبية الدائرة في بلاد الشام و شمال البحر الأحمر. و كان كثير من الحجاج يستقرون في بعض المراكز التجارية بدارفور [3].

و هكذا أصبح الإسلام هو طابع الحياة اليومية في دارفور فكان كل امام او مدرس للقران في دارفور مسجد بالقرب من بيته يصلي بخمسة أو ستة مصلين و يعلم اولادهم القران و العربية، بالاضافة إلى خلاوي لتعلم العلوم الشرعية و له بالقرب من منزله حاكورة يعيش منها عهو وتلاميذته.

عنها.ومن حيث الحدود فإن أي حاكورة معروفة تماماً بفضل الفرز الواضح في الحدود..أما الإدارة الجديدة على مستوى الحاكورة فهي في أدنى درجات السلم ولا تتجاوز الدملج أو شيخ الشيوخ.

(1) **يوسف فضل حسن**، مقدمات في تاريخ الممالك الاسلامية في السودان الشرقي، مرجع سابق، ص144.

(**2**) **يوسف فضل حسن و ب. اوغوت** ، مرجع سابق، ص329.

(**3**) نفسه، ص330.

كما أصبحت الشؤون اليومية و الاحوال الشخصية تسير على نهج الشريعة الاسلامية، و حتى مرتبات السلطان التي يصرف منها على نفسه و اهل بيته كانت تؤخذ من بيت المال الذي كان ماله يأتي من الخراج والزكاة، الفطرة، فكانت الزكاة يقوم بجمعها رجل يسمى ملك الجبائين، حيث ياخذ عشر الغلال التي تجمع من الاراضي، و يجبون العشر من التجار و اهل الحضر،بالإضافة إلى الهدايا و الضرائب التي ورثتها الأعراف والتقاليد عندهم و خاصة التي يفرضها قانون دالي [1].

أ ـ **قانون دالي:**

هو مجموعة من القوانين العرفية التي جمعوها في قانون خاص و كلمة دالي معناها اللسان في لغتهم فكانوا يقصدون بها لسان السلطان، أي اوامره و نواهيه. و كان هذا القانون يوكل إلى حكام الولايات او المقدوميات عندهم لتنفيذه، و يعد ابو الشيخ هو المرجع الاعلى لهذا القانون، و الملاحظ على هذه القوانين انها كانت تخالف الشريعة في بعض العقوبات و التي توارثوها من فترة ما قبل الاسلام. و من امثلة هذه العقوبات أن السارق يغرم بست بقرات، و عقوبة الزاني بقرة واحدة، و عقوبة من يصضرب غيره ثوبا من قماش الدمور معروف عندهم. اما اذا كان الضرب دون جروح فالعقوبة هي نصف ثوب، و عقوبة شارب الخمر ثمانين جلدة و تكسر اواني الخمر في بيته. أما إذا أصيبت اراض بها عشب للرعي بحريق فتعاقب اقرب بلدة إلى هذه الارض ببقرة عن كل مساحة من الارض مقدارها درقة الخاصة بالحروب[2]. و توزع اموال الدالي مناصفة بين السلطان و و النصف الاخر لأصحاب الحواكير و المقاديم و الشواتي.

و من المظاهر الإسلامية في دارفور أن السلطان كان يلقب بألقاب إسلامية مثل امير المؤمنين، وخادم الشريعة، و المنصور و الفقيه، فهناك رسالة ارسلها السلطان حسين لصهره احمد بن عيسى وهو من اعيان دارفور جاء في مقدمتها ما يلي: « من حضرة أمير المؤمنين و خلاصة

---

(1) **ابن عمر التونسي**، تشحيذ الاذهان ، مصدر سابق، ص301.

(2) **رجب محمد عبد الحليم**، العروبة و الإسلام في دارفور في العصور الوسطى، مرجع سابق، ص262.

الأكرمين، خادم الشريعة و الدين، الواثق برب العالمين...»[1]. و في رسالة اخرى بدأها كما يلي: «من أمير المؤمنين سيدنا و مولانا و أعلانا السلطان محمد الحسين المهدي المنصور بالله تعالى امين»[2].

و من المظاهر الإسلامية أيضا أنه كان في كل بلدة من بلدات دارفور مسجدا، أو أكثر لتعليم الكتابة و القراة و القرآن، وكان لكل فقيه أو شيخ أو مدرس مسجدا صغيرا بجانب منزله، حيث يؤم خمس مصلين و يعلم القرآن و علوم الدين، وبجانب هذا المسجد يوجد خلوات للمجاورين، يعلمهم فيها العلوم الشرعية، و له حاكورة هي هبة من السلطان يعيش منها هو وطلبته مما يجعلهم يتفرغون للعلم [3].

و من مظاهر الحضارة الاسلامية في دارفور اتباع الشريعة الإسلامية، في احكام الاحوال الشخصية كالزواج و الميراث و الطلاق و غيرها، و حتى مصادر أموال السلطان كانت تحصّل بطرق شرعية كالزكاة و العشر، وكان المسؤول عن هذه الامداخيل يسمى ملك الجبائين الذين يجبون الغلال من البلاد، حيث كانوا يأخذون عشر ما يخرج من حبوب كزكاة وز يجعلونها في مطامير لاحتياجات السلطان، كما كانوا يجبون عشر من التجار الحضر و حتى من البادية[4].

ب.هجرة العلماء لدارفور :

هاجرت إلى دارفور قبائل أخرى ليست عربية الأصل، وكان لها أثرها في نشر الإسلام، نذكر منها قبيلة الفولاني التي جاءت من غرب جالون في القرن الثامن عشر، فكان منهم العالم مالك علي الفوتاوي، حفيد العالم عثمان دان فوديو، والعالم التمرو من شمال غرب أفريقيا، وأبو

(1) **التونسي**، المصدر السابق، ص403.

(2) نفسه.

(3) **رجب محمد عبد الحليم**، نفس المرجع، ص257.

(4) **رجب محمد عبد الحليم**، العروبة و الإسلام في دارفور، مرجع سابق، ص260.

سلامة، والفقيه سراج. أما العلماء الذين وفدوا من سلطنة برنو فنذكر منهم العالم الشيخ طاهر أبو جاموسي الذي تزوج شقيقة السلطان تيراب، أيضا وفد من سلطنة باقرمي علماء مقدرون [1].

أما الميما فكان لهم دور عظيم في نشر الإسلام خاصة أيام سلطنة التنجر بشمال دارفور. كان لهؤلاء العلماء دور كبير في نشر الثقافة الإسلامية، كما كان لهم الفضل في تعليم مذهب الإمام مالك، والكتابة بخط الورش قبل العمل بالخط العمري. واستفاد أهل دارفور من مدارس أخرى كمصر وتونس والحجاز وسودان وادي النيل، إلا أنهم في ذلك العهد تأثروا كثيرًا من ثقافة غرب أفريقيا الإسلامية , وأيضًا المغرب العربي. تعليم القرآن وعلوم الدين: ويعتبر أهل دارفور تعلم القرآن والقراءة والكتابة واجبًا دينيًّا على كل شخص –رجلا كان أو امرأة– خاصة في طور الطفولة؛ لذا كان يهاجر بعض التلاميذ إلى خلاوى بعيدة، وهو ما جعل حركة المهاجرين سمة من السمات الاجتماعية البارزة في دارفور، وهناك اعترافات بأن قبيلة الفور جعلت خلاوى المهاجرين مؤسسات قائمة بذاتها، لها نظم وقواعد ومفاهيم وقيم مرتبطة بها، ومن الطريف أنك قد تجد في بعض هذه الخلاوى تلاميذ كبار السن لم يحفظوا القرآن في سن مبكرة أيام طفولتهم، ثم اقتنعوا بأن طالب العلم ليس له حد في العمر، والعلم واجب تحصيله؛ لأن طالب القرآن في ذلك الزمان كان مقدرًا ومحترمًا من قبل سكان البلد، وبعد حفظ الطالب القرآن وتخرجه، تذبح له الذبائح، ويعرض له الزواج بواحدة أو اثنتين أو أكثر، لأنه أصبح شخصا مهما في المجتمع، ومن ميزات حفظ القرآن أن صاحبه لا يُطلب منه دفع المهر لزواجه إثر تخرجه إكرامًا له[2].

ولفقهاء الفور طريقة معينة لحفظ القرآن عُرفت بحبال الفور، وهي علم خاص، وفن راق له طريقة تعليم معينة، لا تجد مثله عند القبائل الأخرى الموجودة بدارفور، فلا يرضى العالم عند الفور بتحفيظ القرآن إلا إذا كان متبحرًا في علم الحبال، والحبل هو أولا عبارة عن وسيلة في عملية حفظ الآيات المتكررة، ثم يستعين بالحبال في حفظ الآيات المتشابهة، وهو أن يذكر جميع السور التي

(1) **نفسه**، ص226.

(2) **أحمد عبد القادر أرباب**، نفس المرجع السابق.

وردت فيها كلمة معينة وهذا أيضا بمساعدة الحبال، مثل الحبل "فبلاو" الذي يشير إلى الآيات التي فيها كلمة مصر والحروف المذكورة هي التي تلي كلمة مصر. لذا لا بد لدارس القرآن في تلك المرحلة أن يعرف أعداد الحروف الواردة في الكتاب، ولا يعتبر الحافظ عارفا بالقرآن، إلا إذا كان عارفًا بفن الحبال والحرف، فمعرفة الحبال تعتبر قمة المعرفة عند أفراد قبيلة الفور، وعندهم علم التجويد وهو من العلوم التي يدرسها التلميذ المتخصص [1].

ويوجد نوعان من الامتحانات للشهادات العليا في تعلم القرآن:

فالنوع الأول : هو امتحان القوني، فيجتمع عدد من العلماء الفقهاء، ثم يحضر الممتحن، وعليه أن يكتب ويقرأ من حفظه دون أن ينظر إلى المصحف، ثم عليه بالتجويد، وقد يطلب منه أن يقرأ من ثلاث عودات أو أكثر، كتابة وقراءة قبل أن تجاز له هذه الشهادة وهي لقب "قوني". أما النوع الثاني : فهو صعب غاية الصعوبة، لأن هذا الامتحان تحت إشراف وتنفيذ كبار المشايخ أي الفقهاء الذين اشتهروا بين الحفظة وبين أهل فن الحبال منذ سنين، في هذه المرحلة المتقدمة لا يسأل الممتحن عن حفظه بالقرآن، بل هذا الامتحان يرتكز على الحبال، فإذا نجح الطالب في الامتحان فقد امتاز، ويسمح له بفتح خلوة جديدة، كما تقام له احتفالات ومهرجانات قد تستمر أسبوعًا كاملا، يحضرها الحفظة والمشايخ والقواني، هذه هي العادات والنظم التي يتميز بها التعليم عند مجتمع الفور. مراكز العلم بدارفور: نذكر من أشهر مراكز العلم بدارفور كرپو لمؤسسة مالك الفوتاوي وأسرته، ومركز كوبي للعالم عبد الرحمن كاكوم، ومركز جديد السيل الذي درس فيه فقهاء الجوامعة، ومركز هبيلة للفقيه عبد النبي ساجا، ومركز شوبا شمال جبل مرة، ومركز الدامرة شمال كتم لمؤسسة الشيخ عبد الباقي المسيري الفليتي، ومركز كونو شمال زالنجي. كان بكل قرية مسجد يتعلم فيه القرآن، وكان لكل عالم مسجد بالقرب من منزله يصلي فيه الصلوات الخمس ، وبجواره خلاوى المهاجرين، كان بعض المهاجرين يذهب إلى الأزهر بالتعريف بالقاهرة، حيث بدأت هجرتهم منذ

---

(1) نفسه

1850م، وخصص لهم في ذلك الوقت رواق بالأزهر، اسمه رواق دارفور ما زال محتفظا بهذا الاسم إلى يومنا هذا كما هاجر أهل دارفور إلى تونس وغرب أفريقيا طلبا للعلم [1].

ج. كبار العلماء في دار الفور :

هنالك عدد من العلماء اشتهروا بسلطنة دارفور الإسلامية، نذكر منهم العالم عبد الرحمن كاكوم، الذي أتى دارفور من سودان وادي النيل، وهو من أبرز العلماء الذين نشروا العلوم الإسلامية في دارفور، زامن عصره عهد السلطان محمد تيراب الذي تولى حكم سلطنة دارفور من 1768م إلى 1787م بعد فترة غادر الفقيه عبد الرحمن كاكوم سلطنة دارفور إلى الأزهر ، ودرس كل ما يخص علوم الدين، ومكث هنالك قرابة ثلاثين سنة، وكان يصوم السنة فأطلق عليه الضويمر . أي صايم ديمه ، ثم عاد إلى دارفور عالما في زمن السلطان عبد الرحمن الرشيد الذي حكم دارفور في الفترة من 1787م إلى 1806م فاستقبله بحفاوة بالغة، واستقر بمدينة كوبي، وشيد مسجده الذي صار معهدًا، وجذب الكثير من طالبي العلم حتى من سلطنة وداي المجاورة لدارفور. ذكر الثقات أن الإمام كاكوم هو الذي أشار للسلطان عبد الرحمن الرشيد بصلاحية الفاشر كعاصمة لدارفور، ظل أحفاد العالم كاكوم يزاولون مهنة العلم والتدريس والإمامية إلى عهد السلطان علي دينار الذي استشهد في نوفمبر 1916م [2].

ومن مشاهير العلماء في دارفور آنذاك الفقيه حسين ود عماري الذي ولد بطويلة وهو من قبيلة العريفات، فقد سافر حسين ود عماري إلى الأزهر بصحبة قافلة تجارية، ومكث هناك أكثر من خمس وعشرين سنة، درس علوم الدين الإسلامي وتفقه فيها. بعدها عاد إلى السودان، وزار في طريقه دنقلا وشندي وأم درمان وكوستي والأبيض، وكان يقوم بحلقات دراسية في هذه المدن، ثم

---

(1) **غالب يونس**، تاريخ دارفور عبر العصور، بنك الغرب الإسلامي،1998 ، ص ـ 320 انظر أيضا: **رجب محمد عبد الحليم**، مرجع سابق ص261.

(2) **غالب يونس**، تاريخ دارفور عبر العصور، بنك الغرب الإسلامي،1998 ، ص232.

وصل الفاشر في عهد السلطان محمد الفضل أكرم السلطان محمد الفضل الفقيه حسين ود. عماري وقربه إليه، وجعله معلمًا ومربيًا لأولاده، ثم رئيسًا لديوان السلطان [1].

و من أكابر العلماء مولانا فخر الدين بن الفقيه محمد سالم شيخ الشغا، والفقيه سالم شيخ العزيمة، والإمام الضو بن الإمام المصري، إمام السلطان، والعالم عز الدين من الجوامعة حضر من كردفان وملاونا القاضي أحمد طه بكوبي، العالم سعد من أهل الخبير والفقيه أبو سلامة بن الفقيه مالك شيخ الموطأ والفقيه الشيخ الدرديري من كردفان[2].

خامسا: ممالك كردفان :

أ. **مملكة تقلى:**

في الحقيقة فان كردفان هو تعبير عن إقليم أكثر من مملكة، و هو ما يعرف عادة بكردفان الكبرى، و يعود أصل كلمة كردفان كما ورد في المصادر التاريخية إلى ثلاث صيغ هي: كردفال، كوردفان، كردفان، وأشهر الراويات المحلية قاطبة تعود إلى حاكم جبل كردفان الذي كان يدعى (كردم) أو(الكرد) والذى كان يغضب لأبسط الأسباب فيقاال (الكرد فار) وفار تعني غضب وحُرف الاسم الى كردفال أو كردفان كما تسمى اليوم، والرواية الثانية ترجع الاسم إلى النوبة سكان المنطقة الأصليين فيقال إنها كلمة نوباوية تم تحريفها من الكلمة كلدوفان (وتعنى أرض الرجال) [3]. بينما لما نتحدث عن ممالك هذا الاقليم فإنها ممالكتان ظهرتا بين مملكتي الفونج و الفور وهما تقلى و المسبعات.

---

(1) **محمد بن عمر التونسي**، المصدر السابق، ص404.

(2) **غالب يونس** ، مرجع سابق، ص 230.

(3) **أماني يوسف بشير**، الدراسات الأولية لتوثيق وتوريخ المدن السودانية ، كلية الآداب ، قسم الآثار جامعة الخرطوم1، جمهورية السودان، د.ت، ص1245.

أما بالنسبة لمملكة تقلى فقد ظهرت خلال القرن 16م في الجزء الجنوبي من كردفان الذي تسيطر عليه جبال النوبة ، و لو أن هذه المملكة لم تبلغ اهمية و لا اتساع مملكتي الفونج و دارفور إلا أنها ساهمت بدور كبير في نشر الإسلام في بلاد النوبة، و لا نكاد نعرف عنها شيئا سوى ما وصلنا عنها روايات شفوية تداولها أهل المنطقة، أو ملاحظات بعض الرحالة و المؤرخين. و عموما فقد كانت هذه المملكة تسيطر على جبال النوبة ، وذلك بعدما سقطت مملكتي علوة و مقرة المسيحيتين اتخذت من هذه الجبال ملاذا لها، و في هذه الجبال استقرت و عرفت استقلالها وحافظت على هويتها في تلك الجبال المحصنة و لم تذب في ثقافة العناصر العربية و حافظت علىأصالتها النوبية و عاداتها و الإفريقية الوثنية رغم أنها عرفت الإسلام منذ عدة قرون[1].

لكن بحلول القرن الخامس عشر و السادس عشر عرفت توافد عناصر عربية على سهول كردفان و تزاوجوا و تصاهروا من السكان االوطنيين هناك فتكونت قبائل مستعربة ، و بدأت هذه القبائل تزحف تدريجيا نحو جبل النوبة و بدأت أولا بالمناطق غير الوعرة و منها جبل تقلى حيث تشكلت بعض القرى مثل تأسى، كرابا، الهوى، و خلال القرن 16 قدم إليها رجل عربي غريب وفقير من الجعليين يدعى محمد الجعلي الجموعي، الذي يعد المؤسس الحقيقي للمملكة، حيث تمكن في ظرف قصير من كسب مودة ومحبة و ثقة الناس هناك في جبل تقلى، بسبب ورعه و حسن أخلاقه، فانجذبوا إليه و تأثروا به من خلال اخلاقه الرفيعة و تقواه و علمه و رجاحة عقله ، فقرَّبَه إليه زعيم تقلى المدعو كيركير فزوجه ابنته، فأنجبت له ولد اشتهر باسم جيلي أبو جريدة، و كان ذلك سنة 1540م [2].

عمل محمد الجعلي على نشر الإسلام بين صفوف الجبل، يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر و يعلم الناس شعائر الإسلام، وقد تلقت دعوته تالك قبولا طيبا لدى السكان، و لما كبر إبنه أبو جريدة سار على خطى والده من الدعوة و العلم. و لما توفي جده كيركير ورث الحكم في تقلى

---

1 يوسف فضل حسن، مرجع سابق، ص110.

(**2**) **يوسف أبو قرون**، لمحات عن حياة و عادات قبائل السودان الكبرى، مكتبة علوم النسب، 2016، ص110.

مستفيدا من نظام وراثة الحكم في بلاد السودان التي يتم انتقال الحكم فيها عن طريق ابن البنت. وكان أبو جريد يلقب أيضا بالأحمر لأن بشرته ليست بيضاء، كما لقب بالقيلي أو(Gili)، التي تعني الغريب باللغة النوبية، وذلك نسبة إلى دمه الغريب عن أهل المنطقة [1].

و بتنصيب أبا جريد حاكما على تقلى سنة 1570م يكون قد تم تسجيل ميلاد مملكة تقلى الكردفانية، و التي تزامنت مع قيام ممالك الفونج و الفور و العبدلاب، و لقد عمل أبو جريد على تشجيع هجرة العرب إلى تلك المنطقة الوعرة كما شجع العلماء و رجال الصوفية إلى الاستقرار في تلك الجبال من أجل نش الإسلام و تعليم القرآن، فكان الشيخ تاج الدين البهري هو أول من استقر بها من الصوفية و نشر الطريقة الصوفية و ذلك سنة 1577م، كما تتداول الروايات بأن الولي الكبير المعروف بمكي الدقلاش تلميذ الشيخ العركي قد أرسل اثنين من مريديه إلى تقلى في عهد السلطان سابو من أجل أن يزوّجه من جاريتين لكن ملك تقلى أهداه واحدة فقط و لما ألحا عليه زوّجه ابنته خيرة التي انجبت منه الشيخ إسماعيل صاحب الربابة و ذلك سنة 1683م [2].

يذكر صاحب كتاب طبقات في خصوص الاولياء و الصالحين و العلماء و الشعراء في السودان اسماعيل صاحب الربابة حفظ كتاب الله على الفقيه محمد ولد منوفلي خليفة أبيه و تعلَّم افقه و التوحيد على الشيخ مختار شارح الأخضري، وأنه درّس كتاب الرسالة، و درّس التوحيد و له أشعار في مدح الرسول صلى الله عليه و سلم، و كتاب في الطريقة و آداب الذكر، و هو بنتمي الى الطريقة الصوفية التي تسمى الملامتية [3] و هي فرقة يفعلون اللوم في ظاهر الشرع، و لقد قُتل إسماعيل صاحب الربابة من طرف الشلك الوثنيين هو تلاميذته [1].

---

(1) **يوسف فضل حسن**، مقدمات في تاريخ ممالك السودان الشرقي، مرجع سابق، ص112.

(2)**يوسف حسن فضل**، مرجع سابق، ص114.

(3) ويقول عن هؤلاء الملامية أو الملامتية:« إنَّهم رأوا التديُّن بشيءٍ مِن العبادات في الظواهر شِركاً والتزيُّن بشيء مِن الأحوال في الباطن ارتداداً »، و يقولون أيضا: «إن مَن يُظهر شيئاً مِن الطاعات، أو من العبادات فهذا مشرك، وإذا أسرَّ في قلبه شيئاً مِن الأحوال فهو أيضاً مرتد». ويقولون: إن كلَّ عملٍ وطاعةٍ وقعت عليه رؤيتُك، واستحسنْتَه مِن نفسك فذلك باطل. وينقل عن

و لقد عرفت مملكة تقلى حركة تجارية رغم عزلتها و صعوبة تضاريسها و هذا بسبب قدوم التجار العرب للتجارة بالذهب الذي تزخر به المنطقة. كما استغل أحفاد أبو جريدة الجعلي قضية نشر الإسلام طريقة للتوسع على حساب أراضي واسعة و التربع على عرش المملكة، فلقد عرفت هذه الاسرة 11 ملكا تداولوا على عرش تقلى آخرهم كان عمر بن أبكر (1814 ـ 1827)[2].

لقد خلف أبو جريدة في الملك تسعة عشرة شخصا من نسله، حيث حافظوا كلهم على استقلالها حتى في عهد محمد علي والي مصر الذي ضم كامل السودان الشرقي لملكه، كما قاومت الحركة المهدية، و قد دأبوا كلهم على نشر الإسلام و اللغة العربية بين سكان النوبة الأصليين، كما شجعوا القبائل العربية على الهجرة إلى كردفان من أجل لمساهمة في تعزيز الإسلام و العربية وتعمير ذلك الإقليم[3].

أما بخصوص علاقة ملوك تقلى بجيرانهم فتذكر الروايات أن السلطان قيلي ابو قرون تزوج بنت السلطان الفونجي بادي بن رباط، و هذا من أجل كسب ود الفونج بعدما شعروا بقوتهم و تهديدهم

أحدهم، فيقول: هم قومٌ قاموا مع الله تعالى على حفظ أوقاتهم، ومراعاة أسرارهم، فلاموا أنفسهم على جميع ما أظهروا مِن أنواع القُرَب، والعبادات، وأظهروا للخلق قبائح ما هم فيه، وكتموا عنهم محاسنَهم، فلامهم الخَلْقُ على ظواهرهم، ولاموا هم أنفسهم على ما يعرفون مِن بواطنهم، فأكرمهم الله بكشف الأسرار والاطلاع على أنواع الغيوب، وتصحيح الفِراسة في الخلق، وإظهار الكرامات عليهم .أي أن هؤلاء القوم لما أظهروا القبائح –بزعمهم– ازدراءً لأنفسهم، وحتى لا يتعلق بهم النَّاس، وحتى لا يظنوا فيهم أنَّهم أولياء، وهم يريدون أن يكونوا أولياء في الباطن فقط، ولا أحد يعلم بهم، وينزِّهوا عن أنفسهم الرياء، وعن كلام الناس: أظهروا القبائح، وأظهروا المعايب، وأظهروا الشنائع حتى أن منهم مَن كان يأتي الفاحشة في الدواب علانية أمام الناس، ومنهم مَن دخل الحمَّام فسرق لباس أحد النَّاس، ولبسه بحيث يُرى، وخرج في الشارع، وكان الناس يعتقدون فيه الولاية، فلما رأوه أدركوه، وضربوه، وأخذوا الملابس، فقيل له في ذلك، فقال لهم: حتى أسْقط مِن أعينهم، وأبقى في عين الحق!! إلى آخر ما ينسجونه حولهم مِن الحكايات التي يصنعونها –كما يقولون– في تزكية النفس، وتطهيرها.

(**الدكتور سفر بن عبد الرحمن الحوالي**، الملامتية، ***مجلة الصوفية***، *http://www.alsoufia.net/main/1337-1-*)

(1) **محمد ضيف الله**، كتاب الطبقات، مصدر سابق، ص29.

(2) **رجب محمد عبد الحليم**، مرجع سابق، 260.

(3) **يوسف أبو قرون**، لمحات عن حياة و عادات قبائل السودان الكبرى، ص111.

لهم، و لكن رغم هذه المصاهرة فان ملوك الفونج لم يوقفوا تهديداتهم على تقلى كان اخرها في عهد السلطان بادي ابو الدقن، الذي بدا بالسيطرة على النيل الابيض باتجاه النوبا ثم غزا مملكة تقلى، وسبب هذه الحرب هو غرور ملوك تقلى، اذ قام قيلي ابو قرون بفرض ضرائب كبيرة على احد اصدقاء السلطان بادي أبو الدقن و اساء معاملته و تحداه ظانا أن الصحراء و عزلة مملكته تحول بينهما. فجمع له جيشا زحف على تقلى فنهبها و سباها إلى أن اتفقا على هدنة يدفع له من خلالها سنويا عدد من العبيد، و بقيت على هذا الحال إلى غاية الثورة المهدية اين أصبحت تابعة لدولة المهدي [1].

ب. مملكة المسبعات:

قامت سلطنة المسبعات في كردفان و مؤسسيها هم المسبعات الذين يعدون أبناء عمومة سلاطين دارفور، ويشتركان في جد واحد، ذلك أن سليمان سولونغ سلطان سلطنة دارفور كان له أخ يدعى مسبَّع اقتسم معه الملك فأخذ سولونغ بلاد الفور و منح لأخيه بلاد تونسام و هو إقليم كردفان، و تعاهد الأخوان على أن يقنع كل واحد منهما بملكه فلا يطمع أي منهما بمملكة الآخر، فعاش الاخوان في سلام و امان إلى غاية عهد سلطان دارفور محمد تيراب حيث قام حاكم كردفان من أحفاد المسبَّع و هو هاشم المسبعاوي الذي قويت شوكته و أصبح له جيشا عظيما سيّره لغزو مملكة أبناء عمومته دارفور فسبى و غنم و هو ماجعل السلطان تيراب ينقض ما بينهم من عهد فاعاد احتلالها و ضَمّها إلى ملك دارفور[2]. و بالتالي فشلت مملكة المسبعات أن تشكلة دولة مستقلة تماما عن التهديدات القادمة من دارفور، أو الفونج، و كانت آخر محاولة لتحقيق ذلك في عهد هاشم المسبعاوي [3].

---

(1) **يوسف فضل حسن**، مرجع سابق، ص 116.

(2) **ابن عمر التونسي**، تشحيذ الأذهان، مصدر سابق، ص86.

(3) **يوسف فضل حسن**، مرجع سابق، ص 118.

حيث تدخل الحلف السناري العبدلابي في شؤون المسبعات لما توفي سلطانهم جنقل و تعيين ابنه عيساوي ملكا على المسبعات ففر عدد من المعارضين له و استنجدوا بملك الفونج محمد ابو لكيلك و زعيم العبدلاب عبد الله راس تيرة ، الذين سيَّروا جيشا لغزو المسبعات و دارت بين الجيشين موقعتين سنتي 1747 و1751م، انتهت بهزيمة الحلف الفونجي العبدلابي و انفرد العيساوي بالسلطة في كردفان، و حاول غزو دارفور لكنه فشل و قُتل غدرا من طرف عمه مصطفى، الذي لم يعمر كثيرا في منصبه حتى ارسل له الفونج جيشا بقيادة أبي لكيلك فهرب إلى شمال كردفن قبل أن ينادي المسبعات بابن مصطفى و هو هاشم المسبعاتي السالف الذكر ملكا عليهم [1].

سادسا: انتشار الاسلام في كردفان:

تأثرت حركة انتشار الإسلام في كردفان بتوطيد أركان مملكتي الفونج و الفور الإسلاميتين التان بفضلهما انتعشت الهجرات العربية من جهينة نحو الجنوب الشرقي من جبل النوبة وكردفان، فقبل بدء هذه الهجرة إلى تقلى، وكردفان، ودارفور، كانت هناك مراكز للتعليم موجدة في شمال النوبة والتي جذبت أعدادًا كبيرة من الطلاب من المجتمعات حديثة العهد بالإسلام، حيث كان يجتمع عند الشيخ محمد القدال القاطن بالقرب من الدويم حوالي ألف وسبعمائة من أهل التكرور والفلاتة، والهوسا، والبرقو، وربما بعضًا من الفور، كما بلغ طلبة الشيخ أرباب العقائد (الخشن) [2]

---

(1) **محمد بن عثمان الجعلي العباسي**، سلطنة المسبعات في كردفان، موقع النسابون العرب، موقع الكتروني:
https://www.alnssabon.com/t47884.html

(2) **لشيخ أرباب العقائد (1601م– 1696م)**: و أحمد بن علي بن عون بن عامر أحد أولياء المحس المشهورين يتصل نسبه بالصحابي الجليل أبي بن كعب الخزرجي الأنصاري، المعروف بأرباب الخشن لخشونة كانت فى جلده من الوضوء والغسل، ويسمى بأرباب العقائد لعنايته بالعقائد التى ينبنى عليها الدين. ولد بتوتي عام 1009هـ/ 1601م، وتوفي بسنار عام 1107هـ/1696م في عهد سلطان بادي الأحمر بن اونس، قبل وفاته بنحو خمس سنوات عبر النهر من توتى إلى الضفة الغربية عام 1691م ، وكانت غابات وأحراش، فقطع الأشجار وهيأ المكان، وشيد مسجدا وخلاوى ، وعلى نار هذا الوالي بدأ عمران الخرطوم (جامع فاروق سابقاً)، وأشعل نار القرآن، وعمر الأرض بالذكر، وهكذا كان مولد الخرطوم –عاصمة السودان– على يده المباركة، أخذ علم الفقه من الشيخ الزين ولد صغيرون، والعقائد عن الشيخ على ولد برى الذى لازمه وقام بخدمته فدعا له فنفعه الله بدعائه وأفاض عليه من فضله، ذكره ابن ضيف الله فى "طبقات خصوص الأولياء" فقال: شُدّت إليه الرحال فى علم التوحيد والتصوف، وبلغ عدد طلبته ألف طالب، وألَّف كتابا فى أركان الإيمان سماه "الجواهر". وقال إن تلامذته هم

ألف طالب، كلهم من المنطقة الممتدة بين جنوب الجزيرة برنو، وكان بعض المشايخ يشتري الرقيق أو يحصل عليهم عن طريق الهبة، فكان يدخلهم في الإسلام ويفقههم في الدين ثم يعتقهم ليكونوا دعاة بين أهلهم، وكان أتباع الشيخ حمد ود أم مريوم [1] من قبيلة فزارة التي تعيش في دارفور يأتونه بزكاة الماشية، فيشتري بثمنها الرقيق فيعتقهم بعد أن يفقههم في الدين.

أما انتشار الإسلام في كردفان ودارفور فلا يختلف كثيرًا عن النهج الذي سار عليه في حوض وادي النيل الأوسط؛ فقد مر بمرحلتين رئيسيتين، ولعل الخلاف الوحيد بين الحالتين أن انتشار الإسلام كان أكثر بطئًا في منطقتي كردفان ودارفور، فعلى يد المهاجرين العرب الذين وفدوا من الشمال ومن الشرق واختلطوا بالسكان الوطنيين، وعلى التجار الوافدين من شمال إفريقيا وأواسط بلاد السودان وضعت اللبنات الأولى لنشر العقيدة الإسلامية، وبدأت المرحلة الثانية بقيام السلطنات، خاصة مملكتي الفور وتقلى، واللتين كانتا في بعض مظاهر نشأتهما نتاج هجرة بعض الفقهاء إليهما، وقد شجعت هذه الممالك، كما فعل الفونج من قبل، هجرة رجال الدين إليهما، فقام هؤلاء بنشر العقيدة الإسلامية، وكان معظم هؤلاء العلماء من الدناقلة، ومن أفراد المجموعة الجعلية، ومن مصر والحجاز وأواسط بلاد السودان[2].

شيوخ الإسلام.. وذكر منهم: الشيخ خوجلي عبد الرحمن أبو الجازوالشيخ حمد بن مريم.ـ **الصديق الشيخ محمد مالك القاضي**،(**خليفة أرباب العقائد**)، سيرة الشيخ أرباب العقائد الخشن مؤسس الخرطوم ومسجدها العتيق، في موقع الكتروني: *https://altikaina.ahlamontada.com/t236-topic*

(**1**) **الشيخ حمد ود أم مريوم**: هو الفشيخ حمد بن محمد بن علي المشيخي البكري الصديقي، المشهور بأمه مريم ولد الشيخ حمد بجزيرة توتي بالسودان سنة1055هـ/1645م، حفظ الرقآن على الشيخ ارباب الخشن، و قرأ الفقه و التوحيد وكان لا يخش في اللهلومة لائم، وكان مقلاّ في مخالطة الناس منشغلا بالارشاد و التعليم و الذكر و العبادة، وكان يقول أول أمري أقوال و ثاني امري أفعال و ثالث أمري مقاصد، توفي الشيخ حمد سنة1142هـ/1729م، عن عمر يناهز 87سنة، و للشيخ حمد حلة تسمى باسمه (حلّة حمد)، على شاطئ النيل الأزرق، بها مسجد للجمعة. ـ أحمد فرغل الدعباسي البكري، السلالة البكرية الصديقية، موقع:*https://sijjada-bakria.com/ar/blog/2017/05/30/* ود ضيف الله، الطبقات، مصدر سابق، ص ص 65 ـ 66.

(**2**) **يوسف حسن فضل**، الهجرات البشرية و اثرها في نشر الإسلام في السودان، شبكة الألوكة، موقع: */https://www.alukah.net/culture/0/93618*

و مع بداية القرن التاسع عشر الميلادي كانت العقيدة الإسلامية قد تجذَرت، وامتدت فروعها على أجزاء كبيرة من سودان وادي النيل، ولعل خير ما يعكس هذا التطور كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والعلماء الصالحين، الذي توفي مؤلفه محمد النور بن ضيف الله عام1810م[1].

1 نفسه.